أوراق عشرينية
أحمد أبو خليل

أوراق عشيرية

أوراق عشرينية : أحمد أبو خليل
طبعة منصة كتبنا ٢٠١٨
رقم الإيداع: ٢٠١٨/٢٥٧٨٢
ردمك: ٩٧٨-٩٧٧-٦٦٥٤-٩٥-٤

غلاف: إسماعيل زلط
خطوط: د. حاتم الأنصاري
التدقيق اللغوي

إن منصة كتبنا للنشر الشخصي غير مسئولة عن أراء المؤلف وأفكاره، وتعبر الأراء الواردة في هذا الكتاب عن أراء المؤلف ولا تعبر بالضرورة عن أراء المنصة والعاملين فيها.

أوراق عشرينية

أحمد أبو خليل

الإهداء

إلى إمامَي هذا الطريق الذي اختطاه في روحي بيانًا وسحرًا ..

الرافعي والمنفلوطي

بيان

في ذلك اليوم البعيد – الذي يبدو الآن أنه بالفعل بعيد – كنت أتلمس ذلك السحر الجديد، ذلك الأبيض البتار الذي أقبض عليه بيدي وأُلَوّح، فيلمع في شعاع الشمس، أو يُبرق تحت لألأة النجمات، كنت أتذوق للمرة الأولى سطوة الكلمات، عندما عرَفَت سبيلها إلى يدي لأول مرة شعرت بسطوتها، كانت كوحي يُصفِدُني عرقًا، كنت كلما دخلت على فكرة بالكتابة انطلقت أناملي في الضغط على أزرار الأحرف، فكأنها تحدث شررًا من الاحتكاك العنيف على اللوح، رصاصاتٌ مندفعة ترغي وتزبد حتى تنفد جعبتي. كنت لا أبدأ بكتابة شيء إلا وأشعر أنه يتدفق مني تدفق الصخر يحطه السيل من علٍ، ولا يتوقف إلا وقد أمسكت السماء وانقشعت سحب أفكاري الحُبلى، فيعود الماء هادئًا رقراقًا، وأقرأ ما كتبت فإذا نفسي تهتاج مرة أخرى دامعة حينًا وباسمة آخر، وما إن أنتهي حتى أغمد سيفي في محبرته وألملم جفوني وأستسلم للأحلام. كان ذلك اليوم البعيد قبل أكثر من عقد من الآن. عندما كنت في مقتبل العشرين، لم تكن الكتابة حينها إلا صهوة أمتطيها لأعبر بها من عالمي الخاص إلى عوالم الناس، صوتًا واهنًا، ولكنه كافٍ لإزعاج من حولي كي يلتفتوا إليه، كالوليد الذي لا يحسن إلا الصياح، لكن صياحه كافٍ كي يشغلهم جميعًا.

وكنت مولعًا أشد الولع بفكرة الثورة، وكان الحب هو الذي فتق الفكرة في نفسي، فإن الرجل الذي يحب ولا يحسن الثورة لما يحب ولمن يحب يكاد حبه يذهب سدًى، أو يصبح حبرًا على ورد تذبل أوراقه، أو يبقى عبقها في أصداء الزمن، لا فرق، فإن الأسى هنا وهناك حينئذٍ واحد، ونذرت لهذا العنوان الذي استوى في ضميري «الحب والثورة» كل الأوراق التي كتبتها في هذي الأعوام بكل حماسة وحماقة شاب طارف لم تغلبه تجارب الحياة بعد.

لم يكن الحب الذي فتق مشاعري هو ذلك الشعور الذي يغزو وجدان الفتيان في صوب ذلك المنال البعيد الذي لا ينالونه إلا بعد سني الدراسة والعمل. نعم، قد كان شوقًا جارفًا إلى تلك المكنونة المحجوبة بستار الغيب، التي يتقاذفني تيار الأقدار حتمًا إليها في نهاية المطاف، ولكن أيضًا كان حب القوم الذين جئت منهم، والأرض التي نشأت عليها، لكن ليس على حالها الذي وجدته يوم أن جئت، فقد قلُص ذلك كثيرًا، لقد أحببتهما بامتداداتهما في الجغرافيا ورحابتهما في التاريخ، أحببت «الأمة»، واعتبرتها أكثر تعبيرًا لانتمائي الحقيقي عن «الوطن»، لذا كان هذا الحب جارفًا وواسعًا، يهيج ويثور مع كل جرح يُنكأ في هذا الاتساع.

وكان عالم «المدونات» في مطلع فورتي هذه جديدًا، طلعت سناياه في عوالم الإنترنت حديثًا، وكان كلماتي أشبه ما تكون بالبيارق أعلامًا على أفكاري ومشاعري، فسميت مدونتي آنذاك بالبيارق، ثم أخذَت مادة الاسم في نفسي تتسع اتساعًا عظيمًا بكل معانيها من أول أصوات حروفها: الباء حرفٌ انفجاريٌّ شديدٌ، تنفجر به الشفتان كما تنفجر براكين الثورة في وهج البيرق، والراء حرفٌ تكراريٌّ، ينتج من تتابع

ضربات اللسان في سقف الفم، كما تتابع ضربات ذلك الفتى الحانق على أسقف العالم إلا سقفًا واحدًا إلهيًّا يمسي السماء، والقاف الذي هو انفجاري أيضًا، وفي آخر الكلمة له قلقلة ترج الأسماع وتجعل من قذائف الحق صوتًا مجلجلًا يبرق ويرعد ويدوم صداه — حتى بعد أن تنتهي ثورته ويذهب صوته — في ثنايا الزمان والمكان.

ولم أنتهِ عند الأحرف ونظامها الصوتي، بل ابتديت، فمعجمي ما زال يقلب في مادة الاسم الذي يخرج منه أول ما يخرج البرق، ذلك المخلوق العجيب الذي يولد ليموت، يعيش لحظات قليلة نادرة، لكنها كافية لأن يخطف أبصار الظالمين، أو يضيء لمن يريد أن يمشي فيه وسط ظُلمة الحياة؛ أما البارق فهو السيف الذي بِلاه لا يقوم لضعيف حق، ولا يندفع إلى هاوية باطل؛ والبارقة هي البشرى بعد الجفاء، هي السحابة الواعدة بالخير والماء النازل من السماء زلالًا على الناس، وأخيرًا ألطف المعاني وأمضاها إلى نفسي هو معنى الفعل، فإذا قلت: أبرق الرجل وأرعد، أي أرهب وهدد وتوعد؛ وإذا قلت أبرقت المرأة وأرعدت، أي سفرت، تزينت وتجملت.

وكذا كلماتي ألفيتها ترق رقة العطر في خد الحبيب، وتحد حدة الشفرة في صفحة السيف، وفي كلٍّ أنا وَلِهٌ مجذوب في ذلك العالم الأثير.

وعلى كل نعود لما بدأناه، فإن هذا الاستطراد الذي تفتح لي عبقه من الزمن التليد ليجعلني أقدم بين يديكَ أمر علاقتي العجيبة بالعربية، لغةً وثقافةً وفنًّا، فإني مولع بها ولع المحب المكب على حبيبته ينظر لمحاسنها ويتعبد في محرابها، وكلما غاص فتحت له من مباهرها، كما رأيتَ فمن أحرف ثلاثة ارتضيتها مادة لعنوان مدونتي اندلقت عليَّ كل هذه المعاني. وعلى الرغم من ذلك فإني واأسفاه حبيب عابث، وخليلٌ

ناكر لنعمائها الذي تبديه لي من مفاتنها دونًا عن كثير من الخلق؛ لأني بدلًا من أن أتعهد كل ذلك بالحفظ والمداومة والقرب المقيم، رحت أهيم في كل الوديان مكتفيًا منها بالتلاقي المتباعد كل حين وحين، ورغم أني بعد كل لقاء تُروَى فيه روحي من مباهجها أعاهد نفسي أن أمكث متفيِّئًا ظلالها الوارف أجد نفسي أهيم في التيه الهجير مرة بعد مرة، ولا يبقى من أمر مقامي عندها إلا أمنية عندما يسألني أحدهم: لو أنك تملك مالًا وفيرًا يكفيك عن تلمس الرزق في دروب الحياة ما كنت تفعل مما تحب وتشتهي؟ أقول له: كنت ألازم العربية لغةً وثقافةً وفنًّا، أقرأ وأكتب ولا أملُّ.

وبالرغم من ذلك فإن تلك الحالة التي تلبست قلمي الآن، وهذا الوصف الذي أصفه، لم أستطع أن أغوص فيه إلا بعد أن خلعت عن نفسي هذي العشر السنوات، وعدت بقلمي إلى ما كان عليه، فإن الأمواه التي جرت في النهر كل تيك الأعوام غيَّرته أيما تغيير، غيرته كما ينبغي لأي زمن أن يغير الناسَ، وغيرته لأن في هذا الزمن تحديدًا يتغير كل شيء. في تلك القنطرة من العمر التي يتحول معها الفتى منا من فارس همجي يحل ويرتحل يفر ويكر يصيب ويكف كيما يشاء، إلى رجل ذي تكاليف ومكانة ما وخط حياة آخذٍ في الثبات والوضوح يومًا بعد يوم، قاطعٍ بينه وبين ما كان في تلك الأيام الخوالي.

كانت أوراقي العشرينية هذه أضعاف ما هي عليه الآن بين يديك، كنت أحشد فيها كل ما كتبته في هذه السنوات العشر من كلام شعوري شبيه بالأدب، أو حوادث عايشتها وخلعت عليها من نفسي وقلمي شعورًا ووصفًا إلى مادة صحفية مبثوثة في المنصات التي كتبت فيها، إلى نظرات وفكيرات في السياسة والاجتماع وهوامش على علوم عربية

وإسلامية تلمَّست أول طريقها، ولكني أتيت على كل هذه الصنوف فنحيتها ما عدا الصنف الأول، إذ إن الزمن وأنا جاوزا كل ما كتبته في غير عالم الحس والشعور تقريبًا، فأصبحت جل الأفكار ساذجة أخجل من قراءتها، أو مغبرة كأنما حفرت على أعمدة معبد قديم لا تنفع أحدًا ولا تضر، ولما كانت غايتي في جمع هذه الأوراق أن ينظر فيها الفتى المقبل على العشرين، فيعرف منها وينكر، ويبصر ما لا يغني عن تجربته الخاصة، ولكن ما يؤنس فقط هذه الرحلة التي يبتديها، لما كانت غايتي ذلك فإني رفعت ما لا يخص هذه الرحلة الوجدانية وما عايشته من حوادث حتى يستقيم الأمر لي وله.

غير أني لا أخص ذلك الصنف من الناشئة فقط، ولكني أيضًا أخصني وأخص جيلي من الذين أبحروا اليوم لتوهم بعيدًا عن جزر العشرينيات من العمر، علهم يجدون في هذه الكلمات سلوى لما تركوه أو يستطيعون أن يأخذوا من هذه الأوراق صناديق ذكريات يحشون بها مراكبهم الآخذة في الابتعاد مخلفةً وراءها زمنًا لن تزيده الأيام إلا بعدًا متطاولًا.

ثم إنني بعد ما رفعت ووضعت نظرت إلى ذلك الزمن المخصوص الذي أثبت ما كتبته فيه، ليس الزمن الذي يبدأ بشكل عام من العشرين إلى الثلاثين من عمر الفتى منا، ولكن الذي يبدأ بعام ٢٠٠٧ وينتهي بعام ٢٠١٧، فوجدته كان مثقلًا بالأحداث التي ربما لم تمر على عقد مثله في وطننا هذا منذ عقود، وشعرت أن ما كتبته على هامش تلك الحوادث يستحق هو الآخر أن يضمن هنا، ولم يأتِ لي هذا الشعور في بداية الأمر، حيث ظننت أن أرباب الكتابة سيكثرون من ذكر هذه الأعوام وحوادثها في كتبهم ومؤلفاتهم وسيكون ما أبثه بينهم قليلًا لا يقاس إليهم؛ ولكن ظني هذا خاب كثيرًا إذ أرى الأيام تكر، والذكريات

تتباعد وتهترئ أثوابها، ولا أجد فيما يُكتب ما وثقته على عجل غير قاصد إلى نشره.

وبين هذا وذاك قد يجد المطالع للأوراق نفسه تائهًا، تذهب بنفسه ورقة في الأعالي وتخفض به أخرى إلى السفوح، فلا يقسون على إذ إنها كُتبت متفاوتة في الوقت والنضج والأحلام وأردتها كذا بلا تنقيح ولا تعديل يحلمها حملًا على مِزاجي الأخير عله يدرك كذلك من نفسه، ويرى ذلك الأثير الذي يكبر وينجلي مع كل ورقة منها، وثبت بعض تواريخ هذه الأوراق عل ذلك يساعده على تتبع ذلك الخيط الناظم.

ولتعلم أيها الآخذ بمفتتح تلك الأوراق أني قد آمنت بقضية وآليت ألا تنفكَ عن كلماتي، وهي قضية الكتابة البيانية التي هي القوة الباهرة في أحرفنا العربية كما أدَّعي، وكأنما كانت العربية في نفسي كالجميلة الناعسة فأيقظتها قبلات الرافعي والمنفلوطي علمًا هذا الفن، ويكفي أن نقرأ مقدمة المنفلوطي في النظرات، ومقدمة الرافعي لوحي القلم لتدرك فكرة الكتابة البيانية المنبئة عن مكنونات النفس، تلك العصا الساحرة التي ما إن تلمس الأشياء العادية الهامدة حتى تدب فيها الحياة، فترى الحزن طافحًا بالأسى الذي تتشَقَّق منه القلوب، والألم غاصًّا بالحنظل الذي تتقرح منه الروح، والهناءة حافلة بالحبور الذي يفتح الورود في النفوس؛ ولا ليس الحس الوجداني فحسب، وإنما كل منظر في الحياة، كل طلعة شمس أو غسقة ليل، كل قطرة مطر أو ضربة موج؛ كل نظرة عجلى أو طعمة سائغة أو غفوة عابرة، كل لفتة في هذه الحياة عندما تلامسها ريشة البيان تحولها إلى لوحة فنية ترسل في النفس ما ترسل، وتحث الرائي على أن يستقبل من هذا الحياة أكثر مما تبدي له النظرات العجلى.

وقد عاب عليَّ أناس أني ألعب بالألفاظ لعبًا، أو أني أغوص في الغريب من المعاني ولا أُبِين، أو أني أعمد إلى الزينة والزخرف فيثقل النص ويستغلق على الأفهام، ويقولون قولة قديمة: لمَ لا تكتب ما نفهمه؟ فما أجد في كنانتي ما أرمي به هذا القول وأفنده أروع وأبهى من كلمات الرافعي في بيانه «إذ عابوا عليه من قبل السمو الأدبي بأنه قليل، ولكن الخير كذلك، وبأنه مخالف، ولكن الحق كذلك، وبأنه محير ولكن الحسن كذلك، وبأنه كثير التكاليف ولكن الحرية كذلك. إن لم يكن البحر فلا تنتظر اللؤلؤ، وإن لم يكن النجم فلا تنتظر الشعاع، وإن لم تكن شجرة الورد فلا تنتظر الورد، وإن لم يكن الكاتب البياني فلا تنتظر الأدب.»

لكني لا أدعي أنني كاتب بياني فأنا في أول الطريق، ولا أدعي أن ما أكتبه أدب فما هو إلا مجرد محاولات، وما أنا ممن أنتسب إلى طريقهما – الرافعي والمنفلوطي – شيئًا ولا حتى مستحقًا لأكون تلميذًا لهما، إنما حالي معهما كحال الذي أراد أن يقول شعرًا فذهب وحفظ ألف بيت، ثم ذهب ونسيها ثم قال شعرًا، أحسب أنني كذلك قرأتهما منذ سنوات كثيرة ثم لم أتعهدهما طوال تلك الفترة فأصبحا كباقي الوشم في ظاهر اليدِ.

وإن هذا الكتاب الذي حدثتك عن فكرته وعن مضامينه وعن أسلوبه لهو بعد كل ذلك كتابي الثاني الذي حق له أن يكون الأول، فهو الثاني بعد «يومًا ما كنت إسلاميًّا»، والذي صدر قبل خمسة أعوام من الآن، وهو الأول إذ إن ملفه مفتوح على حاسوبي القديم من تسع سنوات تقريبًا، ولا أواري في أنني كنت أقدم خطوة وأؤخر أخرى طوال أربعة أعوام تقريبا في نشر هذا الكتاب لأمرين، أولهما هو الخوف من الجمهور الذي تلقى الكتاب الأول بالقبول وحملني بوصوله إلى قلوبهم وعقولهم

حملًا ثقيلًا بأن يظهر الكتاب الثاني يبزه ويعلو عليه، وهذا الكتاب بعدُ في موضوعه وأسلوبه بعيد عن الأول، وليس فيه منه إلا المقال الذي ابتدت منه فكرة الكتاب الأول أثبته بنفس العنوان والتاريخ.

أما الأمر الثاني فهو تعاقب الأحداث السريع وتغير الأفكار لا أقول عامًا بعد عام، بل شهرًا بعد شهر، ونظري لكل ما تمر عليه الأيام بعد كتابته بالارتياب والظنة فيما يحمله من حس وفكر، ولولا ضنِّي على هذه الأوراق من أن أحبسها فتحبسني هي عن كل كتابة قادمة؛ ونصح بعض الأحباب والإخوان بأن أقدم ولا أحجم عن هذا، لآثرت أن تظل حبيسة ملفاتي لا تشم رائحة الحبر.

الآن يمكنني أن أدعك تستفتح أوراقي، وخالص نصحي ألا تبحث فيها عما يروقك أو لا يروقك، ولكن أن تبحث في نفسك عما تفتقه لك تلك الكلمات. فإن لم تجد شيئًا فلا طائل من مضيك فيها، وإن وجدت فهذا عين المراد وغاية الطلب، والله أسأل لكل فؤاد يطلع على هذه الكلمات من الخير مفاتحه ومن الحياة بقيتها الآخرة.

أحمد أبو خليل

القاهرة – ٢٠١٨

عندي عشرون

عندي عشرون ومَن أنا في كُتّاب الزمان حتى يكون عندي — غيرهم — عِندُ ..

عندي عشرون

٩ / ٦ / ٢٠٠٧

صوت المنبه أخذ يدق، ويدق حتى أتمَّ عشرين دقة. تثاقل جسدي الكليل مستيقظًا. متعب العينين من سهر الأرق، ترنح مرة في الهواء قبل أن يتحسس قدميه، ساقها بحذر، توضأ بتلقائية شديدة، يقطر الماء من جنبات وجهه فيكشف عن قسمات قاسية كأنها ما عرفت في الحياة فرحة.

قبل أن يهم بالخروج، وقعت عيناه على ورقة التقويم المعلقة على باب الغرفة، وجد مكتوبًا عليها ١٠ / ٢٠٠٧/٦، بُهت وكأنه لا يعرف ذلك اليوم، وكأن رأسه لم يزل به وجع من التفكير به منذ أشهر عدة، وكأن قلبه لم يزل يخفق كل ساعة تقربه من هذي اللحظة. مد يده نزع الورقة، دسها في جيبه ثم مضى بعدما أطرق بُرهة.

يدلف عبر درجٍ فيخاله يحوي عشرين بسطة، ينزل للشارع المظلم أعمدته كعشرين شمعة محترقة، تهرب عيناه لتفتش في السماء، ينظر إلى القمر فإذا به مكانه لم يتحول منذ عشرين حِجَّة. فإذن ما الذي تحول وتبدل، ما الجديد في هذه اللحظة التي حتمًا مرت على أناسي كثرٍ طوت الأيامُ حياتهم صفحة صفحة.

الجديد! الجديد أنه لم يفرح بذلك أية فرحة، وما يتمنى ممن حوله أن يهنئوا، بل أن يعزوه فردًا فردًا، يعزوه ويعزوا ذاك الزمان الغريب الذي قضى الله أن تكون هذه السنوات العشرون من حظه، وهذا المكان الذي خُط له أن يعيش فيه هذه المدة.

عشرون عامًا ربما لا يتذكر منهم سوى عشرة، ربما أصاب فيها شيئًا من مبتغاه، لكن كمن أصاب بمخيطه من البحر الزاخر قطرة، قضى أغلبها على كرسي موثوق إلى طاولة مكوم على الكتب والمذكرات، ما عدا ذاك المشهد كان على هامش الحياة، فما ذكر له أيُّ شخص أن وظيفته في الحياة أن يفعل أيَّ شيء سوى المذاكرة والتفوق، ولا مرة!

تدور هذه الأنات على قلبه، ولم يتبقَّ على المسجد الذي في آخر شارعهم سوى عشرين خطوة، وهو ما زال يتمنى ألا يكون إمامه في الصلاة عم الشيخ عطوة. بل، يتمنى أن يجد ذلك الشيخ الجليل الذي رآه في حلمه، وهو ما يزال يتفرس الوجوه، يبحث عن بطل من الأبطال يشركه في أثقل أمانة على وجه الأرض.

أجل يتمنى أن يجد عبد الله بن أبي قحافة يحدثه عن صاحبه محمد بن عبد الله الذي جاءه في يوم من الأيام وقال له إني نبي يوحَى إليه فآمن به وصدقه، ثم انطلق يبحث عمن يحمل هذا الدين ويبلغه في العالمين، فلم يختر عشرين من الرجال في سنه، ولكنه يختار من أول ممن يختار فتية خمسة. رجال في عصرهم.

يخبره ذلك الشيخ كيف أنه دعا من أول ممن دعا الزبير ابن الخامسة عشرة وصاحبه طلحة. سعيدا (ابن زيد) وهو أيضًا في الخامسة عشرة. سعدًا (ابن أبي وقاص) ابن السابعة عشرة. وحتى أكبرهم سنًّا لم يكن إلا الأرقم ابن العشرين، فيرجع بهم إلى النبي فيجده يصلي وخلفه – من غير زوجه وبناته – فتيَان لم تبلغْ سنُّ أي من هؤلاء الخمسة، هما عليٌّ وزيد في سِن الصبية. فيصيروا هكذا أول عصبة في الدين الجديد. سبعة فتية!

تاهت به قدماه أكثر وأكثر حتى غاصت في الأرض ولا يزال على المسجد العشرين خطوة نفسها، لا يصدق أن يأتي رجلٌ في هذا الزمان

حتى ولو كان يبحث عن موظفين له في مشروع أو شركة، جماعة جديدة أو فكرة، مؤكد لن يختار أحدًا في هذه السن طبعًا، ألبتة، يتساءل في حسرة أشركة أهم أم أعظم دعوة؟

ولكنه لم يتحرك بعد لأنه ما زال يتمنى أن يتحقق حلمه. يتمنى ألا يجد من بجواره في الصف سيد ابن الحتة، بل يجد ذلك الشاب ثابت المراس حاد الملامح أسمر الوجنات، يقول له: نعم أنا أعرفك لقد. لقد حدثني عنك ذلك الشيخ الجليل منذ ثوانٍ، ذلك الشيخ الواقف هناك. ينظر، فإذا به قد اختفى، يرتبك، لا يهم، ولكني أعرفك وأعرف هذا الذي في جنبك، رباه إنه سيفك، سيفك الذي دعا له ولك النبي الجديد وأنت في السادسة عشرة، سيفك الذي كان أول سيف يجرد من غمده، يُرفع دفاعًا عنه. لم ترهبك كل رجالات مكة، خرجت رافعًا سيفك هادرًا دم كل من يقف في وجهك، لمجرد أن تناهى إلى سمعك أن أحدهم آذاه أو قتله. ليتك تعيره لي أدافع به عن النبي في هذا الزمن وعهده، يحاول أن يمد يده ليمسكه فإذا النور الذي به يتلجلج يومض، يبرق ويرعد، فينزع يده كي لا تحترق، ويختفي من أمامه زبيرٌ وسيفه.

لا يلبث أن يقبل عليه شابٌّ على الهيئة نفسها. قد حمل على ظهره قوسه وسهمه، يكاد لا يصدق عينيه وهو مقبل نحوه، أعرفك أيضًا، أنت من كنت وحدك في ذاك الزمان ثلث تلك الدعوة، وكان عندك من العمر سبعة عشر، سهمك الذي رميت به أول رمية في الإسلام وما زال الرامون يرمون بعدك، ألا تدلني على من يعيرني مثله. يذوب سعد كما ذاب صاحباه، وكما تذوب قدماه عند الخطوة العشرين من المسجد لا تتقدم نحوه.

فإنه لا يزال يتمنى، وتتقدم به الأماني في عصر الزمان فترة بعد فترة، ها

هو يرى نبيَّ الأمة، يعقد لواءه في آخر أيام عمره لفتى الإسلام أسامة ابن الثامنة عشرة. عمرَ بن الخطاب وهو يقحم الفتى ابن عباس مع أشياخ بدر يقول له قل لنا رأيك في هذه الآية وتلك الكلمة، وهو دون التاسعة عشرة. الصبي الذي دخل على ابن عبد العزيز يتقدم قومه. محمد بن القاسم يدق أبواب الصين بعد أن فتح السند (باكستان)، وقهر ملوك الهند، وما كان عمره يوم خرج بالجيوش المجيشة من العراق إلا سبعة عشر. الوفودَ العظيمة من العلماء والعامة، واقفة على باب ابن سينا وهو في الثامنة عشرة، ينهلون من علمه وطبِّه. الفاتحَ العظيم محمدًا سلطانًا على مشارق الأرض ومغاربها في أعظم دولة.

تتوقف به عجلة الزمان تارة وتدور تارة. الأحداث كلها اختلطت في ذاكرته وعقله، تتوهج وتثلج، تومض وتختفي كضوء تلك السيارة المقبلة نحوه، وقد أخذ قائدها المجنون في تلك الساعة من الفجر يزمر له مرة بعد مرة، «ماذا دهاك؟ تحرك من وسط الشارع، أيها الأبله.»

أخيرًا يفيق، يتحرك رغمًا عنه يقترب من المسجد لكنه يتمنى هذه المرة. ألا يجد أحدًا من هؤلاء الذين رآهم في حلمه. نعم، لا يمكن أن يرى أي واحد منهم، ماذا سيقول لأي منهم، إذا سأله عن حاله وحال أمته، وهو الفتى ابن العشرين، ماذا سيقول لذلك الشيخ الجليل؟ أيقول له ضن علينا أئمتنا وقادتنا، وحتى آباؤنا سفَّهوا آراءنا وحجموا أعمالنا، ولم يحمِّلونا حتى أمانات أنفسنا التي بين جنباتنا، أم سيقول لم ندخل عليهم الباب، فإننا ما زلنا نغلب مرة بعد مرة.

ماذا سيقول للزبير، سيقول له تجاوزت سنك ولم أتعلم كيف أدافع عن نبيي، ماذا لو اكتشف أن النبي أوذي — ليست إشاعة — ولكن على رءوس الأشهاد، وملأت إهانته سمعي وبصري ولم أرفع على المعتدي

ولا حتى درَّة.
نعم كبرت وما كانت تتركني أمي في حر القيظ لتعلمني الشدة والبأس كما كانت تفعل أمُّك صفية، ولا كان ينهرني أبي عن اللعب مع الأطفال والبنات في شارعنا، ويقول لي: «م ألدك لهذا، ولكن ولدتك كي تلعب بالسيف على حصانك وتعيد بيت المقدس»، كما كان يقول نجم الدين أيوب لولده صلاح الدين، نعم كبرت ولما يأتني أبو بكر وأنا بين زملائي في إجازة أولى ثانوي، ويقول لي آن الأوان لتكون بطل هذه الأمة.
الله أكبر الله أكبر أشهد ألا إله إلا الله أشهد أن محمدًا رسول الله حي على الصلاة حي على الفلاح قد قامت الصلاة قد قامت الصلاة الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله، يقطع نداء الإقامة أحبال أفكاره، آماله وآلامه، يصلي ويدعو في كل ركعة وسجدة أن تكون كل هذه العشرين سنة هي الحلم، ويكون حلمه هو الواقع، يبكي يتضرع أن يغير الله به الأرض غير الأرض، والزمان غير الزمان. يفرغ من الصلاة، يحاول أن يقنع نفسه أن الله استجاب لدعائه، وأن كل ما حوله قد تغير ورجع إلى أصله.
وإذا به «مبروك، يا حمادة، بقى عندك عشرين سنة»، يقطع ذلك الصوت أمله، فلم يستجب لدعائه أو قل لن يتحقق حلمه، ثم تنهال العبارات تخرق سمعه:
«إيه ده إنهاردة عيد ميلادك، يا أبو حميد».
«والله كبرت يا واد يا احمد بس برده لسه عيل زي ما انته».
«آه نجيبلك بقة تورتة لازم».
«...»

لا يتحمل كل هذا، تتضارب معه الأحلام والواقع، أو الواقع المنشود المأمول، والواقع المفعول المقتول، يكاد يختنق يتوجه نحو باب المسجد ويصرخ بأعلى صوته في السماء:

نعم عندي عشرون، وما عندي غيرها،
عندي عشرون من السنين
وما في كل من بلغ سِنِّي في هذا الزمان
عشرون سيفًا من سيفك، يا زبير؛
ولا فيهم عشرون سهمًا من سهمك، يا سعد؛
ولا يملكون عشرين بيتًا كبيتك، يا أرقم؛
ولا حتى عشرين زوجة كفاطمتك، يا علي؛
ولا كأسمائك، يا زبير؛
ولا لهم عشرون قلمًا كقلمك، يا ابن سينا؛
ولا يحكمون عشرين مترًا مما كنت تحكم، يا محمد الفاتح؛
نعم عندي عشرون وقد ضنَّ المجتمع على سني تلك بكل شيء،
وحالوا بيني وبين كل إنجاز بأصنامهم تلك التي يدعونها تقاليدَ،
فلتهبني ربي فأس إبراهيم أحطم بها هذه الأصنام؛
تلك الأصنام التي لم أسجد لها في يوم من الأيام سجدة،
ورغم ذلك حرمتني من كل شيء، حرمتني حتى من سكن ومودة.
نعم حرمتني حتى من حب امرأة تكون لي زوجة،
بلغت أنا عشرين عامًا، ولو رآني أحد من تاريخ أمجادي لخالني
بلغت عشرين صفرًا!

حالةُ حُبّ

حالة حالَ الناس بيننا وبينها.. حالة استحالت لضرب من المحال ولا حيلة لنا في استلابها منهم إلا بحبل ذي الحول كله والقوة!

حالة حب

٢٠٠٧/١٠/٣

جلس الفتى – الذي لم تنتهِ أعوامه الجامعية بعد – مطرقًا، على مكتبه عشرات الكتب في الدعوة والحركة والسيرة والشعر والأدب، يفتش فيها فلا يجد ما يروي ظمأه إلا شذرات هنا وهناك، هل ما يشعر به غريب فريد لم يفطن إليه كل هؤلاء الكتاب وأولئك المصلحون حتى يضنوا عليه بأبواب وفصول وأعمال قائمة بذاتها. إن تلك الشذرات تكاد تجتمع في رأسه لتكون نسقًا فريدًا، منثورات في سماء عينيه كالنجوم يريد أن ينظمها، يحاول أن ينالها فتسبح في الفضاء غائرة عنه.

حاول أن يجمع شتات نفسه مرة أخرى، أنا من سأكتب عنه، أنا من يشعر به، سأستقي من كل تلك الموارد ما يعينني عليه. يحاول بالفعل، يكور الوريقات ورقة تلو الأخرى ويرمي بها، تذكر صورة صاحبه الذي يشاطره دومًا ذلك الهم، يحاول أن يمسك بخيط حديثهما الدائم في هذا علَّ الأحرف تستقر على الورق، عبثًا. يفشل.

أخيرًا، بتَرَ كل أحبال الفكر بنصل قرار واحد مفاجئ. أغلق نافذة الغرفة. فتح حقيبة السفر. وضع فيها زاد ليلة. وانطلق إليه.

وفي عالم الأسفار، كل حسٍّ من عقاله ينفك، وكل دمعة من مآقيها تنحدر، كانت بقية من خيوط النهار ما زالت عالقة بالأفق ترسم على وجوه الناس ضوءًا باهتًا لا حرارة فيه، ينعكس الضوء على أجساد لا روح فيها، أجساد تتناثر على رصيف المحطة. تبطئ وتهرول. تعلو وتهبط. تنزل وتركب؛ ولكنها في كل حال تحمل نفوسًا متشابهة قد

تنكرت «معنى الحياة الأول» الذي يبحث عنه.

المسافة بين المدينتين لا تزيد عن الساعة كثيرًا. أخذ مقعده، وانطلق ذلك الصوت المألوف الذي قد يعني لكل الناس أن أجسادهم على وشك الانتقال من مكان إلى آخر، ولكن صوت صافرة القطار المتهدل الحنيني، الذي بدا كأنه لكروان يصدح عند الغروب – لا يعني له سوى انتقال روحه من زمان إلى زمان. زمان تهرب روحه إليه دائمًا لتتذكر معاني الحياة الأولى. وفي هذه المرة، هو لا يسبح إلا إلى ذاك المعنى الذي يحس بدفئه بين جوانحه. وإن كانت الثلوج تتساقط عليه من كل حي وشيء حوله.

ها هو يتذكر كيف كان – هذا المعنى – دفين دواوين الشعر متى أنشد طرب له الناس، ومتى مورس ثار عليه الناس ووأدوه حتى جاء من يخرج هذا السجين إلى الحياة، حتى جاء من يعلنه حالة علنية بين أمته رجالًا ونساءً، شيبًا وشبانًا، حتى جاء من لم يرضَ من صاحبٍ جالسٍ في مجلسه يومًا أن يخبره بمشاعره تجاه أخ له بعبارة عابرة، قد تذهب في دفائن النفوس. ولكنه ينتبه. وينبهه. وينبه من بعده «أأعلمته». «اذهب فأعلمه»، أشهد الناس ومن قبلهم أشهد الله، أنك تحبه!

ولا عجب فالحب في السماء قد أخبرهم أنه «حالة» عندما جلس إليهم يومًا وقال: أتدرون إذا أحب ربكم عبدًا ما يكون. إنه ينادي على ملكه جبريل ويشهده، وينادي جبريل على ملأ الملائك ويشهدهم، فيحبه أهل السماء، فيوضع له القبول في الأرض. هذا هو الله إذا أحب، أليس لك في سنة الحب الرباني أسوة، اذهب أيها الصحابي وأعلم أخاك، وليشهدك أخوك الآخر، فيعلم أخاه، وليكن الحب – كما أراد النبي – بينكم حالة.

تأتي المحطة تلو الأخرى، ويختفي نور الدنيا أمام أعين الناس لحظة بعد أخرى. ويزداد نور نفسه ومضة بعد أخرى. وإن كان يتذكر صاحبه الذي انطلق إليه. يتذكر حبه له. يتذكر من خلاله أجيالًا من صحابة وتابعين أحباء ومحبين، ويريد أن يسمو بحبهما إلى الحالة التي ارتضاها الرب في السماوات، وصاغها نبيه في الأرض. فإنه أيضًا يتذكرها، ويتذكر معها أول من نطق بذلك الاسم في موقف هو الأول من نوعه على مر التاريخ.

«عائشة». اسم تلك السيدة الذي أصبح لأول مرة إجابة علنية لعظيم قوم يُسأل عن أحب الناس إليه، إجابة عن سؤال من أصعب الأسئلة التي يقف أمامها رجالات الزمان يتفلسفون ويتحيرون، شعراء وناثرين، جهالًا ومصلحين، علماء وفنانين، لم يفكروا يومًا أن يردوا كما رد هو خاتم المرسلين.

نعم رد النبي (صلى الله عليه وسلم) على سؤال سائله عن حبيبه الأول فقال اسم هذه الحبيبة، ولم يقل رَجلًا، ولم يقل حتى زوجتي، بل سماها من غير شعور بأي حرج مما اعتاد عليه الناس من مثل من كان في مكانته بين قومه ومجتمعه، ولم يقل حتى في مرحلة الحب التالية «ثم من» أبا بكر، ولا صاحبي، ولا حماي، بل قال أبوها، نسبة إليها. ولو كان غيره قالها لاتهمناه بضعف العقل وخفة القلب، ورقة الحال، بأبي أنت وأمي يا رسول الله، فإنه لا سِيَرٌ، ولا مغازي، ولا تاريخ قد سجل هذا الموقف من بعدك، ولا أناس – علوا في الأرض أو سفلوا – قد خلدوا اسم حبيباتهم كما خلدت، عذرًا فإن ذاكرتي لا تتذكر الآن غير اسم «عائشة»، لم يكن الحب من بعدك «حالة».

أواه. إنه وإن كانت ذاكرته لا تتذكر اسمًا من بعد «عائشة» فإن أسماء

المحبين لا زال يراها في أعين أحبائهم يكتمونها عن الناس، ولا يرون فيمن حولهم وليًّا لأمر ينطقون بها أمامهم ويشكونها في حضرته فيعلنها لهم حالة. ما زالوا ينتظرون رجلًا يفرج لهم عن أحرفها كمن سار على خطى «أول من أعلن الحب في المجتمع حالة»، هذا الرجل الذي كان يتجول في مملكته ليرى حاجات الناس من أساسيات الحياة. وما أساسيات الحياة عندنا إلا الغذاء والكساء، ولكن حاجيات الناس عنده كانت تتعدى ذلك.

حتى يسمع من خلف خيمة فتاة تشتكي. تشتكي! ليس جوعًا ولا عطشًا، ولكن تشتكي كما يشتكي هو «حبًّا» فيكف عن متابعة التجوال، ويدخل عليها، «بالله أخبريني فيمن هذه الأبيات»، تخاف لا تريد أن تبوح، لكنه يصمم «بالله أخبريني» قالت: هو فلان.

- «فلان»؟ أأنت حرة أم أمة؟

- «لا، أنا أمة، سيدي».

- إذًا أشتريك.

نعم قد اشتريتك. وأحررك. وأزوجك منه.

أقطع كل الفروق، وأهدم كل الأسوار بينكما، ولتغردي باسمه كما يحلو لك - ولا تخافي من ألا تنطقيه أمام أحد بعدي - في وضح النهار. ولتعلني الحب «حالة».

لن يجدي نفعًا أن يجتر هذه الذكريات، فلن يأتيه أبو بكر يومًا ويحرره من رق المجتمع، يعتقه في سبيل الله. يعتقه في سبيل الحب. يستحلفه بالله - كما استحلفها - أن يفرج عن هذه الأحرف التي ما تزال حبيسة من بعد «عائشة»، ويعيش بها بين الناس، ليعلن هو الآخر حبه «حالة».

الطريق يكاد ينتهي، وشريط الذكريات لم ينفد بعد، ووجوه الناس المترائية

أمامه على أضواء مصابيح الليل – وهو ينظر إليها من نافذة القطار – ليس فيها أي أمل من دفء، ولا ينتظر منها شيئًا. لا ينتظر من هذا المكان أي شيء؛ وإنما ما زال ينتظر من ذاك الزمان. ينتظر من عمر خليفة الخليفة «أول من أعلن الحب حالة»، أن يسمع عن حبيب وحبيبة حالت بينهما الحوائل يومًا من الأيام، فيرق لحاله. أو – لا يدري – يثور لحاله، فيتمنى كما تمنى من قبل لعروة وعفراء أن يحييهما الله في زمانهما ليجمع بينهما. ولكن هل يتمنى أحدهم هنا أن يجمع بين المحبين الأحياء المسلمين، حتى يجمع بين المحبين الأموات وغير المسلمين أيضا! ماذا سيقول ابن الخطاب لمن منع الحب من أن يكون حالة بين الأمة في هذا الزمان؟

وزفر زفرة أخيرة انطلق معها هذا الصفير الحزين ثانية، إنه صوت نهاية الرحلة الذي بدا هذه المرة كصوت وحش كسير جريح يعوي في صحراء مظلمة، وقد تخلف دونه سرب الوحوش.

نزل من المحطة، وفي لحظات اختفت كل هذه الأشباح الباردة من حوله عندما دلف إلى طريق صغير يشرف على حقول ممتدة، قد كان يبهجه منظرها، لولا أن جيوش الليل قابعة في المكان تغطي كل شيء بالسواد. خطوات قليلة ويقابل صاحبه ويبثه شجونه، خطوات قليلة يحاول أن يصبِّر نفسه على قطعها، يحاول أن يغني. ينشد. يحفظ مئات الأبيات لكنه لا يكاد يتذكر منها شيئًا، نعم إنه يكاد، أخذ يهمهم ويدندن، وكأنها مقدمة موسيقية للغناء.

يحثه لحن ما على أن يتذكر من القصيد أشد ما يتذكر ما كان ينشده رأس التابعين. لله درك يا شعبي وأنت تنشد للحب «حالة».

إذا أنت لم تعشق ولم تدرِ ما الهوى *** فأنت وعير في الفلاة سواء

يتذكر أكثر ما يتذكر. أول كلمات أنشدها إمام الأندلس في فتاته (وهو ابن الخامسة عشر):

لا تلمها على النفار ومنع الـ *** وصل ما هذا لها بنكير
هل يكون الهلال غير بعيد *** وهل يكون الغزال غير نفور

لله درك يا ابن حزم إذا تتابع حبك، وتقول «لا»، لكل من يريد أن يحول بين حبك من أن يكون «حالة»:

وأستلِذُّ بلائي فيكَ يا أملي *** ولست عنك مدى الأيام أنصرِفُ
إن قيل لي: تسلَّى عن مودته *** فما جوابي إلا اللام والألف

ما زال يطرب. ويتذكر أشد ما يتذكر. نشيد شهيد القرآن، حين يدوي صوته «أحبكِ»:

أحبك كالآمال إذ أنت مثلها *** يذكّين في نفسي أعز مواهبي!
وما هي إلا نظرة شاعرية *** تعبر عمّا شئته من رغائب!

لله درك يا سيد عندما تغني لحبك الذي حبس عن أن يكون «حالة» وتنتظره حتى النهاية.

أنا بانتظارك ما أبالي *** رضي الهوى حكم الجمال
غيبي إذًا أو فاحضري *** أنا قانع في كل حال
أنا بانتظارك في الشرو *** ق وفي الغروب وفي الزوال

أخذته نشوة الإنشاد حتى إنه ليرقص معه في الطرقات، لا رقصة الطرب، ولكن رقصة الطير مذبوحًا من الألم. الطريق يطول والرحلة تبدو نهايتها كسراب بقيعة، ننتظر فارسًا يكتب نهايتها، صفحة أخرى من صفحات طوق حمامة غريبة تنوح من وكنها على حبيب طال غيابه أو تكسر جناحه بين الدروب.

إذا كنت مفردًا مثلي، فغريمك الذي سيتحول رويدًا رويدًا إلى
رفيقك هو الشجن

غريم الشجن

٨ / ١ / ٢٠٠٨

لنعلن أن الخسارة ربحٌ وأن الغريم غريم الشجن
وأنك مهما تجسدت ليلًا ستصبح فجرا بلو ...

لن يهدأ بهذا الغناء، أنفاسه لا تزال مضطربة، بقي على الموعد خمس دقائق، قد خزن في ذاكرته جيدًا كل ما يريد أن يقوله في الثلاث الساعات القادمة، ولا يريد حتى أن يراجع، يريد فقط أن يأتي هذا الموعد، بل أن ينتهي الموعد.

خطواته قد اقتربت من المكان، دلف إلى البهو، تخلص من زحام اليوم الأول المعهود بالكاد، التقط أنفاسه، سار في الردهة الخلفية الطويلة التي لا يكاد يسير فيها أحد. التهمت قدماه الدرج في سرعة فائقة، اقترب من الباب. لم ينظر في أي ورقة من أول دخوله للكلية، ليس متيقنًا بأن هذه لجنته، ليس معه حتى رقم جلوس، ولكنه يعرف، ليست هذه هي المرة الأولى، ولا الثانية، إنها السابعة. قبل الأخيرة.

هو هذا المكان بالتأكيد، نعم اسمه هنا هو هو منذ المرة الأولى، رقمه تغير، بالتأكيد تغير، لكنه لا يعرف تحديدًا ما الذي تغير فيه، لأنه لا يتذكر سابقيه، أخذ بحركات تلقائية يخرج كل ما تحويه جيوبه، هذه البطاقة للملاحظ، وهذا الهاتف يغلقه، هذه الأقلام الجديدة التي يشتريها كل مرة ولا يعرف عنها شيئًا بعد الانتهاء. يدير عينيه في المكان، يحاول أن يهيئ نفسه، يفتعل البسمة في وجه هذا وذاك، وجوهٌ ملازمة للمكان أيضًا منذ المرة الأولى.

ها قد جاءت الأوراق، يمسك بالأقلام، يسطر اسمه الذي يحفظه، ينقل الرقم الذي لا يعرفه، يكتب المادة التي صحبته في كل مرة. يقف القلم عند الخانة الرابعة، يعييه الجواب، ماذا يكتب؟ وكيف يكتب؟ لا يصدق هو، ولا قلمه أن مرت هذه الفصول وتلك السنوات، ما زال يتذكر أول مرة ملأ فيها هذه الخانة بكل ثقة: الفرقة الأولى، كيف كان يشعر أن بينه وبين (الرابعة) بحورًا من الأمل والعمل، كيف أنه خاضها، يغالب الموج، والموج غلاب، يتقاذفه من فصل إلى آخر، يرى في الأفق يابسة، فيها جنة موعودة، وحبيبة تنتظر، ولواء مرفوع، أتراه نزل إلى الشاطئ اليوم. إن الرحلة أوشكت على الانتهاء، الشاطئ أمامه فعلًا، ولكنه شاطئ المجهول، نعم كانت رحلته إلى الشاطئ المجهول.

يستفيق على ورقة الأسئلة يطالعها بنظرة سريعة، قد رأى كل هذا الكلام من قبل في الكتب، يطويها حتى يكمل تسطير أوراق الإجابة؛ لكن عينيه قد رأتها، رأت «أحبك»، رأت «أنا بانتظارك»، رأت سؤال الامتحان الأول: اشرح تجربة سيد قطب الأدبية!

تلفظ أنفاسه بزفرة مكلومة على سخرية القدر من ذاك اللقاء الأول بينه وبين تلك الكلمات، يوم كان يُعِد للإبحار يوم أن كان في (سنة أولى) يتجول في الكلية ذات نهار، وساقته نفس الكلمات من خلف الباب «تجربة. سيد. قطب. حب، تفزَّعت أسماعه، اقترب من المدرج وهم بالدخول. حاول أقرانه أن يقنعوه أن هذه سنة رابعة، لم يستمع، أصر، دخل كالغريب، مشدوهًا، يسمع ذلك الأستاذ الذي يتوسط المدرج، كان أستاذًا كبيرًا يحدث كأنه قد جالس الشاعر وسمع منه لا قرأ عنه؛ عرف لاحقًا أنه قد عاصر العقاد في شبابه وقرأ عليه.

كان قد فاته كثير من القصيد، لم يعلق بذهنه إلا ذلك البيت «أحبك

من قلبي الذي أنت ملؤه*** ومن كل إحساس بنفسي ذائب»، حفظه في سويداء نفسه. كان بمثابة صفير انطلاق السفينة وبداية الرحلة، واثقًا بأنه سيجد نهاية البيت السعيدة على الشاطئ، لكنه لم يدرك ساعتها، أن سيد قطب يقوده إلى شاطئه هو إلى الشاطئ المجهول.
ثلاث سنوات منذ أن استلم فيها جواب ترشحه لكلية دار العلوم، لم تكن الكلية التي يحلم بها والده، إذ كان يتمنى أن يصبح مهندسًا مثله، كان يظن أنه من لا يكون طبيبًا أو مهندسًا فلن يجد له عملًا محترمًا في هذا البلد؛ ورغم ذلك استطاع من عامه الأول أن يلتحق بعمل صحفي، وأن يكسب شهريًّا أجرًا زهيدًا، لكنه كان كافيًا لكسر التحدي الذي استمر فيه فصلًا بعد فصل وعامًا بعد عام، يجتاز الامتحانات ويصطف بين الأوائل، ويملأ الجامعة ضجيجًا وعجيجًا في اتحاد الطلاب والأسر والندوات والأنشطة، وينتقل من عمل إلى آخر حتى أصاب في شهره الأخير راتبًا يصلح لفتح بيت كما يقولون. قد حسب أنه استطاع بذلك تحقيق كل أدوات الحب، وتمهيد كل السبل له، فعل كل ما يُطلب منه وما لم يُطلب، لم يسبح بذراعين فقط، بل بأربع أذرع، دراسة، وشغل، ونشاط، و... والذراع الرابعة المكسورة، وعاطفة كانت كالوقود له، تسبح في اللاشيء، أخذ يسبح ويسبح ولكنه ما وصل.
مضت نصف ساعة، لم يكتب فيها شيئًا، هل يكتب الإجابة التي سمعها منذ ثلاث سنوات أم يكتب الإجابة التي عرفها الآن؛ لا يهم سيكتب الإجابة التي في الكتاب، لا التي عرفها، ولا التي سمعها، سيكتب:

لماذا أحبك هل تعلمين وما السر في الأمر هل تفكرين

أللحسن، فكم قد لقيت الحسان فما هجن بي ومضة من حنين
أللعطف، إني القوي العطوف فما أرتجي رحمة العاطفين
أللنظرات، وللفتات وللسحر في مهجتي تسكبين
وشتى الخلال وشتى السمات لطالما اجتمعت للمئين
إذا فلأي المزايا يكون هواي وحبي هل تدركين

ثم يدع حيرة قطب ، ويتجه إلى العقاد أستاذه، يكتب بلا توقف، كالنزيف:

لست أهواك للجمال، وإن كان جميلا ذاك المحيا العفيف
لست أهواك للذكاء وإن كان ذكاء يذكي النهى ويشوف
لست أهواك للخصال ، وإن رف منهن علينا ظل وريف
لست أهواك للرشاقة والرقة ، والأنس وهو شتى صنوف
أنا أهواك .. أنت ، أنت ، فليس سوى أنت بالفؤاد يطيف

تقف ثورته المعلوماتية ، قد فرّغ جانبا منها، أخذ يدندن حولها ، يبين وجه النظر هنا ، وهناك ، يستعرض مدى إحاطته بالكتاب ، وفهمه للصعاب. أخذ يحشد ويحشد بلا حساب .. مر الوقت ، كاد أن ينتهي الموعد ، أخذ في طي ورقة الأسئلة ، لم ينتبه .. السؤال لم يكتمل يوجد في آخره سؤال بريء عن رأيك : بيّن رأيك .

عاد إلى هيئته الأولى ، يكاد يكون أصعب سؤال مر عليه في تلك الفصول ، إجابته طويلة ، إجابته غريبة ، نعم لم تأت بعد ، عندما تأتي سيعرف فعلا ، سيعرف حقا ، إن كنتم على صواب ، أم على مصاب؛ لكن ماذا يقول الآن ، يجب أن يكتب شيئا ، الوقت يداهمه ، يكاد يلمح الإجابة ، نعم إنها في عينيه ، ينطق بها صاحبه ، ينطق بها وضاح ، أكمل أحمد .. أكمل غناءك ، أكمل نشيد الصباح ، تمثله يا صاحبي

، فإنه أنت. نعم، إنه هو ، هو أنا ، إنه أنا .. غريم الشجن .

لنعلن أن الخسـارة ربـحٌ
وأن الغريمَ غريـمُ الشجـن

وأنكَ مهما تجسَّـدتَ ليـلا
ستصبح فجرا بلون الكفن

تكتِّم عينُك سـر الدمـوع
وفي الليل تذرف دمع العلـن

ففيم ارتواؤك كـأس الحياة
وما يعلُ في الكأس غير المحن

حضنت الضحايا ، ضحايا الزمان
وعند انحنائِـك ، لم تحتضـن

فلا الليـل يحرس ، نوامـه
ولا الدار تحنو على من سكن

ولا الخل هدهد دمع المآقـي
ألقى الأمـــان لكي تطمئن

فلملم حضورك ، حان الغيـاب
وارحل بعيدا في اللا وطــن

ليعلن عنك الزمان الهجيـن
بأنك جسدت حزن الزمــن

تلفظ الدقائق الأخيرة أنفاسها لتعلن نهاية الموعد ، تغلق أوراق الإجابة ، تجمع أوراق الإجابة ، ينصرف الطلاب ، والمراقبون ، والأساتذة ، يظل في مكانه جالسا ، يحس أنه نسي شيئا ، ماذا نسي ، لا يعرف ، يجمع أدواته ، يجر قدميه ثقيلتين إلى باب المدرج ، لا يكاد يبلغه حتى يتذكر؛ نعم، لقد نسي ، نسي أن يكتب في الخانة الرابعة ، أنه في الفرقة الرابعة ، تركها خاوية .

وما في الأمر هل تذهب الورقة إلى سنة من السنين الأخرى الخالية، تذهب أو لا تذهب، لا يهم ستكون الإجابة واحدة .. هل سيعرف المصحح سر النقاط الخالية ، يعرف أو لا يعرف ستكون النتيجة واحدة، وصلت أم لم تصل.

للحب وجوه أخرى

L3

واعلم أنما بدأنا بذكر المحبة الطبيعية، لأنه منها يرتقي أهلُ المقامات إلى ما هي أعلى منها حتى ينتهي إلى المحبة الإلهيةِ، وقد وجدنا النفوسَ الحاملةَ لها إذا لم تتهيأ لقبولِ المحبةِ الطبيعية لا تحمل المحبةَ الإلهية

أبو الحسن الديلمي

للحب وجوه أخرى

ألقِي بزاوية من جبهتي على زجاج المترو، أحملق في الفراغ، يأتي الرصيف تلو الرصيف، الصافرات تنطلق مع كل محطة، الأنوار الحمراء تومض، أقدام صاعدة. أقدام هابطة، عشرات الوجوه لا تستقر في الذهن أكثر من ثانية، تمر على عينك كما يمر الماسح الضوئي على عشرات الأوراق في آلة النسخ الإلكترونية تدخل الأوراق وتخرج من الناحية الأخرى؛ في مكان ما من ذاكرة الجهاز، تذهب تلك الصورة كما تذهب في ذاكرة المرء بلا رجعة.

أخيرًا أصل محطتي، جسدي النحيل لا يشكل أي عائق في الزحام، أنحشر بسهولة في طوفان النزول، أهرول على سلالم الصعود إلى سطح الأرض من جديد. لا أحب السلالم المتحركة أبدًا، تشعرني بالاستسلام والسكون، ربما لو كانت في سرعة قدمي نفسها وهي تلتهم السلم العادي لكنت اقتنعت بامتطائها، البشر فوق الأرض، هم هم كما كانوا تحتها، وجوه واجمة، حركة مستمرة، كل وجه سائر أو واقف هنا، موظف عائد من عمله أو بائع متجول أو سائق أمام سيارته أو شرطي في إشارته. كلهم لا يفعلون سوى شيء واحد «بيجري على لقمة عيشه»! الحقيقة أنه لا يجري على لقمة عيشه فقط، لكنها لقمة عيش صعبة، لقمة عيش تخطف من فم سبع جاثم على أنفاس الناس، كل يحارب من أجلها، ربما ذلك هو المفسر الوحيد لهذا الذي ستقفز حنجرته من حلقه وهو يزعق على بضاعته، هي المفسر الوحيد ليد أمين الشرطة المشكلة كالمغرفة المعقوفة من الخلف توضع بها الأوراق فئة العشرة والعشرين

جنيهًا منطوية بخفة ورشاقة من كل سيارة في الموقف تمر، هي المفسر لهؤلاء الذين يتخطفون الناس عند مخرج المحطة «عاشر يا بيه» «لأ ده سابع، تعالى هنا» «بيقول مكرم. مكرم عبيد، تعالى معايا»، ويكأن كل راجلٍ منا سيحدد وجهته بناء على تلك العروض المغرية!

أخيرًا، ألقيت بجسدي المتعب على مقعد الحافلة التي بدأت لتوها تتحرك من «رمسيس»، وقبل أن أحاول استجماع قواي بإغماض عيني قليلًا لمحت جاري على المقعد ذا الوجه الآسيوي واللحية المميزة للسمت الإسلامي، وعلبة من الكشري بين يديه شرع لتوه في تناولها. أوشكت آلة النسخ أن تمرر صورته وتذهب بها إلى المكان السحيق نفسه الذي لا أعرفه، ولكن عطل عملها فجأة صوته:

- تفضل يا أخي.

- لا، شكرًا.

- مادًّا يده يسلم عليَّ بوجه باش: أنا اسمي عبد الرحمن.

مستجيبًا لسلامه: وأنا أحمد.

بفضول فاتر: من أين أنت؟

- أنا من ماليزيا، أنت مصري؟

- نعم.

وقبل أن أرخي جفنيَّ ثانية تاركًا له المجال كي ينهي طعامه، إذ به يختم المشهد الأول الذي بدأه بكل نعومة:

- وجهك. وجهك جميل، يا أحمد.

أفقت على كلماته وأدرت عينيَّ نحوه، فوجدته قد بدأ فعلًا بمزاولة مهمته في التهام الكشري بلا انتظار لاستلام رد اللهم إلا من قبيل «دا من ذوقك».

جلست أفكر في طبيعة هؤلاء الصنف من البشر، المسلمون من غير بلادنا، أو حتى الأجانب على الإطلاق، في حياتهم الكثير والكثير من الأشياء غير المرتبطة بـ «أكل العيش»، ربما هذا الطالب المغترب عن وطنه ليدرس العربية والإسلام ليس كذلك؛ ما يدريني ربما يدرسهما أيضًا لوظيفة يحلم بها عندما يعود إلى بلده، لا يهم، لكن لا يمكن إنكار ذلك الملمح الآخر. كم القيود الاجتماعية - حتى في مجرد الحديث - التي يتجاوزونها، ويرجعون بها إلى أزمان تذكرني بعهد الإنسان الأول، يذكرني حديثه أشد ما يذكرني بأعلى قيمة في حياتي «الصراحة»، وكيف أشعرها مع هؤلاء الناس من أول كلمة، كيف تحس بحرارة كلامهم، بنبضات قلوبهم، بنظرات أعينهم الصادقة الواثقة.
لم يكد ينتهي حتى بدأت أدير الحديث ثانية، وبدأ التعارف. عن الدراسة والسن والأهل، وشيء من الماضي، وأشياء من المستقبل، قد يحدث كل هذا مع أي راكب من بني وطنك، ولكن بعدها بخمس دقائق تكون محطته قد حانت ليتوارى عنك للأبد؛ لكنهم لا يتركونك تتجاوز عشر الدقائق من حديثك حتى يطلب منك أحدهم رقم هاتفك، وبريدك الإلكتروني، وثالثها دعوة صادقة إلى بلادهم بكل ما تحمل معنى الدعوة الصادقة من إقامة وسياحة، بل أحيانًا عمل.
لم أترك الحديث دون التعريج عن الحالة الاجتماعية والزواج وسنينه. أقصد سنه عندهم، وبالطبع تكون الإجابة الموحدة من ١٨ إلى ٢٥؛ ولكن تعجُّب الشاب الماليزي هذه المرة كان من ضرورة وجود الشقة مع كل زواج، فالمهر عندهم يكفي، والكثير يعيش بدايات حياته الزوجية في بيت أهله أو أهلها على السواء. داعبته: إذن على المرء أن يفكر بجد أن يتزوج من ماليزية.

حانت محطته بعد نصف ساعة من الحديث بالعربية تارة وبالإنجليزية تارة، عن العربية والقرآن أو عن الزواج والزحام، عن الرياضة والإعلام أو عن الكشري والمزارات، وبنهوضه من فوق مقعده ينظر نظرة ثاقبة في عيني نتبادل ضمتين سريعتين. ثم: أحمد إني أحبك في الله.

حديث يبدأ بـ «وجهك جميل»، وينتهي بـ «إني أحبك في الله» يكفي ليشعرك بإنسانيتهم التامة المتصلة عبر الزمان والمكان مع ذاك الشاب الغريب الذي ربما لن تنساه مع ما لاقيت من وجوه في الحياة!

***

بعد أربعة أيام

تعالت أصوات الباعة من كل مكان فور نطق إمام وخطيب الجمعة بالتسليم، وتزاحم الناس على الأبواب كي يغنم كل واحد منهم بـ «وش القفص» من ذلك السوق المنعقد أمام المسجد. تريثت قليلًا أختم الصلاة وأنتظر هدوء حركة الناس، ثم خرجت أتقي أعين من يعرفني لكي لا أتعطل بالساعة والساعتين في حوارات ما بعد الجمعة، وقررت حتى أن أتجاهل اسمي لو سمعته من بعيد. ولكن لم تمر لحظات حتى فعلًا سمعت اسمي، ولكن سمعته بشكل مختلف، بشكل محبب إليَّ، بشكل يجعلني أقف وألتفت، بل أنتظر.

– أيوه يا هدى إزيك عاملة إيه؟

– ثانية واحدة هسلم على واحدة صاحبتي، استناني أنا ماشية معاك.

وبكل رضا وقفت أنتظر هدى، صاحبة الوجه البدري المتألق، والعينين الصافيتين البريئتين، والأسنان البيضاء الصغيرة التي تنفتح عنها شفتاها الدقيقتان كما تتفتح الوردة مع شعاع الشمس. كانت اللون الوحيد المبهج في تلك الصورة التي أنفر منها عندما يتجاور في كل جمعة شر

بقاع الأرض وخيرها، المسجد مع السوق!
بعد كل جمعة وفي أي مسجد كنت ستجد تلك الأصوات المنكرة تنطلق بعد التسليمة تزعق على بضائعها، عربة بطيخ في الصيف أو برتقال في الشتاء، جرائد وسبح وبخور وعطور وطيور وكل شيء مبعثر على أرصفة المسجد، حنث وأيمان بأثمان، سب ولعان، كل شيء يبعث خطيب الجمعة على التحذير من الشراء من هؤلاء الناس كل صلاة حتى يقيموا لهم سوقًا بعيدًا عن المسجد، وما من مجيب!
اقتربت مرة أخرى وبحركة تلقائية خلعت طرحتها وانسال شعرها الأليَل على بعض جبينها، أمسكت في يدي بتلقائية وتحركت بي مقتحمة الصمت:
– إيه يا مستر اتأخرت عليك؟
– لا أبدًا إزيك عاملة إيه؟
– أنا كويسة، بس زعلانة منك، لأني نزلت المسجد المرة اللي فاتت وانت ما حفظتنيش.
– معلش يا هدى كان عندي شغل، أوعدك المرة الجاية أفضي نفسي.
في تلك الحلقة التي تعقد يومين في الأسبوع بعد صلاة العصر، وفي هذه الزاوية التي أواعد فيها ضوء الشمس المنفرش على سجاد المسجد الأخضر في تلك الساعة، ومن بين وجوه تلك الأطفال الذين لا تزيد أعمارهم عن الثانية عشرة كان وجه هدى ذات السبعة الأعوام هو الوحيد الذي أنتظر صاحبته كل درس وأهش لقدومها، وأفتقد غيابها. لم تكن مجرد طفلة عادية، بل كنت أشعر معها كأنها طفلتي المدللة التي أحب أن تكون لي يومًا ما! وأتساءل أيكون لي مثل هذا الحب يومًا ما!
***

بعد أربعة أعوام

لم أكد أفيق من وقع المكالمة عليَّ لدقائق حتى جاءت رسالة من الرقم نفسه الذي اتصل منذ قليل تقول: «لا تتخيل سعادتي بسماع صوتك. أشكرك على مشاعرك التي أثق في صدقها. سلامي لك».

كان اللقاء الأول والأوحد بيننا قصيرًا، في بيت على أطراف المدينة الحدودية، في إحدى تلك الحارات المتراصة على جوانبها هذه البيوت ذات الطوب الحجري الأبيض، كل بيت هنا مسور بسور تحمل لبناته اللون الجيري نفسه، ذاك الأبيض الشاحب المنطفئ، وعشرات الشجيرات تطل بوريقاتها الخضراء من خلف الأسوار كحسناوات يطللن من خلف الشرفات يظهرن غيضًا من فيض حسنهن، حتى إذا تناهى بصرك في نهاية الحارة تجد مساحة رملية خفيفة الخضرة يسد أفقها ذلك السور الحدودي الفاصل.

استقبلنا ذلك الرجل الخمسيني الأشقر ذو اللحية المحناة التي تضرب الشعيرات المفضضة في أطرافها، حوش زُرع فيه الياسمين والفل وشجرتا زيتون لم تطولا ولم تقصرا، ندلف بعدها إلى قاعة واسعة صُفَّت الآرائك الخشبية على حوافها، وما لبثنا بضع دقائق حتى هلَّ علينا التضياف أطايب من شراب وطعام!

أخذ يحكي لنا عن رحلته الطويلة منذ الميلاد في فلسطين إلى الدراسة في مصر، ثم الاعتقال في مصر، ثم الاعتقال في فلسطين مرة أخرى، ثم الانضمام إلى حركة الجهاد والتدرج فيها حتى صار الآن عضو المكتب السياسي للحركة والمتحدث الإعلامي لها لوقت طويل!

حفظ الرجل أسماءنا في دقائق معدودة، وسمع من كل واحد منا ما يجيده في تلك الحياة، وطلب أن نمليه أسماءنا وهواتفنا في ورقة طبقها بجيب

قميصه، ولم أظن أنه سيفتحها يومًا ما بعد ذلك!
كنت على موعد للعبور إلى الشطر الآخر من رفح عائدًا إلى مصر، آذنت الشمس بالمغيب فاستأذنتهم، ودعني بتواضع عجيب حتى باب البيت. سارت بنا السيارة مخلفة وراءها الأتربة البيضاء حتى توارى البيت من خلفي وأضحت الحدود أمامي، غابت نظراته عن مخيلتي ربما بعدما عبرت للجانب الآخر بالفعل!
والآن بعد شهر مضى، بمجرد نزوله مصر أجده يتصل بي – ومؤكدًا بعشرات آخرين من أمثالي – ويخبرني أنه يفتقدني، وأن محبة منه قد ثبتت لي من أول ساعة التقينا بها. كاد العجز يعقد لساني ساعتها. شعرت كم أنا ضئيل أمام عظمة رجل كهذا. كم أن مشارعنا إما حبيسة أو كسيرة لا تقوى أن تكون بهذا العنفوان وتلك الروح أبدًا!
تذكرت بعد اتصاله هذا عبد الرحمن وهدى. وعشرات الخلق الذين يسخرهم الله لنا كل فينة وأخرى، نرى الحب بأعينهم ونسمعه بنبرات أصواتهم. أقتات من ذلك ما يبلغني إلى رؤية أعظم معاني الحياة. الحب في عيني امرأة!

مُنى

تستطيع دائما عينا طفلة أن تخبرك ما تريد اختصاره عن جمال العالم .. أو معاناته !

مُنى

ننفخ في كفينا تدفئة ونحن واقفان على الرصيف بعد منتصف الليل نرقب عشرات الجموع التي ما زالت تتدفق على المدينة الساحلية الصغيرة، يرن هاتفه فيرد عليه متلهفًا كمن ينتظر خبر مولود سعيد إلى الدنيا، ثوانٍ وإذا به يتهلل ويكبر ويراجع محدثه أهذا صحيح هل تحقق الأمر بالفعل؟ الله يعزكم. الله يعزكم. ويعزها، أغلق هاتفه وتلقفت يداه ذراعيَّ يهزهما بحرارة: لقد فتحوا طريقًا بريًّا؛ وما هي إلا ساعة حتى ترى اللوحات المعدنية الخضراء على سيارتنا تتجول في المدينة، أستطيع أن أرسل من يحضرهم، فالوضع أكثر أمنًا الآن، وفي لحظات أخذ يهاتف بعض الأشخاص ويتفق معهم على سرعة المجيء، وتوخي الحذر، والمكان الذي سينتظرهم فيه.

ساعة أخرى انتظرناها على الرصيف نرقب عشرات المركبات التي بدأت تتدفق على المدينة الساحلية الصغيرة. أخذ يحكي لي كيف أن صغيرته ستطير فرحًا بمدينتنا هذه، فهي لم ترَ قبل ذلك أي مدن، هي لم تخرج من سجنها الكبير منذ أتت إلى الدنيا، قد حفظت كل الأماكن التي يمكن أن ترتادها وهي لم تتجاوز ستة أعوام بعد، يترقرق الدمع في عينيه وهو يخبرني كم كان يتمنى أن يأتي هذا اليوم الذي يستطيع فيه أن يخرج بها وأمها وأخواتها في طرقات لم يطأنها، ومتنزهات لم يشممن روائح عطرها قبلًا، وشواطئ لم يتحسسن ناعم رمالها بعد، أغفيت قليلًا وهو يحدثني فقد كنت جد متعب، أشفق عليَّ وسمح لي بأن أسبقه للبيت وينتظر هو حتى يأتوا.

ساعات من الليل وانفتحت عيناي على أشعة النهار وأصوات الريح تتلاعب بأمواج البحر وأوراق النخيل، وإذا بصوتها يدوي في أرجاء البيت؛ يا ألله لقد جاءت، خرجت من غرفتي بنصف عين لأجدها أمامي غير منتبهة لي، ترتدي معطفًا ثقيلًا يكاد يصل لأطراف أصابعها الصغيرة، وتمسك بكيس من الحلوى التي ظهرت آثارها على فمها ولونت بها وجنتيها البدريتين، لمحتني بعينيها السوداوين فأخفت ابتسامة خجولًا خلف أسنانها الصغيرة لؤلؤية البياض وانزوت جانبًا تلوذ بأخيها الصغير وتحني رأسها للأرض، لمست أناملي ذقنها رافعة وجهها الحيي إلى عيني: إذن أنت مُنى، أجابت بتلقائية تريد أن تفلت بها مني: وهاد خوي إبراهيم، وإختي ولاء الصغيرة هونيك (تشير إلى الغرفة المغلقة في آخر الردهة) مع إمي، وأخذت تجري نحو الغرفة وتنادي: إمي إمي إمي.
ساعات من النهار وكنا نقف ثانية أمام البيت، نحزم الحقائب ونتأكد من أن كل شيء على ما يرام، يشكرني على شيء حقه أن يوبخني عليه، ينظر إلى عينيَّ المنكسرتين فيربت على كتفي مخففًا عني:

– على الأقل اختلسنا ساعة من نهار.

– يمكنكم أن تبيتوا الليلة وننطلق من الغد

– لا يا أحمد قد طوقوا السوق، وحمدت الله أن منى لم ترهم يفعلون ذلك، كانت ستفلت ذراعي وترميهم بالحجر، لم أخبرها بعد أن هناك يهودًا خارج بلادنا، وعلى كل حال لقد استمتعت اليوم، شربت عصير القصب واشترت حليًّا لها، أيضًا زوجتي لم تشترِ لها ولا للبيت شيئًا منذ ثمانية أشهر، ولا ندري إن بقينا لليل فقد نفقد كل ما جمعناه في الصباح.

نزلتْ وهي تنادي بأعلى صوتها وتجري عليَّ: عمو أحمد عمو أحمد، ما

راح تاجي معنا.
لأجل خاطرك سآتي، ولكن سأبيت عندكم ليلة واحدة فقط، وبعدها تتركيني اتفقنا، أخذت تهلل وتجري حولي معلنة للجميع أني سآتي معهم.
انتصب الطريق بنا في طول غير معهود، شعرت برأسي ثقيلًا ترتطم بزجاج السيارة كل حين، هؤلاء العشرات العائدون على جانبي الطريق قابلتهم بغير هذا الوجه في الصباح، أتذكر فرحة مُنى بالعريش، بأسواقها التي لا تختلف عن أسواق غزة كثيرًا في الشكل لكنها ممتلئة وزاخرة، بحدائقها الصغيرة التي لا تختلف عما رأته إلا بقدر المساحات السوداء التي تغطي بعض شجيراتها هناك، شواطئها لا يفصل امتدادهما إلا تلك الزوارق الحربية الإسرائيلية المرابطة في المياه من بعيد تعلن أن هنا بداية الشاطئ الغزاوي. بعد ساعة توقفت السيارة على بعد بضع مئات من الأمتار من مدينتهم؛ نزل السائق يسأل عن سر توقف الطريق، مئات من المركبات تغص بها الطرقات من حولنا وكلها ركود. عاد السائق بعد هنيهة، اتكأ بذراعيه على باب السيارة، وأدخل رأسه عبر النافذة نصف المفتوحة موجهًا الحديث إلينا: لقد أغلق المعبر من ساعة، إما أن تبيتوا هنا للصباح وإما أن تسيروا من هنا – مشيرًا إلى طريق ترابي يسلكه راجلون – على الأقدام إلى أن تصلوا.
نزلنا مضطرين، أن تحاصر في بيتك خير من أن تُحصر في بيت جارك، هكذا قالوا، وهكذا دفعنا للرجل مائة من الجنيهات في مشوار لم يكن يحلم بأن يحصِّل منه سوى عشرة جنيهات، كما لم يكن يحلم أي سيناوي بأن يغتني في هذه الفترة القصيرة، وأن يبيع بأضعاف أثمانٍ ما كان يبيعه، وأن يكون حصار أناس في أرضٍ كتب الله أن تجاورهم، هو رخاؤهم

وغناهم في غفلة من الزمن، بل في وهدة من الأيام تكاد تذهب بالدماء التي نزفت على هذه الأرض المطهرة عبر الأزمان. تركت أفكاري المصرية ترحل مع السائق، وبدأنا في المسير، ها قد أذنت الشمس على المغيب، وها قد بدأت أشعة غروبها تبث ألوانًا من البؤس والحسرة على عشرات بل مئات من الوجوه السائرة من حولنا نحو مصير محتوم، تلوِّن وجوه الأطفال والنساء والكهول بألوان عشرات من شجيرات الزيتون التي نخترق أراضيها وصولًا للسور، كالمسروق منهم فرحة بالعيد، في مشهد طالما بكيت أمامه في «التغريبة الفلسطينية» وفي «باب الشمس»، في مشهد لا يظهر منه إلا الأبيض والأسود في عشرات من شرائط توثيق النكبة أراه هنا كامل الألوان، يبعث في النفس ما يبعث، يحملني على أن أعتصر يد منى من فرط الحرص وأنظر إليها كل فينة: منى تعبت أحملك قليلًا، لا أنا كبيرة مو متل إبراهيم وولاء. أنظر إلى أبيها يحمل الطفل وإلى أمها تحمل حملين: حمل في رحمها عمره ثلاثة أشهر وحمل على ذراعيها عمرها زهاء سنتين، أهز رأسي موافقًا وأكمل المسير، ومع تصاعد الغبار – من المسير – الذي بدأ يتحالف مع خيوط الليل السوداء في سد الآفاق من حولنا وجدنا أنفسنا أمام السور وعشرات من السلالم المنصوبة على جانبيه ليتمكن الناس من العبور بعد أن أغلقت المنافذ التي فتحت عبر اليومين الماضيين، وما إن اقتربنا أكثر حتى وجدت هذه الأصوات المألوفة لديَّ تنادي: يالا السلم بـ ٥ جنيه، وابتلعت حسرة طويلة، وانطوت نفسي على جمرات كدت أقذفها في وجوههم المنفرة وأبواقهم المنكرة، فلا يفصل بين السور — المهدم أصلًا — والأرض إلا أقل من مترين ولولا صغيرتي لكنت صفعتهم ومررت.

***

«تكبير. الله أكبر. تكبير. الله أكبر» «منصورة ما منصورة يا حماس منصورة» «أبا العبد. نِحنا معاك. أبا العبد». فتحت عينيَّ بصعوبة على هذه الأصوات ورحت أتلفت حولي، فلم أجدها، الأصوات تأتي من النافذة، تتضح شيئًا فشيئًا، إنها ليست إلا أصوات لأطفال، لكنها تشبه مظاهرة صغيرة. رحت على النافذة أفتحها سريعًا فإذا بالضوء يعشي ناظري قبل أن أتقيه بذراعي وأنظر بروية إلى حديقة المنزل لأجدهم يتوسطونها بأرجوحتهم المتواضعة، وكقائد لكتيبة بذراعها تطيح منى بالأطفال على الأرجوحة، وتزعق بصوتها: تكبير. فيردون بصوت يهز المكان: الله أكبر، أخذتُ أنفاسي بعدما اطمأننت أن الحرب لم تقم بعد، وقبل أن أبتعد مرة أخرى عن النافذة لمحتني فتركت الأطفال وجرت نحو سلم المنزل تنادي: عمو أحمد صحي. عمو أحمد صحي.

دقائق ووجدتها تدخل عليَّ بصينية كبيرة ويحاول أبوها عبثًا أن يساعدها وهي تأبى وتسرع بها حتى كادت أن تسقط الأطباق كلها عليَّ، لولا أنني تداركتها متبسمًا: شطورة يا منونة انت ياللي جهزتي الفطور لحالك.

– آه، بس البطاطس لأ.

أخذت تضحك هي وأبوها، وأنا لا أعرف مغزى الطرفة.

أخذت تبدي دهشات مصطنعة وتقول: عمو أحمد انت تحب الطاطس؟

فأومئ بالإيجاب وقبل أن أبدأ في تلقينها درسا تربويًّا عن حب كل المأكولات لأنها رزق من الله، تأخذ هي في الضحك وتقول: عنجد تحب البطاطس الصفرا، يعني انت فتحاوي، بابا عمو أحمد فتحاوي، متل دحلان وأبو سميح.

أخذتني ضحكة شديدة من فرط المفاجأة، لكنني اصطنعت بعدها الجهل: ليش مُنى الفتحاوي مو منيح؟

زمجرت الفتاة وقطبت عن جبينها بشدة: لا مو منيح، كيف يعني منيح وهو ما بيحارب اليهود، وبيطخ في حماس، ثم انقضت بيدها على حفنة من تلك الأصابع الصفراء ودستها في فيها الصغير وهي تضحك.

أخذني الإعجاب بذلك المجتمع الذي يصل أطفاله إلى هذه الدرجة من الوعي السياسي في معركته الداخلية فضلًا عن الخارجية منه،ا ولكن رأسي لم تكن في سعة من التفكير والتحليل الكثير وقتها؛ فمنى تنظر إلى رد فعلي الواجم هذا ولا تفهم ما الخطأ في حديثها، حاولت أن أدير الموضوع: منى انت ما حكيتي لي إنك راح تعرفيني على عمك، فهرعت إلى درج المكتب في الغرفة وأخرجت صورة كبيرة احتضنتها بقوة وأتت بها إليَّ:

- شوف هذا عمي الشهيد إبراهيم، أنا بحبو كتير، ولما نستشهد متله راح نروح كلنا الجنة ونعيش من بعض، مو هيك بابا.

توقفت الكلمات في حلقي ولكنها أكملت:

- شايف هاد الكلاشين تبعه (وأخذت تهز رأسها وتقول بلهجة عجب) عمو أحمد أنا بعرف أسلخ نار، رحت مع بابا عالجبل وسلخت نار، انت تعرف تسلخ نار عمو أحمد.

غاصت الكلمات في جوفي، وتذكرت فورًا ذلك الصوت الذي هز أركان معسكر التجنيد منذ وقت مضى «دفعة ٨٧ تأجيل» ومشهد مئات الشباب وهم يسجدون على الأرض فور سماعهم الخبر؛ مشهد تلك الدولة التي أفلحت في أن تنفر أجيالًا بأكملها من السلاح فرارها من الأسد!

أشفق عليَّ أبوها وجذبها من بين ذراعي: منى ما راح تفرجي عمو على أساورك.

فمدت إليَّ ذراعها اليمنى الممتلئة بحلقات بلاستيكية ذهبية وملونة وقالت في دلال: ماما جابتها إلِي من العريش، حلوة عمو؟
أمسكت بأناملها الممتدة وطبعت قبلة حانية على يدها الرقيقة مداعبًا: انت أحلى يا منونة.

***

الشمس ساطعة والسماء تمطر بغزارة، أطفال رفح يلعبون في برك الماء بجوار ما تبقى من السور المكسور، مشهد ودعتني به سماء تلك المدينة المطهرة، لا أدري كيف شعرت ساعة الوداع أنني ما كنت هناك إلا بخلدي، ما سافر معي جسدي كل هذه المسافات، تركته هناك بأرضه، استلمته الآن على الحدود، ألقيت به في أول سيارة مسرعة، ودعته من بعيد بقلب تركته عند مالكيه. أخذت أغفو ويميل رأسي على زجاج السيارة المضبب، أخذت أتخفف منه في أحلام بعيدة، أصوات الأطفال، مذاق الزيتون، زمجرة النيران، دفء البيوت، صور الشهداء في الشوارع، كلمات الصمود على الجدران، القسمات الشامية في العيون. ضربات مساند «القعدة العربي» التي تنهال فوق رأسي منها ومن أخيها، لوحات يتداخل فيها جسدي بجسديهما، ألوان تتمازج فيها نبراتي بضحكاتها، أمواج من البحر تتلاعب بخصيلات من شعرها، ذرات من الرمل تتراسم بخطوط من أناملها، أخذت أحلم بكل هذا طويلًا طويلًا، لياليَ وأيامًا، لا أود عندما يراودني أن أفيق؛ ما بال موقظي اليوم يصرخ في أن أفق أفق، فتحت عينيَّ قليلًا، ألقى عليَّ الخبر، انقلبت من فوق الفراش وطاح جسدي في الغرفة حتى استويت إلى جهازي وأخذت أقلب في الشبكة وأكتب بحروف مرتجفة على محرك البحث في الأخبار عن جد مني، عن «نزار ريان»، وما أن ظهرت النتائج حتى اختفى كل

شيء من أمامي. صحت صيحة عويل مدوية، سقطت على ظهري، توقفت أنفاسي للحظة، انعدلت إلى التلفاز، وما أن رأيت الحلم محطمًا أشلاء حتى علا صياحي وفر الدمع في كل عروقي كالمذبوح، حفرة عميقة حيث كان البيت العامر، نيران ملتهبة حيث كانت الحديقة الغناء، استشهد الشيخ ومعظم عائلته، شهقت شهقة تمنيت أن تذهب بروحي، سقطت مرتجفًا كالمشلول، أجأر ببكاء لم تشهده عيناي من قبل، في محاولة يائسة ككل يوم – منذ بداية الحرب – أتصل بوالدها، في لقطة فريدة من الزمن أسمع صوته من بين الدمار، مختنقًا بالدمع، ملتفعًا بالصمود: أبي يا أحمد واتناش من عيلتي ذهبوا، أمي يا أحمد، إخوتي يا أحمد، أخواتي يا أحمد، أولادهم يا أحمد، بناتهم، خالاتي يا أحمد، وما أحمد كي ينطق في مثل هذا الموقف إلا ذهولًا يردد بضعف: صبرًا آل نزار إن موعدكم الجنة. صبرًا آل نزار إن موعدكم الجنة.

غابت البسمة عن عيني منى في أحلام ما بعد الحرب، وما الأحلام إلا سذاجات بني آدم التي لا يستطيعها إلا بإغلاق أجفانه، نعم لن أقوى على فتحها أمام عينها وقد ازدادت صمودًا على ما كانت، كيف ستكون إذن، كيف بها تعرِّفُني إلى أهلها جميعًا في الصور، ترصها إلى جوار عمها إبراهيم، جدها نزار، زوجاته، أعمامها، عماتها، لكنها تسرع إلى الغرفة المجاورة –كمن نسيت شخصًا تريد أن أتعرف عليه– وتحمل بقوة على ذراعيها أخاها الذي مر على مدينتنا وهو في رحم أمه، تحمل نزار الصغير، تحمل النبتة التي خرجت وتخرج بكل قطرة دم على هذه الأرض المطهرة، أراها تقترب به منِّي، إنها تكاد تلمس ذراعي، لا إنها تغوص بأناملها الدقيقة فيه بقوة، أكاد أشعر بطاقة تعتري جسدي كله، أغمض عينيَّ أكثر، تهز في ذراعي أكثر وبقوة، تنادي بصوت خفيض

انظر إليّ، افتح عينيك، أبي أبي أبي، أستيقظ مذهولًا من الكلمة، تنظر عيناي في سقف الغرفة المظلمة، أتطلع إلى مصدر الصوت بجواري، أنزعج متسائلًا: ماذا بك يا صغيرتي!

تجيب الصغيرة التي بدأت تفرك في عينيها اللامعتين برغم خفوت الأضواء: أريد أن أنام بجواركما.

أطبق بإصبعي على فيها: لا تسمعك أمك.

تنظر إليّ بنظرة عتاب أضعف أمامها، أسحب ذراعي من تحت الحالمة بجواري كي ألتقف به صغيرتي مبتسمًا في خبث تندُّري، وهي تكتم الضحكات بكل ما استطاعت، حتى إذا استقرت بيننا همست: أما الآن فالحكاية أولًا.

أحك رأسي مصطنعًا التفكير: طيب الحكاية أولًا. كان فيه بنت اسمها. اسمها. اسمها!

تتسع عيناها كمن عرفت الإجابة وتلهفت إلى سماع القصة التي أرددها كثيرًا ولا تمل منها وتقول بصوت واحد تتبعها ضحكات عالية: اسمها منى.

الصدمة

إلى ندبات الروح التي ما زالت ناتئة من أثر الصدمات بالواقع والحياة
من أثر السقوط من خيالات العقل المعقودة وآمال القلب المغزولة

صدمة ٢٣

٢٠٠٩/٦/١٠

خطؤه يأخذ في التسارع كلما اقترب من ذلك المبنى ، تتلوى قدماه وهو يلتفت برهة للبوابة التي دخل لتوه منها، ويتمتم حامدا أن لم يسأله أحد عن هويته الجامعية ، يبدو أن استنتاجه كان صحيحا ، يبدو أنه بالفعل لم ينقطع تردده على هذا المكان بعد ، وجهه هنا ما زال مألوفا ، وجوههم أيضا .. هؤلاء الذين يقفون في بوابة المبنى لم يتغير إلا واحد أو اثنان ، تلتهم قدماه الدرج بقوة ، يصعد دورا واثنين وثلاثة بالقوة نفسها، يلهث عند آخر درجة، يمرر عينيه على أبواب تلك الردهة ، لا بد أنه قد التحق بهذا القسم ، ينظر في ساعته المكسور زجاجها ، عشر دقائق تبقت على الموعد؛ يلمح مقعدا في طرف المكان ، يلقي بجسده المرهق عليه ، يلتقط أنفاسه ، تدور عيناه في المكان دورة كاملة قبل أن يغلقها تماما ، يضغط بأجفانه أكثر ، يحاول أن يهدأ ليراجع الساعات الغريبة التي مرت به منذ الصباح ، يجفف بمنديله قطرات العرق الخفيفة التي انتثرت على جانبي جبهته من أثر العدو ، يرتبك عندما يرى أثر الدماء التي على المنديل ، فيخفيه فورا في جيبه. تلمس أنامله الورقة التي بسببها هو الآن في هذا المكان ، يرفعها أمام عينيه ، يحاول استنطاقها ، يتذكر جيدا أنها مقطوعة من مفكرته الأثيرة ، ذلك التاريخ المطبوع عليها وهذا الكلام المكتوب فيها لا يتذكر متى كتبه .. ٢٠٠٨/٦/١٠ ، هذا هو التاريخ المطبوع ، و ٢٠١٠/٦/١٠ هذا هو التاريخ المذيل في الورقة والمكتوب بخط هذه البنود الخمسة نفسها.

لقد تأكد بالفعل أن يومه هو التاريخ المكتوب ، لقد التقط ورقة حالته المعلقة على طرف سرير المشفى مؤرخة بـ ٢٠١٠/٦/١٠ ، الكثير من الحروف الإنجليزية غير المنسقة كانت منتشرة تستفل وتستعلي أسطر ورقة المشفى ، لم يسعفه في الفهم إلا الكلمات التي استلقتها أذنه في حالة نصف وعي؛ كان أحدهم يهمس للآخر ، لعل صوته كان عاليا ولكنه لم يسمع إلا همسا ، كان يتحدث عن حادث .. عن احتمال فقد للذاكرة .. كان الآخر يبدد شكوكه .. كان يحدثه أن الصدمة كانت خفيفة .. أن الجروح طفيفة .. أن الفقد لن يكون إلا جزئيا .. أنه سيعود سريعا .. بمجرد أن يفيق ويرى بعضا من حياته المفتقدة في الذاكرة . لعل هذا هو الذي جلعه يفر في غفلة من الممرضة التي ثقل رأسُها على باب العنبر ، ماذا لو بقي ، من المؤكد أن أحدهم قلق عليه الآن ، لكنه لم يستطع ، الأحداث التي في تلك الورقة، تلك الورقة الوحيدة التي عثر عليها في جيبه ، لا يمكن أن يتحمل تفويتها ويستسلم هناك راقدا على فراش المشفى؛ بالتأكيد سيخسر. يحاول أن يتذكر أكثر ، صور كلها مشوشة ومهتزة ، تحلُّقُ نفرٍ يلبسون الأبيض ويتكممون بالأخضر فوق رأسه .. حركة عجلات السرير المتسارعة المتذبذبة في أروقة رخامية ، أبواق سيارة الإسعاف المتتابعة ، آخر امتحانات له في الكلية .. لا لا لا ، محال هذا ، من المؤكد هناك خطأ ، ما، هناك أحداث كثيرة يشعر أنها ساقطة من صوره .. يستدير برأسه ويضربه برفق مصطنع في الحائط الرخامي خلفه ، يفتح عينيه فجأة ، منذ متى دخل الرخام كليتنا ، تبا إنه لا يتذكر أي شيء ، أي شيء عن عامين مضيا .

لا يبقي كثيرا على حالة ارتباكه هذه، يصوب نظره شطر ذلك الموظف الذي ما زال يرقبه شذرا ، يهم إليه ويبادر بالتحية ، يسأله إذا ما كان اسمه في كشف هذه اللجنة ، يرد مستنكرا : سيادتك لا تعلم ما هو قسمك ، يتردد برهة : بلى أعلم ، قسم التاريخ لكني لا أتذكر الرقم ، بعد تنهيدة تستفتح عينا الموظف قائمة اللجنة ، يعثر على الاسم في أول صفحة ، تختلج في قلبه فرحة عندما وقعت عيناه على اسمه أيضا ، يمرر الموظف إصبعه إلى أن يصل إلى الخانة التي في آخر السطر ، ينظر إليه وقد مط شفته السفلى ، حضرتك محروم بالطبع من الامتحان اليوم ، لم تحضر أصلا طوال العام ، يتمتم بصوت خفيض : لم أحضر كيف لم أحضر ، ما المانع من حضوري ، أي عمل أخرني عن هذا ، لا بد أن هناك ما كان يشغلني ، لا بد أن عملا أهم في انتظاري اليوم عوضا عنه .. أخذ يحدث نفسه ذاهلا عن الموظف تسوقه قدماه إلى الدَّرَج ثانية .
جلس لحظات يستعيد هدوءه على مقعد مقابل للكلية ، يمسك بالورقة ويقرأ أول سطر فيها قراءة أخيرة – قبل أن يمحوه تماما – : الذهاب إلى امتحان التمهيدي الماجستير – قسم التاريخ الإسلامي .
ينتقل برفق إلى السطر الذي يليه ، يمشي بتؤدة هذه المرة ، يتذكر أول مرة صعد فيها هذا المبنى المقابل لكليته ، وذلك الدور العلوي الذي كانت تعلو مكاتبه التراب ، كيف كان أول اجتماع به مع أول فريق عمل ، خمسة كانوا وهو سادسهم؛ لم تمض إلا أشهر حتى جاوزوا المئة ، يالله ترى كم وصلنا الآن ، وترى أي الفروع فتحت ، وترى من الآن يخلفني في منصبي، وترى أي مفاجأة تلك التي من المفترض أن أخبئها لهم اليوم ، شيء من السرور أخذ ينمو بنفسه كلما اقترب من باب مكتبه ، سرورٌ يعرف مذاقه من كل عمل تطوعي يقوم به ، ويشعر

أنه بالفعل رصيد مباشر يضاف لأمته ، أخيرا تضغط يده على مقبض الباب يفتح برفق ويدفع بلين ، لا يدور المقبض ولا يستجيب لسانه ، يبدو أنه مغلق ، يتوجه للمكتب الذي بجواره ، شخص لا يتذكره يجلس هنا ، يبادر : أجديد هنا ، ينظر الشاب إليه وقد عقد حاجبيه ، يعني من سنة تقريبا ، مين حضرتك ، يدور السؤال في ذهنه بسرعة البرق ، إنه لا يعرفني ! ، هنا من سنة ! ، لم آتِ لمكتبي هنا منذ عام ، يالله ترى .. يقاطعه الشاب بنبرة أعلى : مين حضرتك ، يتلعثم ، لا أنا فقط كنت أسأل عن مجموعة شباب .. نعم شباب يقومون بنشاط ما هنا .. نشاط اسمه "أبجد"، تعرفهم .. سمعت عنهم. يأخذ الشاب في القهقهة : لقد رحلوا منذ زمن طويل . رحلوا كيف ؟ لماذا ؟ ، يتابع الشاب في تلقائية مستنتجا : آآآآه .. أنت إذن من الأعضاء الذين نسوا أشياء لهم هنا ، ويأتون كل يوم والآخر كي يسألوا عنها ، ويصدعونا نحن ، حسن يا سيدي تعال ورائي. وبحركة ميكانيكية أخذ العامل يعبث بعدد من المفاتيح أخرجها من جيبه ويتوجه بتلقائية إلى باب في آخر الردهة ، ويفتحه بشيء من الدفع والتدافع من عشرات الأوراق التي بدت متكدسة خلفه ونادى نحوي : تفضل خذ ما تريده وارحل .

لا يكاد يصدق ما رأى ، لا يكاد يصدق أن الرجل الذي افتتح نموذجه عندما كان رئيسا لمركز في الكلية هو هو الذي أغلقه عندما أصبح عميدا لها ، لا يصدق ما قاله ذلك العامل، لا يصدق أن ما أنفقه في أكثر من عامين راح أدراج الرياح ، تكدس أكوام فوق أكوام كالأطلال في حجرة ضيقة ، لا يصدق أنه سيخرج الورقة من جيبه ، وسيمحو السطر الثاني، لا يصدق أن زيارة لمكتبه في نموذج مجمع اللغة العربية ، وتقديم هدية لمن يكملون مسيرته التي أذهلت الكلية يوما ما

حين بدأها، باتت في عداد الأمنيات المستحيلة ، لا يصدق أن عليه التوجه إلى السطر الثالث ، بكل أمل ، وكل خوف ، بألف رجاء يجر قدميه اليائستين إلى الحديقة المسماة في جدوله المزعوم اليوم ، ينتظر لقاءه القادم .

الطريق من الجامعة إلى حديقته تلك المطلة على النيل ليس طويلا ، والموعد الذي كتبه قبل عامين هنا في الورقة ليس قريبا ، آثر أن يقطع المسافة ماشيا على نسمات نيلية تلفح ذاكرته فتعيد لها ما سلبه حادثه ذاك ، لكن النسمات بدلا من أن تسترد شيئا من عقله أخذت ترسل أشياء من مآقيه التي تترقرق في عينه منذ الصباح. رباه، لو كان لي أن أنسى أنني تركت الماجستير ، وأن مشروعي قد توقف رغما عني ، فلا يجب أن يسقط من ذاكرتي أبدا موعدي القادم .. تتسابق الدمعات عندما يخطر بباله أن ماذا لو لم يكن الموعد ساقطا ، ماذا لو لم يكن موجودا من الأساس ، تكاد أنفاسه تقف على حافة السؤال. قدماه تغوص في عرض الممشى أيمن كوبري الجامعة، في حركة جنونية اندفع بجسده كله كالرصاصة يطوي ما تبقى من الطريق عله يستبقي قدرا ليس يسبقه.

دارت عيناه في المكان حتى وقعت على طاولة غير مشغولة ، قصدها مضطرب الخطو ، جلس ضاما رجليه ويداه مقبوضتان عند ركبتيه وعيناه صوب المشهد النيلي الذي راح التماع مائه – تحت وهج الشمس – ينعكس ويتلألأ في عينيه فيزيد من ترقرق مائهما .

"تُرى من تكون التي أنتظرها" ، حدق في وجه النادل الذي أتى ليسأله عن طلبه وكاد ينطق بسؤاله ، لكنه ابتلع ريقه ، نظر على الطاولة ، أمسك بالقائمة ، ترى أي المشروبات تفضلها، هل تحب الجوافة مثلي

، أم ترانا لا نطلب سوى الليمون ونوفر أي مليم لعصائر البيت الطازجة ، "أنتظر أحدهم ، سأطلب عندما يأتي" ، تململ النادل منه وأشاح عنه بوجه عابس .

لا يريد سوى واحدة، ترى أعيناها كما كان يحلو أن يلونها بخضرة الحقول وزرقة السماء والبحر، أم بدكنة الغسق وحمرة الغروب، أم بسواد الليل وغمقة العنبر، تراها خمرية كمعتوق النبيذ أم شقراء كوهج الشمس، تراها تقارعه بقلمها، أم تباريه بصوتها، تشعر به الآن، تعرف ما حدث له في الصباح، ترى يعرفها لو أتت .. ضاق ذرعا بخيالاته ، وضاق بمقعده ، انتصب عوده النحيف وراح يضرب الأرض بخطوات غادية ورائحة ، يحدق في وجوه الخلق ، يخيل إليه كل غادية أنها مقبلة عليه ، ترى هل تكون تلك .

أخذ اليأس يتملكه ، ينظر إلى ساعته المكسور زجاجها ، مرت ساعة ، ياه كيف نسي ذلك، يكاد أذان العصر يُرفع ، لم يصل الظهر بعد ، انطلق إلى الزاوية التي يعرفها جيدا في ركن من الحديقة ، لا يذكر أنه كان متوضئًا ، أخذ يفضي من الماء على أطرافه فيكتشف بعض الجروح والكدمات التي أخذت تشي أن الحادث كان أشبه بالسقوط منه بالاصطدام ، ترك التفسيرات بعيدا ، ترك الماء أيضا على أطرافه يقطر ، وهمَّ بالصلاة .

قرفص بعد الصلاة ووضع رأسه على تشبيكة أصابعه يحدق في لا شيء ، لا يتذكر أنه أحس بلذة كهذه من قبل ، تملكه العجب ، إن خالق الحب لا يكلفك إلا أن تذكره في نفسك حبيبا حتى يذكرك في نفسه ، بمجرد أن يخطر على بالك . نعم بمجرد أن يخطر على بالك ، تعلم أنه يذكرك ، يذكرني ! ، وأي سعادة ينالها محبوب عندما يعلم أن حبيبه

الآن يفكر فيه، فما بالك لو كان مخلوقا وهو خالق ، لكن لِمَ تتفتق له هذه المعاني التي لم يطاولها يوما ، تلك التي كان يفكر بها طوال هذه الساعات ولا يعلم أصلا أهي كائنة أم لم تكن بعد ، أيتوافق تخاطرهما ، أم يتنافر ، وما الذي عليه فعله كي ينهل بوصلها ، أن يبتغي سلما في السماء أو نفقا في الأرض ، لكن ما الذي عليه فعله كي ينهل بوصل الحبيب الأعظم ، أن يرفع يده ويهبط بها على صدره ، أن يصدح الله أكبر الله .. سمعها ترن في الأفق تعلن صلاة العصر ، اندفع بجبهته تقبل الأرض وبروحه تحلق في السماء ، وبلسانه يدعو الحبيب أن يهديه حبيبه فيه .

تسليمة عن اليمين وأخرى عن اليسار ، يرفع بعدها يده إلى جيب قميصه ، يخرج الورقة ، ويخط على السطر الثالث ، لم تأت له زوجةُ في الموعد المحدد ، ضاق ذرعا بتلك اللعبة السمجة ، أخذ يمرر عينيه في بقية الجدول ، يذهب لشركته ويعقد اجتماعا تقييميا ، يصلي مع صديقه المغرب ، يذهب إلى بيته قبل العشاء ، لا يعرف من ذلك كله إلا صديقه الذي لا يخال أنه قد تغير ، ترى أين شركته تلك ، وهل هي موجودة أم ككل الأخريات كانت مجرد أمنية لم تر ضوء النهار بعد ، وترى بيته ذاك هو بيته فعلا ، أم بيت أهله ، هل يجلس إلى الآن في بيت والده ، لا يعقل هذا ، من يدلني إذن من ؟ ، جمع أمره وانطلق من فوره إلى صديقه ، ما زالت معالم بيته الذي يتردد عليه لا يُخطئها . بيت صديقه لا يفصله عن بيت أهله سوى عدة شوارع ، ورغم ذلك أحب أن يذهب إليه أولا. مؤكدٌ أن لديه تفسيرًا أوضح لكل هذا . عند مدخل شارعهم رأى أخاه من بعيد ، استبشر وتوجه نحوه :

- كيف حالك حسان ، وكيف أخوك .

- بخير والحمد لله ، لكن يبدو أنه لن ينزل في إجازة هذا الصيف .

امتقع وجهه وزاغت عيناه ، تابع بصوت تحشرج في حلقه : ولم ذاك ؟
- يبدو أن المقام قد طاب له في السعودية. ضحك الفتى ثم ودعه ومضى بعيدا .

تسمر في مكانه ، لكن دهشته لم تلبث طويلا ، ممّ يدهش ، ولمَ يدهش ، من أول يوم عرف فيه حاتم وهو لا يكف عن حديث السفر ، ودروب الهجرة ، من أول يوم عرفه فيه وهو يأتي كل يوم له ببلاد جديدة يقلب رأسها على عقبها ، يتعلم كل شيء عنها ، ثم يكتشف أخرى أكثر ميزة أو ميزتين فيتحول إليها. يذكر أنه كان أكثر تعلقا بكندا ، نعم كانت حلمه الكبير ، لا يذكر أبدا أنه فكر في السعودية من قبل ، ترى ما الذي جعله يحط رحاله هناك ، نعم كنت أعرف كل ذلك ، لكن من كنت أفكر فيه صديقا ساعتها عندما يسافر حاتم ، هل كنت أنوي البقاء بلا صديق ، ترى من اتخذت من بعده صديقا ، ترى ما سمته ، ترى ما خلاله .. وأخذ يعيد هذيانه في أصبوحته النيلية بلا وعي .
عندما بلغ ناصية الشارع استقبلته الشمس بأشعتها القرمزية ، فبثت في الأفق مشهدا جنائزيا مهيبا، أخذ يتمتم : أمسينا وأمسى الملك لله ها هو يدخل شارعه، ويتمتم : اللهم بك أمسينا، يمضي في طريقه بلهفة يتسارع خطوه كمن يلاحقه عدو مباغت خلف أشجار غابة معتمة ، ويتمتم : أمسينا على فطرة الإسلام ، يسرع أكثر كلما اقترب من البيت لم يتبقَ عليه سوى بنايتين، يسلم ساقه للرياح يتجاوزهما في سرعة البرق ، تتسمر عند الدرج الذي همت بالتهامه .

- حمد لله على السلامة يا أحمد ، قالها وأخذه بين ذراعيه يحتضنه بقوة ، بل يعتصره في عنف .

- الشيخ أنس !

- لا ، كان هذا منذ زمن ، أنا الآن ، أنس صديقك.

- صديقي .

- اجلس ، وقل لي كيف سار يومك .

لم يحك هو شيئا ، حكى له أنس عن كل شيء ، حكى له عن اتصاله به ليلة أمس ، كان صوته عاليا ومضطربا كالممسوس يصرخ ويطلب منه أن يرافقه غدا في ركوب الخيل " خشيت عليك بشدة ونصحتك ألا تذهب ، في الفجر هاتفتك رد عليّ أخوك وقال إنك تركت هاتفك ، وتركت المنزل فجأة ولم تعد من بعد الصلاة ، أدركت أنك بهذه الحالة مصاب لا محالة ، نزلت من فوري ولحقت بك عند المكان الذي نركب فيه الخيل دائما ، وجدتك محمولا على يدي أحدهم بعدما كبا بك الجواد من فرط اندفاعك به ، ذهبت معك للمشفى ولما قصصت للطبيب ما حدث. أبلغني هو الآخر بحالتك ، قدم إلي الورقة التي في جيبك وقال أرجح أن فقد الذاكرة المحتمل ذلك سيبدأ من هذا التاريخ قبل سنتين من الآن ، ذكرت له أن الصدمة ستكون كبيرة عليك ، اقترَح أن نتركك تواجه ورقتك بندا بندا ، حتى لا تصعقك الحقيقة كاملة ، اتصلتُ بأهلك لأطمئنهم ، وتغافل العاملون بالمشفى عنك ، حتى حدث ما كنا نتوقعه ، وخرجت لتستقبل أحلامك وتراها بعينك ، لكن صدقني أحلامك هذه رغم ذلك قد تحقق منها ..

لم يدعه يكمل أكثر من هذا ، أخرج ورقته وطلب منه أن يدله على المفكرة المنتزعة منها ، ناوله إياها ، قبض عليها بيديه المرتعشتين وخطا بقدميه الثقيلتين درج المنزل مودعا إياه : شكرا صديقي ..

دخل البيت ، استقبلته الأحضان الحارة ، والأعين الدامعة ، انسل من وسطهم ، أغلقَ باب حجرته خلفه ، تكوم جسده خلف الباب ومفكرته مضمومة إلى صدره ، فتحها برفق وأخذ يقلبها صفحة صفحة ، ويتذكر أيامه الضائعة يوما يوما ، يأسف لسفر صديقه ، يبرق لاجتماع قلبين يحبهما في الله ، يرعد لفترة اعتقال مرت به ، يشهق لرحلة قصيرة إلى غزة، يصل إلى صفحة الأمس ، يلتئم الماضي بالحاضر. آخر مشهد مفقود ها هو يلتقطه، ها هو يرى نفسه على ذلك الجواد الأبيض في الصباح يعلو به ويهبط ، ينطلق به كالريح المرسلة ، ها هو يتذكر خلجات نفسه ويكاد يلمس وجهه المذعور رغم كل شيء ، كأنه كان يستعد للكبوة ، ها هو يشعر برأسه يرتطم بالأرض ، وتظلم الدنيا ..

يهب واقفا ، يستوي بجسده على المكتب يمسك بصفحة اليوم ، يمتشق القلم ويسطر ، ينتهي سريعا ، ويعلقها على الحائط ، يعاود القراءة بصوت هامس خفيض .

الأحد ٢٠١٢/٦/١٠

- أذهب لامتحان الماجستير .
- أتابع عمل ”أبجد“ .
- أقابل زوجتي في الحديقة النيلية .
- أتوجه لمكتبي في مؤسسة ”الفراقد“ للإنتاج الإعلامي .
- أحجز تذكرتين لقضاء عطلة الصيف مع حاتم في كندا .

مِن بَعيد

عندما يكون المرء في أبعد نقطة مكانية عن عالمه، يصبح في أقربها وجدانيا منه، فحجاب الصورة عن العين نشاط لها في القلب.

من بعيد

تحت مظلة خشبية متفننة الزخارف والتعشيقات الخشبية ، ذات طراز شرقي ، وميض البرق يلوح في الأفق منذ ساعة تقريبا ، وصوت الرعد بدأ متأخرا .. قطيرات مطر بدأت تزف الغوث وتحدث دوائر صغرى في بركة اصطناعية صغيرة حول نافورة منمقة أمامي ..

تنفتح السماء بماء منهمر ، الرعد يتزايد ، والماء يتثاقل ، لأول مرة أشعر بالخوف من الرعد والمطر .. "خوفا وطمعا" يا رب ذاك الخوف وإني بك طامع .. المشهد غريب عليّ كليا، كل المشاهد هنا

مشاهد من الحياة أعيشها هنا على تلك الجزيرة في المحيط الهادي، قطعة من جنة في الأرض تُدعى "ماليزيا"، مشاهد كالتي لا نراها إلا عبر حائل زجاجي، عبر شاشة هنا أو هناك تُطوَى لنا الأرض طيا فنرى من مكاننا ما لم يسعفنا الزمن لرؤياه.

الآن أنا هنا، جزيرة يحوطها الأزرق المائل للخضرة من كل مكان، غابات سامقة لا يحد بصرك أعلاها، شاطئ أبيض، ونخيل متمايلة كخلفية "ويندوز ٩٨" القديمة، مياه ترى مخ قواقعها من صفائها، أكواخ خشبية بنيت كفندق حتى لا تكسر روح الطبيعة بتلك الكتل الخراسانية المقيتة، فاكهة من نوع، ولحم طير من كل شكل. أفض كل ساعة بكارات تلك العوالم الجديدة والمذاقات الطريفة على كره .. على كره.

كره المنعم مفردا .. كره آدم الجنة بلا حوائه .. كره من حكم على نفسه بعدم استحقاقها السعادة .. أوحقا يجوز أن أحرم نفسي من التعرض

للسعادة .. أن أوقفها وقفا على فتاتي ، وأشرطها شرطا أن تكون مشاطرتي إياها .. لا أدري ، وعلى كل قد فعلت هذا دون أن أدري، أشرف على كل هذه الحيوات من بعيد خوفًا من الوقوع في لذتها منفردًا فتصبح مرة !

المطر يخف قليلا والسماء ما زالت تومض فتنير شواهق الجبال الغابية من خلفي ، وامتدادات الشطوط المنسابة من أمامي .. يؤلمني الوميض .. يؤلمني ذلك المخلوق الذي يولد لينير الأفق هنيهات ثم يأفل أفول مَن لا يرجو العودة .. أمام الظلمة مرة أخرى ، أتوحد وظلمة روحي ، أتذكر هذه وتلك .. وميضات حلت بروحي أزمنةً قصارًا قصارًا قصارًا .. لم تغن عن استيطان ظلمة الروح ووحشة النفس شيئا ..

من بعيد .. يتوقف القطر .. تعود البركة الاصطناعية إلى هدوئها مرة أخرى .. يزمجر الرعد مرة أخيرة .. أمتثل لامتزاج الطبيعة. أوقف نزف الحروف .. أقف على الأرض المبتلة من جديد .. وأدعو لتلك التي لم تأت من بعيد .. أن يرزقنيها اللطيف عن قريب !

الأم

الألم .. ملح الروح التي لا تحلو إلا به .. نار النفوس التي لا تلمع إلا معه

الألم

تُرى أي العلل يشكوها المرء أكثر، علل الروح أم الجسد، وتُرى أيهما أسبق، أو أيهما تورث الأخرى، أيهما تُشفى ولا تنتكس، وأيهما تندمل ولكن تُنكأ، أيهما يصلح المسكن لها. فيخفف آلامها، وأيهما تستدرجها المضادات إلى عالم الآثار الجانبية، أيهما يرثي الناس لحال صاحبها، وأيهما يهونون من شأنها.

أسئلة تتملكني كلما مر بي ألمٌ؛ فأنا لا أتذكر أن علة أصابت جسدي إلا إذا كنت في أمس الحاجة إليها. إلا عندما يكون الألم قد تملك روحي ولا أجد سبيلًا كي يعرف الناس به فيشفقون عليَّ، فأتمنى ساعتها أن يكون الداء ظاهرًا، حتى يكون لي مجرد الحق في طلب الراحة. أتذكر أيضًا أن الداء الجسدي إذا جاء بلا علة نفسية فلا أكاد أذكره، يأتي سريعًا ويذهب سريعًا، كضيف حل في غير موطنه، فلا يلبث أن يرحل.

ولكن إذا كنا ندعي كثيرًا أن الروح هي الأساس، فلمَ لا يسترعي انتباهنا عليلو النفوس، لم إذا قال أحدهم: «اعذرني أنا تعبان نفسيًّا هذه الأيام» ضحكنا ملء أشداقنا؟ «شكلك بتحب، هههههه»، وإذا قال: «أصابتني نزلة برد» تغير لوننا وانكسرت نبرتنا «ألف سلامة عليك»!

لمَ يمكنُك إذا أخبركَ الأولى أن تردف قائلًا: «طيب تسلمني شغلك بكره وتبقى تحكيلي بعدين»، وإذا كانت الثانية «طب نام واتغطى كويس وفي داهية الشغل. أهم حاجة صحتك»!

لمَ نجد طبيبًا واحدًا لعلل النفس يسمى الطبيب النفسي، يعافه الجميع، ويربطونه بالأمراض العقلية، والخرف والجنون؛ ولم نجد لكل سنتيمتر في

الجسد طبيبًا متخصصًا، أنف وعين وأسنان وقلب وجلد وظفر!

الإجابات الجاهزة لدى الشيوخ والمعممين تبدأ بقوله تعالى: «ألا بذكر الله تطمئن القلوب»، وبالطبع لا تنتهي، لكنني حتى الآن لا أجيد الخلط بين خطي العلاقة مع الله والعلاقة مع الناس من الزاوية التكميلية، أي إنني إذا ضعفت علاقتي بالله لا أستطيع تقويتها بعلاقتي مع البشر كذا العكس، هناك نوع ما من ألم النفس لا يمنع القرب من الله أن تشكو منه، وما كان عام الحزن على نبينا - عندي - إلا من هذا القبيل، فلماذا إذن إذا تألم حلقك قالوا خذ بالأسباب واذهب إلى الطبيب، ولا يقولون تقرب من الذي بيده الشفاء، وإذا تألمت نفسك قالوا: ذنوب تكاثرت، حافظ على وردك.

آلام الجسد تدهشني قدرة المسكنات على إخمادها، تأخذ كل مسكن في موعده، حتى ينتهي تأثيره فتأخذ الذي بعده إلى أن تنتهي المضادات الحيوية من عملها، وتعود بعد أيام لحالتك الأولى، أما آلام النفس، فهيهات، سكونها ما هو إلا محض تلاهٍ عنها، حتى إذا عدت إلى نفسك وجدت الألم أعظم.

آلام الجسد إذا استفحلت قد يُستأصل موطن الألم، أما آلام النفس أنَّى لها ذلك! آلام الجسد قد تشفى ولا تنكأ، أما آلام النفس فلا يوجد جرح فيها لا ينكأ، لا يوجد، أنا لا أذكر مرة مرضت فيها لأني تذكرت أن في مثل هذه الأيام من العام الماضي كنت مريضًا؛ لكن كم مرة بت ليلتي أتقلب لأن صباحي صباح عام جديد على جرح قديم.

آلام النفس تنكؤها الكلمة، والهمسة، والغمزة، والإشارة. آلام النفس يهيجها لحن، أو دمعة، مشهد غروب أو صوت كروان، نظرة عابرة، أو صورة مسرعة، صافرة قطار أو مرجل باخرة، تأتي توًّا، بلا ارتفاع تدريجي

في الحرارة، ولا صعوبة في البلع، ولا سعلات متفرقة في اليوم، ليس لها أعراض. ليس لها أنواع من الطعام دون أنواع، ولا ألوان من الشراب دون أخرى، كل الأنواع والألوان تصبح في ألم النفس طعمًا واحدًا بلا لون.

عليل الجسد إذا تأوه تضورت له قلوب الناس من حوله، وعليل النفس إذا نطق بالآه ظنوا به الجنون، وأي ألم أشد في النفس من ألم لا تراه إلا أنت، مِن ألم إذا أردت أن تصرخ منه خرج الصوت يشق أحشاءك شقًّا، خرج أنينًا أبكم، لا يكاد يبين إذا سُئل: مالك، إلا: لا شيء، اللهم إلا أن يسعفه الله بـ «بوادر برد» فيخرج من حرج الهم الواضح في ظاهرة بلا علة تُعايَن.

وإذا ما تكالبت الآلام، هل يصبح السبب الرئيس في انتهاء رحلة الإنسان هي تكالب آلام روحه، أم آلام جسده، الضغط والسكر والقلب هل هي أزمات نفسية تترجمها الأجساد إلى لغة تفهمها العيون المادية؟ هل القصص التي نسمعها عمن يموتون همًّا وغمًّا حقيقية، عن الرجل الستيني الذي يبلغ سن المعاش فما إن يجلس في البيت ويشعر أنه لم يعد له مورد رزق ولم يقوَ على عمل ظهرت كل الأمراض الخفية فجأة ومات بعد عام أو اثنين؟ الشيء الذي نعرفه جيدًا أن السبب الرئيس لموت الحيوان هو علل جسدية، فهل كل من وصلت به آلامه النفسية إلى حد الموت دونها كان راقيًا!

هل كان يفاخر جميل بن معمر وهو العربي في زمن التفاخر عندما سُئل عن قومه: من قومٍ إذا أحبوا ماتوا، وهل مدحته الجارية وأعلت قدره عندما ردت: عذري ورب الكعبة، هل كان الفخر بالموت في ميدان من ميادين الشعور يساوي عند العربي الفخر بالموت في ميادين المعامع!

هل من يموت كمدًا وقهرًا لتسلُّط ظالم، أو تغلُّب متجبر، أو كسر

لكرامة، أو انتهاك لعرض هو الأنبل والأعلى قدرًا والأشف نفسًا، أم من يصمد ويعالج الجرح بالجرح والشعور بالتبلد حتى يقوى على قتال خصمه فيبرد نفسه ويثلج صدره وينجز ثأره!

هل نحفظ نفوسنا من التعرض للآلام في مواطن متابعة حوادث الليل والنهار من سفك الدماء وهتك الأعراض وإفساد الحياة، كما نحفظ أجسادنا من الولوغ في مواطن الأوبئة والأمراض، أم نضغط عليها ونحملها فوق طاقتها كعضلة في الجسد نريد لها أن تقوى فتحمل كل يوم ما زاد عن اليوم الذي قبله حتى تصير محصنة عاتية لا يهزها حادثات الدهر، ولا يؤثر فيها جرح مهما يكن غائرًا فجلدها أسمك وعظمها أصلب!

هل كل إنسان فيه هذا وذاك، تتفاوت النفوس كما تتفاوت الأجساد، منها ما يحتمل ومنها ما لا يحتمل، منها ما عليه أن يواجه ويأخذ الألم على الألم، ومنها ما عليه أن يتوارى حتى لا يُتلف نفسه بالكلية؛ وهل للأول أن يفتخر على الثاني، أم أن كلًّا ميسر لما خلق له؛ وهل يعرف ضعيف النفس أنه هو المعنيُّ بلا يكلف الله نفسًا إلا وسعها؛ وهل يعرف أن هذا وسع نفسه وأنها لا تخدعه حتى تقعده عن التعرض لتلك المواطن، هل؟

هل أقتل نفسي بإدمان عذاب نفسي كما يقتل المدمن جسده بمسكراته، هل يحاسبني الله على إزهاق نفسي، وذهابها حسرات، أم يثيبها على ما أوذيت به درجات، أقويُّ النفس أنا بعذاباتها أم ضعيف بعجزي عن رد الآلام عنها، أتزيد أسئلتي تلك من الألم أم تسكنه، أتزيد أسئلتي من آلام مثلي أم تسليه وتسكنها، آه من تلك السؤالات إنها بحد ذاتها لهي. الألم.

الإنسان والعلاقة

الخيوط الذابلة أو الحبال المتينة بين البشر المرصوصين كقطع الشطرنج على الرقعة ليست حقيقية، إنهما صنف واحد يرق ويغلظ كل يوم بقدر، والحاذق من لا ينقطع منه خيط.

الإنسان والعلاقة

ما الإنسان، الإنسان هو ذلك الكائن الرباني - مهما تشبه الشوائب وغلبت عليه – الذي خلقه الله بإبداع في مفرده، وإبداع أعقد وأعجز في مجموعه، إذ اختلاف ألوان البشر وأشكالهم ليس أكثر إبهارًا من اختلاف نفوسهم وعقولهم وقلوبهم، التي لا يملكها جميعًا إلاه، ولا يملك بعضًا منها إلا من أعطاه الله بعض أسباب ائتلافها «لو أنفقت ما في الأرض جميعًا ما ألفت بين قلوبهم».

وما العَلاقة، العلاقة هي روابط منفصلة عن الإنسان مقدرة كجميع أقداره، لكن منها ما جعله الله جبرًا ظاهرًا عليه كالأب والأم والابن والأشقاء وكل ما تفرع من صلات قرابة، ومنها ما جعله الله خيارًا – مقدرًا له أيضًا – بداية من أعقدها على الإطلاق «الزواج» إلى كل أشكال العلاقات على وجه الأرض: صداقات ومنافع وتعلم ومتاجرة وجيرة ... إلخ.

وإذن فهناك من العلاقات ما لن تستطيع أن تفصلها عن الإنسان ولا بموته حتى وهي العلاقات الجبرية؛ وفي المقابل منها ما ننشئه بإرادتنا ونقطع دابره بإرادتنا أيضًا، قد تساعدنا الظروف في هذا أو تساعد علينا، لكن في كل الأحوال غالبا ما يعلق مصير العلاقة على قرار الإنسان نفسه.

وإذا كان الإنسان قد خلقه الله فردا وسيحاسبه فردًا، فإن العلاقة خلقها الله – فهي مخلوقة أيضا بقدره وحوله – أعقد من ذلك، خلقها زوجين (أعني طرفين) أو أكثر، ورتب حقوقها وواجباتها على كلا الطرفين؛ ولم

يستثنِ الله إنسانًا في الكون دون أن يرتب له «علاقة» مع الإنسان الآخر لها حقوق وواجبات، مهما تكن ماهية هذا الإنسان، ولعمري فإن آية في القرآن أراها جمعت نوعين من العلاقات أعقدها وأبسطها وهي قوله سبحانه: ﴿يأيها الناس إنا خلقناكم مِن ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائلَ لتعارفوا﴾. فابتدار الذهن عند منّ الله علينا بخلقنا ذكرًا وأنثى هي تلك العلاقة الشرعية بينهما الحافظة للخلق والموصِلة للخالق، ثم تشعيب العلاقات بعد الذكر والأنثى إلى الشعوب والقبائل وبينها ما بينها من البون الشاسع والاختلاف الهائل لا يفضي إلى انعدام أي علاقة بالكلية، بل يوجب أن تكون هناك بحد أدنى علاقة «التعارف»، والتي لو تأملنا فيها وجدناها بداية للكثير من العلاقات بين الزوجين (بداية الآية) في كثير مما يقع بين الناس.

والعلاقات هي في الأصل نوع من التواصل والتعارف بسبب ما، فالإنسان الذي لم أتواصل معه بأي شكل كان، والذي يعيش في ركن ما من أركان المعمورة، لم أرَه ولم أسمعه ولم أكاتبه، فقطعًا لن تكون ثمة علاقة بيننا، والإنسان الذي قابلته مرة أو مرات ثم انقطعت بيننا السبل بسفر ونحوه تبقى علاقتي به رهنًا بأسباب الوصل بيني وبينه. ولذا، فإن في الأزمان الغابرة كان السفر والترحال وسوء الاتصال يفقد المرء علاقات كثيرة لو دام معها الاتصال لأنتجت خيرًا كثيرًا، وهو ما انتفى في عصرنا هذا، إذ لم يعد هناك من تخشى أن تفقده في هذا العالم شديد التشابك، ستصل إليه عبر وسيلة رقمية ما في ثورة الاتصالات هذه. ومن ثَم، فإن المسئولية تجاه العلاقات صارت أوثق بكل المعاني.

ولكن ما دامت الأمور بهذا الوضوح فما المشكل إذن في الأمر، ولم يخسر بعض الناس بسبب علاقاتهم التي جعلها الله سبيلا لحياة أفضل، ولم

تنتج بعض العلاقات السلبية من العداوة والقطيعة والتخاصم والتحاسد – وكلها علاقات – في غير موضعها، لأنها موجهة لأناس لا يحق فيهم هذا بموجبات كثيرة سنها الله لخلقه ونظمها بين عبيده!

إذا عدنا إلى طرفي المعادلة نجد أنه يصح الابتداء من أيهما، فقد يقابل الإنسان شخصًا ما يتعرف عليه بقدر ما، دون أن تكون هناك أي نية مبيتة لعلاقة محددة تعقب هذا التعارف، ويظل كلاهما يتعمق في الآخر ويكتشف مدى القرب والانسجام، فيقرر أحدهما (أو كلاهما) ساعتها أن يحدد ملامح علاقة ما بينهما، فنرى أنه يشاركه في تجارة أو علم أو نسب ... إلخ. وقد يحدث العكس عندما يتقابل شخصان وأحدهما أو كلاهما يعقد النية على علاقة معينة محددة من قبل، كأن أذهب إلى مقابلة في شركة فأتعرف على الشخص الذي يجري معي المقابلة، أو أذهب إلى محاضرة وأقيم علاقة مع المحاضر، فتكون هذه العلاقات محددة سلفًا وقد تتطور وتنتقل إلى الإنسان نفسه؛ وقد لا تتطور وتقف على حد العلاقة نفسها دون الإنسان.

ففي الوجه الأول من التعارف، أنت تقدر الإنسان لذاته، فيدفعك تقديرك وإكبارك له إلى أن تتشاركا معًا في سبل الحياة عبر تلك العلاقات التي كلما زادت تصاحبتما وتدانيتما أكثر، وفي الوجه الثاني أنت تقضي حاجاتك أولا ثم تنظر لما وراء تلك العلاقة من الإنسان هل يستحق بذاته أن يقترب من نفسك أكثر، أم أن دوره سيقتصر على تلك العلاقة متى تنتهِ ينتهِ معها.

والناس يخلطون كثيرًا في الوجه الأول بين الإنسان الذي عرفوه ولم يتغير، وبين العلاقة التي أنشئوها وقد تتغير وتتبدل، فترى الصاحب يجافي صاحبه إذا تشاركا في تجارة وخسرت؛ وترى الزوجين يتحولان إلى أعداء

إذا انفصلا؛ وترى أي طالب لفتاة كمن يطلب المُلك أو يقود ثورة، إما أن يفوز فإلى الصدر؛ وإما أن يخفق فإلى القبر.

وما ذلك إلا أنهم قد أغشاهم عالم العلاقات المرتبط بعالم الأشياء المادية، عن عالم الأشخاص المرتبط بعالم الأفكار والمشاعر المعنوية، فهل صاحبك الذي فشلت معه تجارتك تغير في ذاته، هل كان صاحب خلق فتخلى عنه، أو صاحب علم فبار لديه، وهل خاطبك أيتها الفتاة كان طيبًا خلوقا طالما عرفتِه وسمعت عنه من بعيد حتى إذا ساقه حظه إلى القرار بطلب علاقة بينكما، ولم يكتب للعلاقة التوفيق، كُتب للإنسان نفسه ذات المصير.

والناس أيضًا تخلط في الوجه الثاني من العلاقات، فيطالبون أحيانًا كل من يكون بينك وبينه علاقة محددة سلفًا أن يكون أكيلك وشريبك وجليسك، وقد لا ترى في هذا الإنسان أن يأخذ في نفسك تلك المنزلة وهذا حقك، ولو شاركك حتى نصف وقتك في الحياة فكان زميلك في العمل أو في الدراسة الذي تمكث معه جل النهار، ولكن من فرض أن الذي يبدأ بالفرع حتما سيصل إلى الأصل؟ ليس صحيحًا، فقد تقتضي الحاجة في «العلاقة» وليس شرطًا أن تقتضيها في «الإنسان»، والذين يخلطون أيضًا في هذا الوجه يكتشفون بعد الفوت أنه غُمي عليهم، وأن من أدنوه من أنفسهم لم يكن يستحق هذا، وأنه أغراهم علاقاتهم به الظاهرة والمؤقتة.

وهذا يفسر لنا كم العلاقات (الاختيارية كالصحبة وما شابهها) التي فسدت بسبب تعرض المجتمع في الفترات الأخيرة إلى أحداث عظيمة تقع فيها الدماء وتفعل بها الفظائع فتجد الأطراف تتباين وتتنافر وكل يكتشف أن الآخر على النقيض منه، وجزء رئيس من المشكلة أنه لم

يفهم طبيعة هذه العلاقة وبناها على الفرع الظاهر منها، بدلًا من أن يبنيها على الأصل الباطن في نفس وتكوين كل إنسان.

وأصدق ما يُروى في هذا هو موقف عمر بن الخطاب من قاتل أخيه في معركة اليمامة، فقد أسلم الرجل بعدها ولقيه ابن الخطاب وهو أمير المؤمنين فقال له: والله إني لا أحبك حتى تحب الأرض الدم! فقال الرجل: يا أمير المؤمنين، أوَيمنعني هذا حقي؟ قال: لا. فقال: أيحل هذا جَلد ظهري؟ قال: لا. فقال الرجل: ما لي ولحبك، إنما يبكي على الحب النساء؛ فهنا أمير المؤمنين بينه وهذا الرجل علاقة؛ ألا وهي الحاكم والمحكوم، لكن الرجل يعرف جيدًا أنه لا يريد أن يتعداها، ولما اطمأن أن هذا لا يؤثر على علاقته التي شرعها الله انصرف عن طلبه ما وراء هذه العلاقة من الإنسان، وإن كان عمر.

والناس منذ زمن لا تكف أيضًا في الخلط بين الوجهين ذاتهما، فعندما تقدم على الزواج مثلًا قد تقدَّم «العلاقة» على «الإنسان» ذاته، حتى إذا حدث للعلاقة أي خلل أودت بالإنسان نفسه، ولا تلبث في غالب الأحوال أن تستمر أصلًا؛ لأنها مبنية على الفرع والأساس هنا أن تُبنى على الأصل.

ومهما أخفيت فإنه غير خافٍ أنني ما قصدت بكل هذا إلا العلاقات العاطفية تحديدًا - مع خطورة غيرها أيضًا - التي ما زالت تحط أقوامًا وترفع آخرين، وقلما أجد نماذجَ تستطيع أن تنتهي العلاقة بينهما في أي مرحلة - من أول الفشل في التقدم إلى فسخ الخطوبة إلى الطلاق بعد سنين — دون أن يمحو أحدهما أو كلاهما الإنسان نفسه من خريطة حياته، وما يكون مقصد الإنسان الذي يقدم أصلًا على العلاقة؟ أليس تعميق الصلة والاحتفاظ بمكانته عبر الزمن؟ أفيكون جزاؤه بعكس

مطلوبه؟ وقد تظل صفاته هي هي قائمة فيه، فأي ظلم يحيق به! وأي ضيم يساق له!

ولست أرى وجهًا لقطع العلاقة المبنية على أساس سليم بين الطرفين قطعًا بائنًا — وقد تتغير وتتلون وتحجم لا بأس وفقًا لمتغيرات ما – إلا أن تكون سبل تحقيقها في الشرع قد انعدمت لسبب أو آخر، وما زال أحدهما أو كلاهما على حاله من صاحبه. فهنا يكون قطع العلاقة لا تغيرًا وتبدلًا لما في القلوب، ولكن وقاية وحفظًا للنفس من التفلت حسرة على قدر الله باستحالة اللقاء، ومعونة على نسيان كل منهما ما في نفسه للآخر وتسلية لقلبه عن صاحبه.

مرة كنت جالسًا مع أحدهم فقلت له من أحب الناس إليك، فقال: أمي، فقلت له لم تبلغ شيئًا، ولو كانت كذلك لأثبت محبتك لها باسمها لا بعلاقتك بها، وقلت: أوما سمعت الصحابي عندما سأل سيدنا محمدًا (صلى الله عليه وسلم) من أحب الناس إليك، لم يقل: «زوجتي/العلاقة» وقال «عائشة/الإنسان».

وعندما سأله: ثم أي؟ قال «أبوها»، ليس هنا من باب تقديم «العلاقة» على «الإنسان» فهو يحب أبا بكر قبل أن يعرف عائشة، وليس لمجرد أنه حموه، ولكن من قبَل المبالغة في إكرام عائشة/الإنسان (رضي الله عنها) وإكرام منزلتها لديه، فنسب صدِّيقه إليها.

فها هو أعظم الناس قدم «الإنسان» على «العلاقة» في تعبيره عن حب أعز الناس له، فيا أيها الناس، إن لكم علينا حقًّا، ولنا عليكم حقًّا، ثابتًا طالما ثبتت نفوسكم التي عهدناها فيكم، لا يتبدل ولا يتغير مهما تبدلت العلاقات وتبددت.

ألف ميم نون

الخوف أمن والأمن خوف، خف اليوم ممن هو حقيق بالخوف تأمن منه في قابلك، وائمن اليوم ممن وجب عليك أن تخافه تخف في غدك.

تلك الخفقات التي تشعر فيها أن قلبك قد سقط من عل إلى درك مظلم، سيتبعها حتما سكون عميق ويقين بأنك لن تسقط مرة أخرى، تبسم .. أنت على الأرض.

ألف ميم نون

مفاتيح سور القرآن (ألم – ألر – ..) لا يعلمها إلا الله ، أما هذا المفتاح (أمن) فهو أحد مفاتيح هذه الحياة الذي طالما حار الإنسان في فهمه، مع أنه يمثل أحد ركائزه الأساسية، و بالرغم من أنه قد يكون أمرا معنويا للغاية، لكن الإنسان لا يستطيع العيش بدون نسب مُرضية له من هذا الأمن على اختلاف مصادره.

مشتقاتُ هذه الأحرفِ تمتد لتشمل قيما كثيرة في الحياة، فمن أول اسم الله «المؤمن»، إلى الصفة التي يعتقد بها الناس في أديانهم «الإيمان» ، إلى الهدف الأسمى الذي خلق الله البشرية من أجله «حمل الأمانة» ، إلى الوصف الذي أثبته الله على النعيم الأخروي « ما جمع الله لعبد من أمنين ولا خوفين ..»

إذن فالأمن هو شعور معنوي له عناصر داخلية أغلبها مستقاة من مصادر غيبية أو ميتافيزيقية من فكرة الإيمان بالقدر، والإيمان بأن هناك حياة أخرى ، والإيمان بأن أي أذى جزئي (بدني أو معنوي) للذات البشرية سيُعوض عنه الإنسانُ بشكل ما في حياة أخرى (حتى الشوكة يشاكها) ، وأن أي أذى كلي (الموت) سينقلها مباشرة إلى عالم آخر يتم التمتع فيه بالأمن الكامل ﴿أولئك لهم الأمن وهم مهتدون﴾، لأن فكرة الخلود نفسها هي «أمن» ضد الموت، ولذا فإن مشكلة غير المؤمنين دائما هو انعدام الأمن الداخلي الذي قد يؤدي بهم إلى الإسراف في أحد الجانبين ، الحرص التام على عدم تعريض الذات البشرية للخطر (التأمين على الحياة مثلا) ، أو التفريط التام في تعريض ذاتهم إلى الخطر

(الانتحار مثلا).
أما عناصر الأمن الخارجية فهي تتمثل في أشياء مادية ، إذا لم تتوفر يصاب الإنسان بنسب من الخوف حتى لو كان لديه رصيدٌ كاف من عناصر الأمن الداخلي ، وهو بلاء كأي بلاء مادي يصيب الإنسان (الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات) ، بل وينال من أعلى البشر الذين يتمتعون بالأمن الداخلي ﴿وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر﴾ ، وسماه الله خوفا بالمعنى الصريح مرتين في سورة الأحزاب (جاء الخوف / ذهب الخوف).
والعلاقة بين الأمنين الداخلي والخارجي أراها في الغالب عكسية في الحياة، فإذا قل الأمن الخارجي زاد الأمن الداخلي ، لأن الركون إلى أسباب الأمن الظاهرة أو الدنيوية إذا انقطعت يلجأ الإنسان إلى توثيق صلاته بأسباب الأمن الداخلي اليقيني والغيبي. وإذا زادت أسباب الأمن الخارجي فإن الإنسان يركن إليها قليلا على حساب اللواذ بأسباب الأمن الداخلي، هذا على مستوى الفرد ، فما الحاصل على مستوى الجماعة.
على مستوى الجماعة دائما ما تنسج لحظات انعدام الأمن الخارجي خيوط الانتقال من مرحلة إلى مرحلة أسوء أو أفضل حالا على حسب درجات الأمن الداخلي الذي تتمتع به هذه الجماعة ، فأوقات الحروب أو الفتوح أو الثورات الداخلية دائما ما تنعدم فيها أسباب الأمن الخارجية لدى الجماعة ، لكن في الوقت نفسه يقاس مدى نجاح النتائج المرتقبة من هذه المرحلة بعمق الأمن الداخلي الجمعي وقوة توجيهه في الهدف الذي من أجله تجتمع هذه الجماعة عليه.

أما فيما بعد مراحل الاستقرار فإن منحنيات الصعود والإبداع دائما ما ترتهن بمستويات عالية من الأمن الخارجي والداخلي على السواء (على مستوى الجماعة كما ذكرت)؛ فإذا كانت يد البناء لا تحكم رص اللبنات وهي مرتعشة ، فمن باب أولى يد الرسام لا تستطيع المسك بالفرشاة من الأساس إذا كانت أيضا مرتعشة .

لكن الأفراد غير التقليديين من القادة والعلماء والمبدعين دائما ما يتعاملون مع مساحة من الخوف الخارجي لأن في الغالب ما يقومون بإنتاجه يثير ردود الأفعال التي تكون تارة في صالح هذا الإنتاج وتارة ضده ، فلو كان شيئا عاديا لا يغير من واقع الناس لما لفت انتباه أحد من الأساس.

لذا فالقاعدة الأساسية في حياة الفرد أو الجماعة الطامحة المؤثرة أن تكون مستهدفًا لألوان من الخوف يعزز من استفزازية تحركهم نحو ما يصبون إليه ، وفرض رؤيتهم في الواقع كي يأمَنَ إليها من يلونهم من البشر البسطاء العاديين المؤيدين أو حتى التابعين.

تاريخيا نجدُ أن الجماعة المؤمنة كانت في محل خوف خارجي شبه دائم ، يلخص حالتها مثلا إبان فترة تأسيس الدولة الإسلامية (من أول الهجرة إلى فتح مكة) وصْفُ أحدِ الصحابة حالَهم في المدينة « كنا نبيت في السلاح ، ونصبح في السلاح »، أي أن جهوزيتهم للدفاع عن القيمة التي يؤسسونها في الأرض كانت عالية للغاية. وكل ما أنتجته هذه الفترة وكل ما عايشه ذلك المجتمع – والقائد الأعظم بين ظهرانيهم – كانت في حراسة السلاح ، ولو بالمعنى المعنوي ، أي الشعور بأن كل لحظة في حياتهم نذر ووقف لمشروعهم، والذي يجلي من اتضاحه أمامهم عدوُهم

المتربص بهم والذي لا يترك لهم مجالًا للأمن الخارجي.

على مستوى الأفراد المؤثرين فإنني لا أكاد أجد رجلا له ذكر بين الأمم إلا إذا كان في المقام الأول مات في سبيل ما يدعو إليه أو على الأقل في المقام الثاني أوذي وعذِّب أو سُجن في سبيل ذلك ، حتى إن الذين لم يصبهم شيءٌ من هذا يشك دائما في كيفية تعاطيهم مع مخالفيهم خاصة إذا كانوا من ذوي السلطة ، فدائما السائر على الخط المستقيم لا يعدم الوقوع في بعض الحفر التي على الخط ، أما غير الملتزم بذلك الخط فيستطيع بكل سهولة الالتفاف والتلوي مع كل عقبة تصادفه ، مما يبطئ من سرعة وصوله للهدف أو حتى يُضله الطريق تماما.

فعندما نجد أن ثلاثة خلفاء من أصل أربعة في عداد الشهداء ، ولو عددناهم ستة خلفاء بدخول عمر بن عبد العزيز وعبد الله بن الزبير يصبحون خمسة خلفاء شهداء. و عندما نجد أن أئمة الإسلام الأربعة لا يوجد فيهم من لم يُسجن أو يُمتحن – نتأكد من ذلك، من أول أحمد بن حنبل ومحنته الشهيرة، إلى الإمام أبي حنيفة الذي توفي في سجنه من التعذيب الذي طاله وقد جاوز السبعين، إلى محنة الإمام مالك الذي ضرب نحو مئة سوط ظل أثرها على جسده حتى توفي رضي الله عنه ، إلى الإمام الشافعي الذي وضع القيد في يده وكادت تضرب عنقه ، إلى العشرات من تلاميذهم ومن أهل العلم في هذا الباب الواسع والكثير منهم أعجب عندما يذكر أنه مات في محبسه ، ولا أعجب من أن نرى أعظم من أثروا في الفكر الإسلامي القديم كابن تيمية أو الحديث كسيد قطب يتوفى الأول في سجنه ويخرج الأخير من سجنه إلى المشنقة.

أما إذا خرجنا من باب العلماء والمفكرين فإن أبواب القادة والمجاهدين والدعاة والمصلحين مفتوحة على مصراعيها تسطر آلاف البشر من كل

الأشكال والألوان لا في حضارتنا فقط ، وإلى عصرنا الحالي لا يكاد الواحد منا يسمع عن رجل عظيم الشأن فيذهب لقراءة سيرته إلا ويجد له في أيام عمره سجنًا أو محنة تصقل من معدنه، وتميِّزُهُ بين الرجال ، حتى أن الرجل الذي تفاخر به أقوامنا الآن على مستوى السياسة بين سجنه وتوليه رئاسة وزراء تركيا أقل من خمس سنوات.

ومع كل هذه السير وتلك المسيرات، فإنني لا أدري كيف وصلت ثقافة «الأمن» إلى وضعها الحالي في مجتمعاتنا على مستوى الفرد المؤثر وعلى مستوى الجماعات الفاعلة ، هل بالفعل يشعر هؤلاء الأشخاص أن انعدام الأمن هو أمر غير مستغرب؟ ، أو بالأحرى لماذا يوجد حرص على وجود هذا الأمن والتضحية ببعض المكاسب الواجبة والمفروضة عليهم في الطريق؟ ، وهل هناك درجة من انعدام هذا الأمن «التضحية» يجب أن نصل إليها أولا حتى نُعطَى ما نطلبه ؟ ، لماذا لا يكون الاعتقال مثلا في زمننا هذا هو أمر متوقع في حياة كل فرد مؤثر؟ ، علامة مضيئة على الطريق ، وأن يكون العكس هو المستغرب، صحيح أننا لا يجب أن نتعامل معها على أنها من حق الظالم نفسه أن يعتقلنا كما يحلو له. لكن في الوقت نفسه، ليس من حقنا أن ندفع هذا الخوف بالركون إلى خطوات من شأنها أن تبطئ عجلات الهدف الذي نصبو لتحقيقه.

إن الطريقة الثورية في الاحتدام بنقاط الجهل والتخلف والفساد والخواء لتُعرف من حجم الخوف الذي يلاقيه كل فرد وكل جماعة على خطوط هذه النيران ، وإن كل ابتعاد – في وضع أمتنا الحالي – عن هذا الخط لا أخال إلا أنه يبطئ من النصر الوشيك.

إنني لا أنفي هنا الطبيعة البشرية التي تجعل كل إنسان يركن للأمن، فهذه فطرة كفطرة إشباع البطون من الجوع، فقد جمع الله تلك المنتين

متجاورتين ﴿أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف﴾؛ ولا أدعو هنا إلى أن يفر كل إنسان من الأمن ويلقي بنفسه في الخوف حتى يشعر أنه يؤدي رسالاته، بل العكس أحيانا صحيح، فالكثير ممن يدفعون ضريبة عدم الأمن يشعرون أنهم دفعوها في شيء لا قيمة له، فيصبح الأمر أشق عليهم من طعن الخناجر وحز الحبال على الرقاب.

إن اختيار المعارك الصحيحة التي علينا خوضها هي فقط من تشعرنا أن الأمن الذي نضحي به له عاقبة محمودة في الدنيا ولو بعد حين، وفي الآخرة بكل الأحايين، وإلا فإنه يعود على نفسه باللوم والتقريع أن سار على إثر الحماسة المفرطة وانتهى إلى اللاشيء، ومن خلفه أهل وأقربون خُوِّفوا معه ولم يعد عليهم من ذلك ولا بخفي حنين.

إنها قسمة صعبة، ألا نركن للأمن في موضع يتطلب النزول عنه، وألا ننزل عنه في موضع لا يتطلب أن تضحية به، أن نحمد الله عليه كنعمة عظمى، وأن نحتسب له كضريبة مفروضة، وإن ذلك لهو نفسه عدم الأمن حتى وإن كنا في الأمن نفسه.

قد كان في يناير

تلك أوراق عشرينية أخري، حدث في العشرينيات الأخيرة من يناير، ذلك الربيع الذي لم ننبته — رغم البرد — إلى أنه ينتمي للشتاء.

قد كان في يناير

غرفة ضيقة تكتظ بمئات الكتب المتراصة على أرفف انتشرت بطول جدرانها وضاقت بحملها حتى انتشر ما ناءت بحمله على الأرض والمكتب القديم وكل شيء من حولنا..

- هذا الكتاب يا صديقي يشرح فكرة التراكم الثوري بشكل عجيب.

أتناول الكتاب من يده وأشرع في قراءة العنوان بصوت مرتفع: «الذرة الاجتماعية... لماذا يزداد الأغنياء غنى والفقراء فقرًا» ممم، ما الفكرة العامة!

- كيفية قياس التأثير الاجتماعي على مجموعة من الأفراد حتى يصبحوا مجموعات أكبر وأكبر بشكل مطرد في مراحل متتالية.

- حسن، سأفكر في قراءته، إذا احتجت لذلك بعد ما يمر الغد.

أخذه الضحك وقال: وما الذي تتوقعه غدًا؟

- أحد شيئين.

- ما هما؟

ملت برأسي للوراء وانطلقت أقول: الأعداد التي قبلت الدعوة على الفيس بوك تقترب من المائة ألف، وحسب تعاملنا مع طريقة استجابة الشباب للدعوات على الفيس في الدعوات التي نقيمها –كما تعرف– في أي مناسبة فإن ٢٠ أو ١٠٪ هم من سيلبون الدعوة، إذن هناك ١٠ أو ٢٠ ألف شاب سيتجمعون ومعظمهم أعتقد سينطلق من مصطفى محمود، والدعوة هنا لمسيرة تتحرك وليست مظاهرة تقف،

ولذا فإن هناك أحد السيناريوهين: إما أن يستخدم معهم القوة المفرطة لكي يقنعوهم بأنها مظاهرة وليست مسيرة و التي ستستعر ولن تتوقف مع قطرة الدم الأولى، كما حدث في تون؛ وإما أن ينجحوا في السير في الشارع ولو نجحوا في تخطي ٥٠٠ متر فقط فلن يوقفهم أحد، لأن الناس تخشى الانضمام للكردون، لكنها لا تخشى الانضمام لمسيرة تسير في الشارع.

– لكنك حكيت لي عن مسيرات سارت أكثر من ٥٠٠ متر قبل ذلك ولم ينضم لها الناس فما الجديد؟

– الجديد أمران، الأول، أنها ليست مسيرة للإخوان المسلمين أو تيار بعينه تمنع الناس بشكل تلقائي من الانضمام إليها، وأن هناك تونس، الناس تعرف الآن أن هناك إمكانية لحدوث ثورة، وأن هناك بلدًا عربيًا وحاكمًا عربيًّا مخلدًا حديثًا عليه ثورة، الآن لدينا تونس.

– تمام يا صديقي، والأهم من ذلك أن الأمن لم يعجبه طوال السنوات الماضية مظاهرات الذين لهم دين وملة — يقصد الإخوان كتنظيم وجماعة لها رأس — فلينتظر وعده إذن من الذين لن يكون لهم لا دين ولا ملة..

وانفجر الضحك من كلينا.

بت هذه الليلة عند صديقي أيمن وأخذنا نتناقش حتى ساعة متأخرة، لم أشأ الذهاب إلى البيت توجسًا من أن أعتقل في هذه الليلة من الشارع أو من البيت، على احتمال أن حركة اعتقالات يمكنها أن تنشط الليلة بشكل عشوائي لإجهاض مظاهرات الغد.

......

٢٥ يناير – ١٢ ظهرا

كانت حركة المرور هادئة للغاية، أخذت أقلب الأفكار في رأسي وأنا ذاهب، أجلت مواعيدي لما بعد السابعة مساء، فتوقعاتي أن الأمر سيطول شيئًا ما، كنت موقنًا أن هذا اليوم سيكون علامة فارقة بقدر ما كان يوم ٦ أبريل علامة فارقة بالنسبة إلى ما قبله من احتجاجات ليس أكثر، وإذا كانت الحكومة ساعدتنا في ذلك اليوم بأن أصدرت التعليمات لجميع العاملين بالنزول لأعمالهم فأحدثت أثرًا سلبيًا وساعدت في نجاح الإضراب، فإنها تساعدنا الآن أيضًا عندما أعلنت أن اليوم عطلة.

نزلت عند الإسعاف أتفقد الأجواء قبل أن أتوجه إلى مصطفى محمود، وقفت على الجهة المقابلة لسلالم النائب العام، رأيت مائتين أو ثلاثمائة يتظاهرون في كردون محكم، وعلى الأعناق الدكتور البلتاجي وبعض الرموز السياسية المعروفة، أصابني المشهد بشيء من الإحباط، ولكن على كل حال ليس هذا هو المكان الرئيس ذكرني المشهد بكل المظاهرات التي شهدتها منذ ستة أعوام، حيث تبدأ وتنتهي دائمًا في أحد ثلاثة أماكن متقاربة، سلالم نقابة الصحفيين أو المحامين أو محكمة النقض. المظاهرات التي كسرت هذه السلالم كانت مظاهرات كفاية الأسبوعية، ما زلت أتذكرها جيدًا كل أربعاء، مرة في إمبابة، وأخرى في شبرا، تارة في الزيتون وأخرى في المطرية، كانت أقواها يوم عابدين حين كسرنا ثلاثة أطواق أمنية في مربع واحد، لقد وصلت لذروتها في المظاهرات التي خرجت يوم قرار الرئيس بترشيح نفسه لفترة رئاسية جديدة. وكان المشهد يومها مروعًا، وتوجت بمظاهرات يوم

الانتخابات الرئاسية نفسه، حيث جبنا ولأول مرة شوارع وسط البلد هاتفين «يسقط يسقط حسني مبارك»، وأغلقنا ثلاثة مداخل لميدان التحرير لمدة ساعة كاملة قبل أن نبدأ في المسيرة من باب اللوق إلى عابدين إلى العتبة حيث طوردنا هناك.

كل هذه الذكريات جعلتني أتخلى فورًا عن فكرة الانضمام للكردون الذي أمامي، أكملت طريقي للمهندسين، نزلت في أول شارع جامعة الدول العربية ورحت أسير في شارع موازٍ حتى أصل إلى مسجد مصطفى محمود في أمان، هاتفت أكثر من صديق قبل أن أصل. كانت المظاهرة قد بدأت، أخبرني أحدهم أن البراء أشرف كان أول من هتف ومعه فتح الباب، كانوا في حدود ٣٠٠ شاب تم تطويقهم سريعًا، لكن الآخرين الذين لم يذهبوا لأي مظاهرة قبل هذا اليوم لم يفعلوا مثلنا بالانضمام إلى الكردون بل أخذوا يهتفون من كل مكان حوله، فأصبح الكردون في وضع الحصار من الشباب، وانضمت إليهم المسيرة التي خرجت من ناهيا وعلى رأسها محمد عباس، هكذا نُقلت لي اللقطة الأولى قبل أن أُبهت باللقطة الثانية فور وصولي.

أكثر من ثلاثة آلاف شاب يسيرون في الشارع، الكل يبدو عليه الذهول، عدم التصديق، الكل يصرخ لا يهتف، ما إن رأيت أول شخص أعرفه حتى ارتميت في أحضانه وأخذنا نصيح كأننا كنا عالقين في البحر ورأينا شراعًا لتونا، وما إن جاوزت المسيرة ٥٠٠ متر حتى تحقق الحلم، وتضاعف العدد، الكل نطق ساعتها «عالتحرير عالتحرير»، اتخذنا القرار سريعًا ووقفنا نرشد خط السير إلى الدقي ثم التحرير. التقطت الهتاف العالق في رأسي وأخذت أهتف به «يسقط يسقط حسني مبارك»، وبدا الأمر أكثر وضوحًا عندما وصلنا إلى ميدان الدقي

لا نقل عن ربما ١٠ آلاف.

....

في شارع البطل أحمد عبدالعزيز كانت أول سجدة لي في الثورة، لم أتمالك نفسي أمام كل هذه الحشود التي تهتف خلفي: يسقط يسقط حسني مبارك، ذلك الهتاف الوحيد الذي كان يستهويني في هتافات ٢٠٠٥، عندما رفعت رأسي من السجود على الشريط الأخضر الصغير في منتصف الشارع وجدت العشرات من زملائي قد سجدوا مثلي، العشرات ممن لا يملكون أمام هذا المشهد إلا السجود حمدًا وفرحًا.
بعد أقل من ربع ساعة، كنا قد وصلنا إلى منتصف شارع التحرير، لحظتها رأت طلائع المسيرة سيارتَي أمن مركزي في محاولة لإنزال حمولتها من جنودها لقطع الطريق علينا في اتجاه التحرير، وإذا بالمسيرة التي كانت تسير الهوينى تجري مستعرة حتى تبلغ نقطة الالتحام قبل أن تتم عملية الإنزال وينظم الجنود صفوفهم، وبالفعل وصلنا قبلهم وبدأ المتظاهرون يفرضون الطوق الأمني بدلًا عنهم. نعم لأول مرة.. طوق أمني لحماية الجنود والضابط الذين معهم من أن تدهسهم الألوف الغاضبة، كان عددهم قليلًا وعددنا يفوقهم بلا أدنى مقارنة، ساعتها رأيت نظرة الذهول في عين الضابط الذي معهم، ولعلها نظرة الانهيار في آن واحد، كان علينا أن نوجه بقية المسيرة إلى الاستمرار بدلًا من التجمهر حول هذا العدد الضئيل. فالمعركة ما زالت أمامنا، وأي خلخلة في جسد المسيرة قد تحدث شرخًا يفرقنا.

عند ميدان طه حسين، وفي مدخل الجسر الذي يؤدي إلى كوبري قصر النيل وجدنا أول درع منظمة من ثلاثة صفوف للأمن، أشهروا عصيهم بمجرد رؤيتنا، كانت الطليعة قد استبقت وسط المسيرة بسبب الاحتكاك الطفيف الذي سبق، لكنها لم تنتظر الباقين كي تبدأ في كسر الطوق؛ وكان لا بد من صفوف أمامية تمتص الضربة الأولى، فمجموعة تحدث ثغرة يتم من خلالها الضغط من كافة المسيرة بالتدافع فيصير الطوق كالمخروط يتسع ويتسع إلى أن يتلاشى، ومتهورون يقدمون على أقوى نقطة تحصينية ويناوشون رجال الأمن فيُضربون، فيهرع إليهم زملاؤهم إلى نقاط احتدامهم ليقضوا عليها.

تلقيت الضربة الأولى، هوى بعصاه الغليظة على ذراعي، وكاد يهوي آخر على رأسي لولا خفة حركتي، أما الثالث، فرفع العصا لكنه وجد نفسه غارقاً بطوفان المتظاهرين من حوله فآثر أن يرفع يده الأخرى مستسلما. لم أشعر بيدي لفترة بعدها كأن بها تخديرًا موضعيًا، ولم نفرغ من هذا الطوق حتى وجدنا آخر عند بداية كوبري قصر النيل كان في حجم الأول بالضبط، لكنه لم يكن في منعته، ففور أن تقاربت الصفوف أمام الطوق بشكل متساوٍ. ضغط الجميع في حركة واحدة فانكسر الطوق فورًا كأوراق شجر تلعب بها رياح خريفية، لمحت أحدهم يضرب مستيئسًا يؤدي ما عليه رغم كسرنا الطوق، أوشك أن يهوي على ذراعي الأخرى، وقبل أن يفعلها وجدت نفسي أصيح فيه بكل قوة: أمجنون أنت؟! انظر حولك؛ وإذا بقسمات وجهه تتحول من الصرامة إلى العجز ويتحول بعصاه لشخص آخر يثبتها فوق رأسه هنيهة ثم يتحول إلى ثالث دون أن يأخذ قراراً بأن تهوي.

على كوبري قصر النيل، لأول مرة أشعر أن هواءه منعش، أن نسماته رائعة، النيل والسماء المفتوحة وآلاف البشر فوق الكوبري والهتاف يشق عباب الماء وعنان السما.. والقلوب يتسارع نبضها كلما اقتربت من ميدان التحرير، كمن يتسارع قلبه للقاء عين حبيبته، والعصر قد أُذِّن لها في الطريق وصحنا: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فلا يصلين العصر إلا في ميدان التحرير.

لم نجد أي قوة تحاول أن تصطف أمامنا بعد الكوبري... في مشهد مهيب دخلنا الميدان مكبرين، قد اتصلت بأكثر من صديق قبلها فعلمت أن مسيرة سبقتنا إليه، وأن اثنتين في طريقهما إلينا، كنا ثاني مسيرة تصل إلى الميدان. وسط حالة عشوائية من التكبير دخلنا، كان نصفه من جهة عبدالمنعم رياض به تجمعات المسيرة الأولى، والنصف الآخر به آلاف من قوات الأمن المركزي وعشرات من مدرعاته؛ وعلى الفور، بدأت الجماعات تقام لصلاة العصر كرسالة بأننا لا نهتم بهذا العدد الضخم الذي أمامنا وأننا سنعتصم بهذا المكان.

في الركعة الثانية، هالني سيل من الماء وقع على رأسي، وانطلقت إثره عشرات الصيحات، أكملت صلاتي ودعوت أن يسوء الأمر أكثر حتى لا يكون هناك خط رجعة... كان دعائي صادقًا، دعاء من اقتبس قبل نزوله الشارع قول سيد قطب: النصر ينبت حيث يهراق الدمُ.

في التسليمة الثانية، لمحت بطرف عيني فتى يهوي من على عربة الإطفاء هو ومن كان يدير مدفع الماء نحونا، وفور السقوط احتشد المئات حول العربة يضربون بأيديهم على صاجها، فأخذ سائقها يحاول الهرب بكل سبيل، التف الناس حول الشاب الذي سقط وتوجهت مثلهم نحوه نقبل رأسه فإذا به صديقي أسامة، ذلك الشاب الشهم الجسور، المبدع

المبادر، المرتبط اسمه في ذهني بفريق بداية، وفريق إنسان، والتسويق الإلكتروني، وموقفه بالأمس من إعلانه عدم المشاركة اليوم؛ لكن الذي حدث أن كل من كان عنده ذرة من نشاط نزل معنا إلى الشارع بعد أول ساعة من وصول أخبار المظاهرات إليه، بل وسبق إلينا في دفع الأذى والتصدي للخطر.

بالفعل... بدأ الأسوأ فور انتهاء «عرض الماء المندفع»، وبعد أن أفشلنا كل محاولات المدرعات من عبور الميدان بين جانبيه، حيث كان الشباب يجري نحوها بسرعة أكبر من سرعتها فور أن يلمح إحداها تدخل من أي طرف فيه، فيرتبك السائق ولا يدري أين يذهب، بعد هذه الفقرة بدأ على الفور عرض «القنابل الخانقة».

كنا نظن أن اسمها «القنابل المسيلة للدموع» لكن اكتشفنا أن هذا عنوان لتلطيف أثرها وتجميل اسمها، فلم يكن فعلها الأساسي أن تجعلك تدمع؛ ولكن أن تجعل صدرك ضيقًا حرجًا كأنما يصعد في السماء، أن تطبق على أنفاسك فتنتفخ أوداجك وتوشك على الهلاك كأنما تغرق.

تلقينا الضربة الأولى، كانت من جهة الجامعة الأمريكية وتقهقر الحشد إلى منتصف الميدان وكان أثرها بالغًا إذ للمرة الأولى – على حد علمي – يواجه المتظاهرون في مصر هذه القنابل، لكن الإرشادات التي كانت على صفحة «خالد سعيد» أحدثت أثرًا بعيدًا في وعي المتظاهرين، وبدأ الذي يعرف يبلغ من لا يعرف والكل يبلغ بصوت عال: لا تفرك في عينك... استخدم الخل إن وجد... لا تغسلها بالماء... لحظات من امتصاص الصدمة لم تتجاوز العشر دقائق حتى وجدنا أنفسنا قادرين مرة أخرى على التنفس، بل وعلى الهجوم بكل قوتنا تجاه مصدر الضرب، ومرة أخرى نُرشق بدفعة جديدة من القنابل. لكن هذه المرة، كان

البعض قد اتشح بقطع من القماش أو كمامات وبدأ يركل القنابل في أوج انبعاث الدخان منها تجاه الجانب الآخر من صفوف الأمن.

بعد أول ركلة، اندفع الشباب بالعشرات يردون القنابل المدخنة، بل الأعجب أن الجسارة أخذت بعضهم أن يردها بيده، يهوي على الأرض ليمسكها بيده قبل أن يعرف إذا كانت ستحرق يده أم لا، لكنه يفعل، وفي دقائق تحول المشهد تمامًا، وأصبحت دفة الدخان عليهم كما هي علينا وتبعثرت صفوف الأمن المركزي يمنة ويسرة. ولم تكن لديهم مساحات المراوغة والابتعاد عن مصادر الدخان كما كانت لدينا، ووسط هذه الحالة بدأ ضرب القنابل بشكل عشوائي على جنبات متفرقة من الميدان، لكنهم لم يلبثوا أن يكتشفوا أن الجميع قد أصابهم الاختناق بمن فيهم الضباط أنفسهم مما جعل من توقف الضرب أمرًا لا مفر منه، خاصة في أجواء وصول مسيرة قصر العيني التي كان عليها أن تواجه معركتها مع الأمن قرب مجلس الشعب قبل أن تستطيع كسر الطوق الأمني والوصول إلى التحرير، حيث بدا لنا أن الأعداد وصلت ٢٠٠ ألف على أقل تقدير.

كان الالتحام قرب المغرب... الغاز منتشر في المكان... الأعين مختنقة بالدموع... والأصوات قد بحت من الهتاف... والحشود تتوافد... الأمن يرتب صفوفه على مدخلين أو ثلاثة من الميدان... والمتظاهرون يتجمعون في بؤر ويحافظون على صوت الميدان عاليًا بالهتاف... الشمس آذنت على المغيب... ولأول مرة أنظر إليها وأقول اذهبي غير مأسوف على يومي، فغدًا لن تشرقي بالوجه الذي غربت به.

....

أخيرا حلت جيوش الظلام على ميدان التحرير بغير الوجه التي تحل

به كل يوم منذ أن وُجد هذا المكان، حلت لترى في تلك الأعين التي تتحسس ما حولها على أضواء الأعمدة والمصابيح، بل وتتحسس روحها قبل أي شيء — ترى فيها نوراً لم يُضأ قط قبل، ترى أصوات أنفاسهم صاخبة تقطع سكون الليل برغم تلاشي أبواق المركبات المعتادة في كل ليلة سابقة، ترى على أبواب الميدان السبعة سوادًا بعد سواد من الجنود متربص بتلك الحشود المتلاصقة على أسفلته تهتف حينًا والمتحلقة على حشائشه تغني حيناً والمتفارطة على أرصفته تثرثر حينًا.

شعرنا بعد استقرار الليل بالجوع، ولتونا نتذكر أن أحدنا لم يلتقم لقمة منذ الصباح، وبعضنا نزل من بيته دون أن يفطر، بدأ الناس يوفدون منهم أفرادًا يبتاعون لهم شيئًا من الطعام يقتاتون به على المرابطة طيلة الليل كما قررنا. شيئًا فشيئًا استقر الوضع أكثر، فخرج الناس جماعات يتعشون ويذهبون للحمامات القريبة من الميدان ويعودون، طمأن الحشود أكثر أن المئات ممن عرفوا بأحداث اليوم ينضمون زرافات ووحداناً إلى الميدان كل دقيقة، وأن الجحافل المتربصة بنا على مداخل الميدان بدأت تتعب وأخذ الجنود سماحًا من ضباطهم بالجلوس مكانهم من تعب الوقوف والجري والضرب طوال اليوم.

كان معظم الجرحى من الاشتباكات التي دارت عند مجلس الشعب حيث حاولنا أن نوسّع مدى التظاهر إلى بوابات المجلس، فكرنا أيضًا أن نختصر الثورة في يوم وأن نقوم بتنفيذ المشهد الأخير في فصل الثورة التونسية، أن نوجه كل كتلة الحشود إلى مخرج الجامعة الأمريكية قاصدين الاعتصام أمام مبنى وزارة الداخلية. بالطبع، هوجمنا بشدة، وفوق هذا أن الأغلبية كانت تعرف أهمية تمركزنا في الميدان.

خرجت مع زملائي بالفعل لتناول وجبة سريعة، شاهدنا لأول مرة القنوات الإخبارية في المحال وهي تتناقل صور ما حدث اليوم، ما رأيناه من تفاعلها زاد من اقتناعنا بأن ليلتنا لن تمر بسلام، انتهينا وعُدنا سريعًا إلى الميدان. بدأ المتظاهرون يوزعون أنفسهم على الأماكن التي تتركز فيها قوات الأمن وخاصة عند مدخلي الجامعة الأمريكية ومجلس الشعب، دقائق أخرى وانطلقت أول إذاعة في الميدان، أمسك أحدهم بمكبر الصوت وقال: بسم الله نبدأ إذاعة الميدان، هلل الجميع وصفق، وبدأت الكلمات النارية من كبار السياسيين ومحترفي المظاهرات طوال الأعوام الماضية.

كانت الإذاعة خطوة تحول في وجودنا بالميدان، إذ يستمع الناس لأول مرة منذ بداية اليوم إلى صوت واحد يوجه ويقرر ويحذر وينذر، كانت الخطوة التالية هي خيمة رمزية نصبت على طرف من أطراف الحديقة الدائرية الواسعة بالميدان كعلامة على أننا باقون هنا. وكانت الخيمة مليئة بالمعدات الطبية وبالكمامات والخل وبعض المطهرات، أما الخطوة الثالثة، فكانت الأغرب في تلك الليلة حيث فاجأتنا ثلاث مسيرات على الأقل تأتي إلينا كل واحدة بمئات المتظاهرين من جهة قصر النيل، وكنا نُبهت ونحن واقفون في هذه الساعة من الليل ونجد ألفين أو ثلاث بمسيرة ولافتتات يدخلون الميدان في هذا الوقت وينضمون إلينا.

بمرور الوقت كنا ندرك أن أمرًا جللًا سيحدث بعد منتصف الليل عندما يهدأ الناس، حتى الاتصالات التي كانت تأتينا من خارج الميدان كانت تنذرنا بهجوم شرس بعد الثانية عشرة، لكن أجواءنا وروحنا في الميدان كانت في واد آخر، فالعشرات بل المئات من أصدقائنا الذين لا نقابلهم إلا في مناسبات متقطعة نتعثر في أحدهم كل دقيقة، تقريبًا كل الذين

أعتز بمعرفتهم قابلتهم في تلك الليلة، كانت قدماي متعبتين للغاية، ومع ذلك لم أستطع الجلوس، كنت دائم الحركة حول الميدان أسلم على من أعرفهم، وأستغل تلك اللحظات التاريخية التي لا أعرف إلام تنتهي بنا، قادني سمعي إلى أغنيات الشيخ إمام من إحدى المجموعات المتحلقة، انطلقت بلحن مختلف ترن في أذني... زقوا الترباس.. هِربوا الحراس.. دخلوا الخواجات.. شفطوا اللبنات.. والبقرة تنادي.. وتقول يا ولادي.. وولاد الشوم... رايحين ف النوم.. البقرة انقهرت.. فِ القهر انصهرت... وقعت في البير.. سألوا النواطير:.. طب وقعت ليه..؟ وقعت م الخوف.. والخوف يجي ليه..؟ من عدم الشوف.. وقعت م الجوع وم الراحة.. البقرة السمرا النطاحة.. ناحت مواويل النواحة.. على حاحة و على بقرة حاحا..

قفز إلى ذهني فجأة شعارًا كان يغني فور انتهاء تلك الكلمات فرحت أستعديه على لساني وانطلقت بصوتي عاليًا في وسط المجموعة، وبمجرد أن بدأته صاح الجميع به معي كمن تذكروا ذكرى جميلة كنا نرددها منذ سنوات ولم نتوقع حدوثها يومًا: السكة مش طويلة.. فاضل على حسني زقة.. وهنخلص منه في ليلة.. لو كلنا قلنا لأه.. لأه لأه..

الهدوء الحذر بدأ يزداد بالفعل عند الثانية عشرة صباحاً وبدأ الجميع يستعد ويلبس الكمامات، لكن هذا لم يمنع عدداً لا بأس به من أن يغط في النوم غير مبال، وأعداد أخرى كانت تقف وجهاً لوجه أمام صفوف الأمن المركزي التي نهضت من جديد في صفوف متتابعة. مرت ثلاثون دقيقة من الحركة المتبادلة والمتواصلة، وبدأت الإذاعة تعلن النفير فور تحركات كثيفة للأمن، وفجأة بين الثانية عشرة والنصف والواحدة انطلقت قنابل الدخان مرة ثانية، ليستيقظ البعض فيجد قنبلة في

حضنه، لكنها لم تكن ككل المرات التي سبقتها طوال اليوم.

بعد أول طلقة قنبلة نظرت إلى السماء فإذا بسبع قنابل على الأقل تحلق استعدادًا للسقوط. ولم أكد أضع الكمامة على وجهي وأجري إلى منتصف الميدان حتى أصبح صوت القنابل كطلقات مدفع رشاش وأصبحت السماء لا تُرى من كثرة الدخان، وانطلق الضرب من ثلاث جبهات (عمر مكرم – مجلس الشعب – طلعت حرب). وفي دقائق معدودة، تم إطلاق ما لا يقل عن ستين قنبلة دخانية، أمام هذا المشهد انسحب الجميع إلى طرف الميدان الغربي عند المتحف الذي لم يكن على أبوابه أي عربات مدرعة يمكن أن تنطلق منها قنابل الدخان كما هو عند مداخل الميدان الشرقية لكن بمجرد اندفاعنا نحو مدخلَي شارع شامبليون وعبدالمنعم رياض حتى دهمنا ما هو أسوأ.

لم يكن هناك سوى صف واحد من الجنود، لكن بين كل جنديين يوجد ثالث معه سلاح يصوبه نحونا وإذا بهم فجأة يلمس كل واحد منهم ركبته اليمنى بالأسفلت ويطلق ما في سلاحه، وبدأنا نسمع طلقًا ناريًا لم نسمعه طوال اليوم، هُرعنا نحتمي بكل ما هو قائم في الميدان حتى انحشر البعض في ممرات ومداخل المترو (علمنا لاحقًا أن القنابل لاحقتهم وتم إطلاقها عليهم تحت الأرض)، وبدأنا نكتشف أن ضربًا حيًا للنيران قد حدث، مع مشاهدتنا الدماء تسيل من زملائنا. كانت النيران على مستوى منخفض حتى تكون الإصابات – غير مميتة – في الساق، لكن الذي كان يصاب ولو برصاص مطاطي كان ينطرح أرضًا فتصيبه الرصاصة التالية مباشرة على المستوى المنخفض فيخر صريعًا.

علا الصياح في الميدان وتم الضغط بقوة كبيرة على مدخل شارع شامبليون، ولمسنا بالفعل أن الجنود أخذوا يحدثون ثغرات ضيقة كي نمر

بشكل متقطع في مجموعات صغيرة التفت عن يميني إلى الميدان قبل أن أقرر الخروج. وجدت الوضع لا يحتمل أي إبطاء، التفت عن يساري فوجدت أحدهم يصوب سلاحًا ويهم بالإطلاق عليَّ، وآخر تغرق قدمه في الدماء قفزت سريعًا إلى الدامية قدمه وساعدته في الاتكاء والسير إلى خارج الميدان، وإذ ما خرجت حمله عني أربعة شباب أقدر مني وهرولوا به، نظرت خلفي لعلّي أسعف أحدًا آخر، وجدت صديقًا يحمل شابًا بين ذراعيه. حاولت مساعدته فرفض وتحامل كي لا يتألم الشاب من سوء وضعية الحمل بين أكثر من شخص، علمت لاحقًا من صديقي أن الشاب استشهد بعدها بدقائق بين ذراعيه.

لم نلبث أن وجدنا أنفسنا خارج مرمى النيران حتى انطلقت حناجرنا مرة أخرى تدوي في الشارع... يسقط يسقط حسني مبارك.. الشعب يريد إسقاط النظام.. كانت هذه المرة مفعمة بالدماء.. مخنوقة بالدمع.. تشق سكون الليل وتطاول بنايات وسط البلد الرابضة منذ احتلال الإنجليز، وبدأت فلول المتظاهرين تسير كالسيل الهادر في الشوارع والميادين الرئيسة وتنادت الصيحات تشير إلى ميدان رمسيس، وبدأ الأمل يشتعل في أن نوقظ الثورة أكثر بتحركنا مرة أخرى في الشوارع.

شاهدنا في الشوارع ما كان غائبًا عنا كل هذه الساعات في الميدان، عشرات من الجنود يقفون على كل ناصية وفي كل ميدان، أخذنا نتلوى في الطرقات حتى وصلنا إلى شارع رمسيس. شاهدنا حشودًا كثيفة عند الميدان فقررنا أن ننطلق إلى أحمد حلمي، ساعتها بدأنا نفترق مجموعتين ولا أدري أين ذهبت الأخرى ساعتها، لكن مجموعتنا واصلت إلى أن دخلت نفق أحمد حلمي، وقبل أن تخرج كان بانتظارها هراوات وعصي وصواعق كهربائية وقنابل أيضًا ففر الجميع بشكل هستيري،

ولم تكن هناك حجارة في المكان للرد على الهجوم. وفجأة بدأ الأهالي والشباب العاديون الذين يشاهدون الموقف من أعلى النفق في خلع رخام النفق المتآكل وإلقائه إلينا على الرصيف، وفي دقائق أصبح في يد كل متظاهر حجر وحجران، فكررنا بشكل هستيري أيضًا الرد عليهم، ففروا أمامنا حتى آخر النفق، لكننا وجدنا طلائعنا تفر مرة ثانية ولكن هذه المرة ليس أمام الجنود، ولكن أمام السيارات المصفحة التي انطلقت كالثيران الهائجة صوب المتظاهرين في مشهد لم نره من قبل إلا في تقارير نشرات الأخبار من الضفة الغربية، لكنها فور أن أصبحت خلفنا أخذنا نتكالب عليها من كل جانب وأخذنا نرجمها ونقصفها بقوة قبل أن تقرر الفرار بعد أن أصابت بعضاً من الشباب.

في لحظات، التقطنا أنفاسنا قبل أن نكتشف أن حشودًا تتجمع من الثلاث جهات الرئيسة حولنا، ساعتها قررت مجموعة كبيرة أن تدخل الحواري الضيقة بدلًا من الشوارع التي أصبحنا فيها هدفًا سهلًا.

وبدت الحواري نقطة تحول أخرى في هذه الليلة، فالمجموعات التي دخلت الحواري الضيقة، كل منها لا تزيد على خمسة إلى عشرة آلاف متظاهر يقودهم شباب من المناطق التي يسيرون فيها كي يوجهوا سيرهم، دخلت مع مجموعة منهم في السبتية، وكنت أتواصل مع مجموعة أخرى اجتازت النفق وتوجهت إلى روض الفرج.

كان المشهد عجيبًا، حارة هادئة مطمئنة، لا تزيد المسافة بين البيوت المتقابلة فيها على مترين ونصف المتر، وإذ فجأة يتدفق فيها سيلٌ هادرٌ بصوت مجلل، فتجد الناس يخرجون من حجراتهم وشرفاتهم في الثانية بعد منتصف الليل يفركون أعينهم هل هم في حلم أم علم، بعضهم كان واضحًا عليه أثر النوم ولا يصدق فعلًا، وبعضهم كان ما زال يشاهد

التلفاز فينظر بعين إلى الحارة وبعينه الأخرى إلى النشرة التي أمامه ويصدق خبرَه عيانُه.

أحسست ساعتها أن الآلاف الذين يشاهدوننا من شرفاتهم الآن أيقنوا أن الثورة قامت بالفعل في مصر، وأن المئات منهم سيعمون الشوارع غدًا بالمظاهرات، لكن الذي لم أتوقعه أن العشرات منهم بالفعل نزل من بيته وانضم فورًا للمتظاهرين وأصبح كل ألف يدخلون حارة يخرجون منها بعشرات أُخَر.

وصلنا إلى وكالة البلح، ومنها بدأنا نسير في شوارع أوسع، وبدأ المتظاهرون وأهل الحي يستقبلوننا بتقطيع كل صور ولافتات أعضاء الحزب الوطني من على بيوتهم أو محالهم، وفورًا تحول الأمر إلى تقليد، فلا نمر من أمام أي صورة لأي عضو أو مرشح وطني إلا ونمزقها أولًا فنصفق ونهلل ثم نكمل المسير.

نال منا التعب بعد ساعتين من السير وقفنا نلتقط أنفاسنا قليلًا في أحد الشوارع التي لا أنسى فيها ذلك الفران الذي أخذ يخرج صيجانًا كاملة من مخبوزاته ويوزعها بنفسه على الشباب إذ ما رآهم منهكين من المظاهرات طوال اليوم.

لم نكمل خمس دقائق حتى وصلتنا حشود أمنية، كنت في غاية الاندهاش من قدرتهم على الوصول السريع في وسط الأحياء، لكن ولم لا والمخبرين منتشرون في الشوارع بل وربما يسيرون معنا خطوة بخطوة؟! توقعت أن ينزلوا من سياراتهم ليواجهونا ونواجهم، لكن الاستراتيجية تغيرت، ففور أن نزل أول جندي منهم أطلق مباشرة قنابل الدخان، بل ودخلوا وراءنا الحواري بقنابل دخانهم حتى علا صراخ الناس في البيوت من حالات الاختناق.. حمدت الله سرًّا أنهم يستعدون الناس أكثر، حتى

الذين في بيوتهم.
أخذنا نهرول مرة أخرى في الحواري، وصلنا إلى كورنيش شبرا أكمل بعضنا إلى إمبابة.. تركنا الكورنيش ودخلنا ثانية إلى الحواري في شبرا بدا أن الفجر نزع وئيد، وأن أقدامنا لم تعد تطيق حملنا، لكن من كان يصدقها منا فيُبطئ أو يرتاح، كان يُلتهم من المخبرين الذين يقبضون على فلولنا من الخلف، فلا نجد بدًّا من أن نحافظ على حركتنا وسرعتنا في الوقت نفسه، ولا يحدوننا سوى أن يشهد علينا الفجر ثوارًا في شوارع مصر.

.....

ساعة أخرى ويبزغ فجر السادس والعشرين من يناير، ساعة أخرى ويولد يوم تال تُشكل خطواتنا المجهدة ملامحه بقدر ما تطأ من الطرقات والأزقة، ومع هذه الساعة بدأت قوات الأمن المركزي في الاختفاء، توقعنا أن عليهم فعل ذلك ليستعدوا بتشكيل مواقعهم صباح الغد، ظننا أن بإمكاننا التقاط أنفاسنا قليلًا والمكوث في مكان ما حتى الفجر، لكن «أمنًا» من نوع آخر كان في انتظارنا.
هم كائنات لا تبدأ عملها إلا في هذا الوقت من الليل، قبيل الفجر يبدؤون في الانتشار، هذه الليلة لن يطرقوا باب أحد، فقد تجاوزنا الأبواب بأنفسنا.. أحد أدلائنا أثناء سير بطيء في شبرا أشار وصرخ: مخبر أمن دولة، لم نتهيب كثيرًا، فمهام هؤلاء الخطف والتعذيب وليس المواجهة. لم نكد نقطع شارعًا وندخل في آخر حتى وجدنا العشرات منهم خلفنا يتطاير شررهم حجارة وزجاجات فارغة، لم نكن نقوى على الهجوم بالرغم من أننا أضعافهم. كانت الطرقات ضيقة وخط المواجهة سيكون محدودًا، والتعب قد بلغ منا فأصبحنا فريسة سهلة الجرح أو

الاعتقال. فررنا أمامهم فرار القطعان أمام الذئاب، وجدت نفسي ملتجئًا إلى أن أرفع سترتي لأغطي بها رأسي وأنحني تحت وابل الحجارة والزجاج ولا أرى سوى عشرات الأقدام حولي تسير بقوة الدفع.
بأعجوبة ابتعدنا عن ملاحقاتهم، أو لعل مهمتهم كانت مطاردتنا خارج منطقة معينة فقط، وصلنا حتى دوران شبرا، وقررنا أن نكمل آخر نصف ساعة في شارع شبرا نفسه حيث كان عددنا ساعتها لا يتجاوز ٣٠٠ شاب. كان من بينهم على الأقل عشرون فتاة، لا أستطيع القول، إنني سأرى مثلهن مرة أخرى في حياتي، فمنهن من أراها معنا من أول خطوة في شارع جامعة الدول العربية معنا قبل ١٤ ساعة.
خمس دقائق على أذان الفجر، متبعثرين على أحد الأرصفة، يوزع أحدهم علينا حبات من اليوسفي ابتاعها من عربة فاكهة مبكرة إلى سوق ما، تقاسمنا فصوص إحداها. وقبل أن ننتهي كان الأذان يرتفع، أغمضت عيني وحمدت الله حمدًا كثيرًا.. الله أكبر الله أكبر.. كان لأذان هذا اليوم صدى فريد لا أنساه.
صلينا في أحد الأزقة بجوار المسجد حتى لا ندخل جميعنا فيسهل تعقبنا ولا نخرج إلا فرادى موقوفين، دعا شاب ديّن في الصلاة حتى أبكانا فرغنا من الصلاة وبدت المجموعة أقل لا تتجاوز المائة، نظرت فيمن أعرفهم فملت إليهم وقلت: من رأيي أن ننصرف إلى بيوتنا، نحن الآن صيد سهل في الصباح لأي فرقة شرطة صغيرة، ولن يلتحم بنا أحد قبل ثلاث ساعات أو أربع، فلا معنى لبقائنا في الشوارع، وحتى لو صمدنا هذه الساعات لن ينضم إلينا العدد الذي نفكر به. لم أكن مقتنعًا أن اليوم الثاني في الثورة قد بدأ، كنت أراهن على يوم الجمعة.. الجمعة هي اليوم الثاني للثورة.

لم نشأ أن نفت في عضد من قرروا استكمال المسير انسحبنا في هدوء، أوقفنا أجرة وانطلقنا بها إلى مدينة نصر، كان علينا أن نواجه موقفًا له وجه صعوبة مختلف، السائق الذي أخذ يسب في الذين خرجوا مظاهرات بالأمس، وفي الشعب الجبان الذي لم يخرج معهم، نعم يسب الاثنين معًا! أغلقت عيني وتركت الحوار في بقية العربة دائرً .. نضال من نوعِ آخر لا أطيق الصبر عليه طويلاً.

دخلت البيت وشروق الشمس، استقبلني يُقّاظ الفجر في البيت بالتهليل، أخذت أوجز في الحكي حتى لا أقع أمامهم من الجهد، تناولت لقيمات وأنا أفتح حاسوبي وأكتب: ١٦ ساعة من الثورة.. سلمنا شوارع مصر ساخنة.. سنكمل اليوم..

أخبرني أخي قبل أن أنام بأن جميع من يعرفهم في كليته سيذهبون اليوم إلى التحرير بعد الامتحان، توقعت ساعتها أن مظاهرات ستخرج من الجامعات إلى هناك أصابتني بعض الطمأنينة ورحت في نوم عميق.

قبيل الظهر أفقت من سباتي على الأصوات التي لم تنقطع طوال نومي: الشعب يريد إسقاط النظام.. تحسست الفراش وصلبت جسدي لأثنيه بعد خطوات على الحاسوب أتابع ما يجري وأنا أفرك عينيَّ من أثر النوم: قوات الأمن تسيطر على التحرير ومداخله وتعتقل العشرات ممن يحاول التجمهر. اتصلت بأخي فقال إنه في طريقه إلى التحرير هو وخمسة من زملائه، نصحته بالعودة إلى عباس العقاد حيث التجمع أسهل وأنني سأوافيه هناك، لم يعترض وانتهت المكالمة.

مع أذان الظهر وصلتني رسالة منه: «إحنا اتمسكنا قبل التحرير» .. حاولت الاتصال به لكنه يغلق..، أرسلت له: «عددكم كام» .. رد: «٥١».. «إلى أين تذهبون الآن».. كان الهاتف قد أغلق تمامًا..

أقيمت الصلاة.. دخلت إلى والدتي في المطبخ مصفر الوجه، أخي..
أجابت عني: أعتقل!
– أظنه توقيفًا بسيطًا، هاتفه أغلق الآن.
تماسكت: المشكلة فقط في امتحانه بعد الغد، نصحناه ألا يذهب قبل انتهاء الامتحانات.. إنا لله وإنا إليه راجعون.
لم يكن بوسعي أن أنزل من البيت هذا اليوم، كان عليَّ أن أبقى بجوار والدي وأتابع المحامين والإعلاميين والذين تم عليهم القبض اليوم، أين يذهبون ومتى يخرجون. كان عامل الوقت يساور والداي، فلو تأخر يومًا لربما ضاع منه الامتحان، لم يكن يشغلني هذا بقدر ما يشغلني سوء المعاملة أو التعذيب.
ظللت أتابع الأخبار طوال اليوم، هللت مع اتصال من صديق يخبرني أن هناك عربة أمن مركز اليوم قد اشتعلت فيها النيران، كان مشهدًا غير متخيل بالنسبة إليَّ، وقلت لعلها مبالغة، لكن النجاح في تسجيل اليوم ك»ثاني أيام الثورة» كان هو الأهم بالنسبة إليَّ.
في المساء، قابلت اثنين من أصدقائي وقررنا إنشاء مجموعة تتابع خط الثورة في مدينة نصر وتبلغ الثوار بأماكن وتحركات المظاهرات، وأخذنا نخطط لمسيرات تنشيطية في الغد استعدادًا لمظاهرات الجمعة، اجتهدنا أيضًا وحددنا خمسة مساجد تنطلق منها مظاهرات الجمعة في مدينة نصر قبل أن يُعلن عن ذلك في مجموعة «كلنا خالد سعيد».
كنت مقتنعًا أن تكثيف الجمهور وتجميع الناس في مسجد واحد في هذه الظروف غير مجد لأن محاصرة المساجد سهلة، ولكن التحرك من أكثر من مسجد وتشتيت الأمن خاصة مع قابلية المصلين العاديين للتحرك معنا سيكون أجدى، وكانت كل المشكلة تتبدى لي في من سيتجاسر

ويطلق الهتاف الأول بعد التسليم من الصلاة، ومن لن يتهيب ويكون أول من يردد خلفه، ولم يكن يشغلني أي شيء وراء ذلك.

وبالفعل، قمت بإنشاء المجموعة من حساب وهمي وكلفت أحد زملائنا بشراء خطوط موبايلات جديدة حتى نرفعها على المجموعة ويتاح للمتظاهرين متابعتنا ومتابعة تحركات المسيرات من خلال الهواتف، استفادة من أخطاء الليلة الماضية في متاهات المناطق العشوائية.

لم تطرف عيناي أمام الشاشات ليلتها أو على الهاتف أتابع وأرصد وأرفع وأكتب، ينقضي ثلث الليل ونصفه وثلثاه و.. رن الهاتف، تنفست الصعداء. وبمجرد أن فتحت الخط ورد أخي انفتحت الأبواب وقام من في البيت من فرشهم التي كانوا يتقلبون عليها طوال الليل.

جاء أخي باشًّا ضاحكًا يحكي النكات عن معتقل الأمن المركزي في الجبل الأحمر، ويحكي البطولات أيضًا عن محمد عبدالقدوس الذي رفض أن يخلى سبيله وحده وقام بقيادة مظاهرة داخل المكان المحتجزين فيه حتى خرج هو و ٩٠ ممن اعتقلوا معه.

صلينا فجر الخميس واستقبلت الشروق بتفاؤل حذر، كان عليَّ أن آخذ قسطًا من النوم ليوم استنزاف يسبق المعركة، أخطر ما فيه أن القليل فيه يدفع ثمنًا كبيرًا.

الخميس ١/٢٧ – منتصف اليوم..

بدت الأمور أهدأ من اليوم السابق، غير أنه هدوء يعلم القاصي والداني أن دونه العاصفة، فالجميع يستعد ويحشد للجمعة.. قبيل العصر طار خبر تجمُّعين أحدهما في شارع جامعة الدول والآخر في ميدان الساعة.. كنا قد اقترحنا على صفحة «ثوار مدينة نصر» أن نتظاهر بالفعل غدًا في ميدان الساعة (أول شارع عباس العقاد).
مع أول هتاف لم نكن سوى أربعين شابا وفتاة، قررنا التحرك في الشوارع الجانبية، كل هدفنا كان تحفيز الشارع لمظاهرات الغد، كنا نشعر أن كل الشباب يفعلون فعلتنا في مناطقهم، أو عليهم فعل هذا.
أحسست ليلتها أني أحفر الثورة في أعماقي، أني أمررها على عروقي قطرة قطرة، شارعًا شارعًا نجوب ونُسمع هتافنا للبنايات المدينصرية الشاهقة، أشد ما يفرحنا هو شاب.. اثنان .. أو ثلاثة يتناهى لهم الهتاف من بعيد فيهرولون نحونا وينتظمون زرافات ووحدانا في صف المسيرة.
لم تمر خمس عشرة دقيقة حتى وجدنا عربة شرطة تقف بمحازاتنا في أحد الشوارع وينزل منها أربعة مخبرين وضابط، كلهم بزي مدني، كان عددنا اجتاز المائتين، لم أكن أخشى أن يرهبونا إلا بنظام معهود في هذه الظروف، الخطف من الأطراف، نبهت الشباب وبدأ كل شاب يتلمس يد صاحبه فيقبض عليها، نكوِّن كردونا حولنا، ونضع الفتيات في قلب المسيرة ونحافظ على كتلة المجموعة ونسير الهوينى.
بعد دقائق، تقدم الضابط حتى وصل مقدمة المسيرة فمال على قائد

المسيرة بابتسامتهم اللزجة المعهودة، قطب صديقنا في وجهه وبلهجته المعهودة أيضًا لمحته من بعيد يُرجع له القول: لن نتوقف.. وضع الرجل جهازه اللاسلكي على فمه وأخذ يهمهم همهمة نعهدها هي الأخرى.
عشر دقائق أخرى وكانت عربتان أخريان تفرغان عناصرها الشُّرَطية بنفس تلك الأشكال العجيبة، بدأنا نشعر أن الخطر أكبر، وبدأ أفراد عاديون ممن انضموا يتوجسون خيفة ويتسللون لواذًا، أيقنت ساعتها أن هناك منا من لن يبيت في بيته الليلة، ومهما يكن خيارنا ولو التوقف والتفرق لتونا سيُؤخذ منها رهائن.
كان شعورًا متبادلًا بين الجميع، ولذا بدأنا على الفور في إخلاء المسيرة من الأخوات حيث انتظمن صفًا واحدًا وخرجن بتأمين من الشباب حتى وصلن إلى شارع مواز لنا فأكملن سيرهن حتى الشارع الرئيس.
أما نحن فقد حل علينا ضيوف جدد مكانهم عمداء ولواءات شرطة – ببدلاتهم وشاراتهم الكاملة – أخذوا يتجاذبون مع المقدمة ويقنعونا بأنهم تركوا لنا نصف ساعة كاملة نعبر فيها عما نشاء، وأن عاقبة الاستمرار الآن ليس في صالحنا و.. و.. و .. ونحن نحاول إقناعهم أننا لن نخرج في الشارع الرئيس وأننا سنتوقف مع أذان العشاء.
عددنا أصبح لا يتجاوز المائة، كما بدأنا.. وعددهم تزايد بشكل ملحوظ، ووسط إقناعات كبار قيادتهم إذ نجد إنزالًا من سيارتَي أمن مركزي؛ ولأول مرة نرى مشهد الأمن المركزي في مدينة نصر كلها، والأدهى في أحد شوارعها الجانبية، وللحظة ما بعد الإنزال أنقذنا الأذان من معركة ستبدأ للتو.
توقفنا مع الأذان وسكت الجميع، تحسسنا أنفسنا وكتمنا أنفاسنا.. الكل متربص، صفّا الجنود من خلفنا، والرتب والضباط من أمامنا،

وعلى جانبينا اصطف المخبرون بزيهم المدني، درت بعينيَّ مرة أخرى في المحيط، من بجواري تبدل برجل عاقد الحاجبين مصفر الابتسامة. الجميع يقف كأن على رؤوسهم الطير، كأنني ضاغط على زر التوقف في ماكينة المونتاج بأحد أفلامي رغم استمرار الأصوات من حولي المشهد، أبواق سيارات عمر مكرم بر الأمان بالنسبة إلينا حيث نذوب مرة أخرى مع الناس، وآخر كلمات الأذان، المهلة التي أمامنا قبل استعادة الحركة.

لا إله إلا الله.. كهذا أطلقها المؤذن، وفورها علا الصياح من كل جانب وغاصت قدماي في الأرض بعد أن أمسك بكل ذراع مني مخبر.. يبتسمان في وجهي ذات الابتسامة، للحظة انتبهت إلى بؤرة الصياح عند قائد المسيرة حيث كان يمسك به سبعة لا اثنان. وللحظة أخرى، طرفت عيناي إلى أطرافي الأربعة فوجدت كل طرف طار وهرول بعيدًا لا يلوي على شيء، كان عليَّ أن أختار.. إذا تحركت خطوة للداخل سأظل في القفص لهذه الليلة ولما بعدها، ولن أساعد أحدًا في الهرب بفعلتي هذه، وإن خطوت إلى الخارج فقد أعيش لأشارك في العمل الأكبر غدًا، وإن لم أستطع هذا ولا ذاك فقد وقع أمري على الله.

دار بذهني كل هذا في أقل من ثانيتين واتخذت القرار في الثانية الثالثة.. أدرت ذراعاي الرفيعتين فدارتا في قبضتي الرجلين مرة ومرتين وفي الثالثة نفضتهما نفضًا، وبحركة بهلوانية كنت خارج الموقف خطوتين أتبعتهما بإطلاق ساقاي للريح مخلفًا ستة أو سبعة فقط حسب آخر مشهد لهم في قبضتهم.

نشرتُ خبر اعتقال مجموعتنا في كل مكان، وجدت أخباراً مشابهة في أماكن أخرى، وجدت أماكن أخرى أكثر اشتعالًا، مدينة نصر لا يوجد بها مجتمع، لا بشر هنا نحتمي بهم ويحموننا، لكن مناطق مثل فيصل

وشبرا بها مجتمع وبشر، ينزلون عن بكرة أبيهم إذا دخل عسكري واحد إلى شارعهم. كانت أخبار قنابل المولوتوف في فيصل تخفف شيئًا مما أقاسيه تلك الليلة، لكن الأخبار التي تخفف عنا انقطعت هي الأخرى، فلم تدخل الساعة الثانية عشرة صباحًا حتى انقطع النت تمامًا، وفور أن تأكدت أن هذا الانقطاع دائم وعام حتى قلت في نفسي: إذن هي الحرب غدًا، وقد أعلنوها بأنفسهم، من لن يجد النت في بيته غدًا.. سيخرج عليهم بصوته.. ولا عجب!

.....

صوت أمي يدوي في أرجاء الغرفة المظلمة، نعم صوتها يعتاد أن يدوي كل يوم في مثل هذا التوقيت، لكنه اليوم أعنف وسابق عن موعده عشر دقائق كاملة، نعم لم يؤذن الفجر بعد، لماذا تزعق كي أنتفض للصلاة، أها إنها «جمعة الغضب»، وقد حكمت على كل من لا يصلي الفجر جماعة في الصف الأول بالحرمان من المشاركة، في خلال ربع ساعة كان البيت كله ينتصب كي يكون في ذمة الله هذا اليوم.

مرة ثانية أستيقظ مبكرًا قبل الجمعة في حدود الساعة التاسعة صباحا، فتحت الجهاز ووجدت النت ما زال مقطوعًا. أحضرت هاتفي واتصلت ببعض أصدقائي للاطمئنان على التحركات اليوم، هاتفت أحد أصدقائي من الإخوان لأتأكد من المسجد الذي سينطلق منه إخوان مدينة نصر اليوم، لمح لي بمكانه من غير تصريح في الهاتف، كنت أود الاطمئنان فعلًا أن الإخوان سينزلون عن بكرة أبيهم، لأنهم لو تأخروا اليوم عنا فلن يشفع لهم ما سلف.

أجريت عدة اتصالات أخرى، وما أن وصل الوقت إلى الساعة العاشرة إلا ربع وجدت الشبكات ضعفت للغاية؛ وفي حدود العاشرة،كانت

قد انقطعت تمامًا، بدأت أتفاءل أكثر، الناس كلها تعرف الآن أن هناك أمرًا جللًا.

بكرت للصلاة وركبت السيارة كالعادة مع والدي، سيارتنا تحفظ طريقها كل جمعة إلى زاوية الشيخ عبدالستار فتح الله سعيد، تحفظ طريقها منذ سبعة أعوام أو يزيد، منذ أن مُنع المشايخ المحترمون من مسجد الإيمان الكائن بمكرم عبيد.. عبدالرحمن يعقوب وأحمد حلمي وعبدالبديع هاشم وغيرهم ممن تربيت على خطبهم، وإن شئت الدقة: ممن تأدلجت على خطبهم.

اليوم تعود ذاكرة السيارة لتتحسس طريقها القديم نحو جامع الإيمان .. في الطريق قفز إلى ذهني ملف المظاهرات في وجود الإخوان، كان ملفًا غير مريح بالنسبة إليَّ، صحيح أن المظاهرة لا ترقى إلى إطلاق هذه الاسم عليها دونهم، لكنها مهما تعظمْ، لها بداية معلومة، ونهاية شبه محتومة.. «سبحانك اللهم وبحمدك» تنهي أعظم مظاهرة إخوانية في التاريخ.. انصرفوا راشدين.. تجعل ثورة الخمسينيات مسروقة إلى الآن، كلمة تتسبب في إعدام العشرات في اليوم التالي مباشرة. ابتلعت ريقي بصعوبة وأنا أتخيل هذه المشاهد، وأتذكر كم مرة نزل فيها الإخوان وبُحتوا فور سماعهم: يسقط حسني مبارك.. بمجرد أن يعلو الهتاف بهذا – وأشباهه – الكل يبتلع لسانه، والمسئولون يحولون الهتاف مباشرة: يا حرية فينك فينك.. أمن الدولة ما بينا وبينك!

السيناريو الكابوسي أن تأتي الساعة الرابعة عصرًا، فيقف أخ «أخيخ» ويصدح بها عالية: «سبحانك اللهم وبحمدك» ساعتها سنلعن اليوم الذي قرروا المشاركة فيه، تبًا!

أحاول أن أطرد هذه الأفكار مع اقترابنا من المكان، فوجئت عندما لم أجد أي عربة للأمن المركزي بجوار الجامع، فقط يوجد مخبران اثنان، وضابط صغير يقفون على مسافات متفاوتة من أبواب المسجد، للحظة جاءني هاجس أنه المسجد الخطأ، لكنني لمحت سريعًا ثلاثة شباب أعرفهم من إخوان مدينة نصر، هدأت قليلاً.

صليت ركعتين خفيفتين، وجلست أمارس هوايتي في تفرس الوجوه وفرز الإخوان من غيرهم، دقائق واعتلى الإمام المنبر، شاب في الثلاثينيات يلتزم الزي الأزهري ويعتمر عمامته، حمد الله وأثنى عليه، وانطلق يخطب في المصلين: أما بعد.

«فكنا قد تكلمنا في اللقاء الماضي عن الحقوق العامة التي يكفلها الإسلام، وأول حق تكلمنا فيه الجمعة الماضية كان «الحرية»، وسبحان الله على غير اتفاق تأتي أحداث اليومين الماضيين قدرًا، حيث كنت رتبت من قبلها أن أتحدث إليكم في هذا اليوم عن «الاستبداد» وأنه قيمة يرفضها الإسلام ويذمها، ويقابلها بالشورى «.

استبشرت وارتاحت وجوه الناس من حولنا وإذ فجأة يقطع تسلسله ويصيح: «ولكن بالله عليكم أخبروني: لمصلحة من ما يجري في مصر الآن؟ فليخبرني أحدكم لمصلحة من؟ وسكت برهة..

وإذا بشاب في العشرينيات يتلفح بالشال الفلسطيني، صدح من وسط المجلس بصوت جهوري مجيبًا إياه: مصر.. لمصلحة مصر..

بُهت الخطيب من سماع الإجابة، لكنه لم يلبث ثوان، حتى وجد اثنين وثلاث وأربع وعشر إجابات كلها تهتف مصر.. مصر.

تلعثم الخطيب وتصفد جبينه عرقًا وأخذ يسوي عمامته ويكرر السؤال ويرفع صوته، لمصلحة من؟ اسمعوا واتقوا الله، للخطبة حرمتها..

المشهد لدقائق ذكرني بمظاهرات حرب غزة، عندما قرر الإخوان التظاهر في إحدى الجُمع بمسجد الفتح، وأغلقه الأمن نهائيًا فاضطر المتظاهرون للصلاة في مسجد الجمعية الشرعية بالجلاء. وفي الخطبة، أخذ الشيخ يسب حسن نصر الله والشيعة والمقاومة، فوقف له الشباب، ولمحت صديقي رفعت يمرق من بين الصفوف ويكاد يلقي حذاءه في وجهه ويريد أن يُنزله من على المنبر.

وبالفعل لم يختلف المشهد كثيرًا حيث مرق شاب بنفس الجرأة يتخطى الرقاب، يريد أن يهوي بالشيخ من على المنبر، وارتج المسجد بالضجيج وخاف الخطيب على نفسه فختم الخطبة الأولى وسط ضجيج الناس، وقام في ثوان ودعا دعاءين في دقيقة وختم الخطبة الثانية، وأمر بإقامة الصلاة، وانتظم الناس للصلاة في تحفز.

أطال في القراءة وأخذ يتلو آيات تذكر الناس بتقوى الله، والناس تنتظر الفراغ بتوثب، حتى إذا سلم، هرع البعض نحوه يريد أن يعنفه، ووقف آخرون يرددون: سلمية سلمية.. ولم تمر دقيقة حتى وجدت نفسي أبادر بالهتاف بكل قوة كي لا يضيع تحمس الناس هباء: الشعب يريد إسقاط النظام.. الشعب يريد إسقاط النظام.. في الثالثة كان المسجد كله يرتج بالهتاف خلفنا.

وخرج الناس أفواجًا على إثر الهتاف، خمس عشرة دقيقة كاملة ولا هتاف لهم سوى ذاك الهتاف الأثير للثورة، حتى إذا اكتملت حشود المصلين في وسط الشارع أمام المسجد، هتفت مرة أخرى: يسقط يسقط حسني مبارك.. يسقط يسقط حسني مبارك.. ولم أصل إلى الثالثة حتى اعتلى أحدهم كتف أخاه وأمسك بمكبر وبدأ يكسر الهتاف الموحد: أول مطلب للجماهير.. تعديل دستور.. ولا للتزوير!

هنا تحديدًا، حدثت المعجزة، مددت بصري فإذا عدد المشاركين من غير الإخوان يغلب على المشاركين من الإخوان، وإذا الجماهير الغاضبة تتجاهل هتاف الأخ ومكبره، وتكمل هتافها: يسقط يسقط حسني مبارك، وفي لحظات بدأ المشهد يتطور، وأمسك الأخ بمكبره ثانية، وكأنما رزقه الله لسانًا جديدًا يجربه الآن وينطق به أول مرة في حماسة غير معهودة: يسقط يسقط حسني مبارك.

ساعتها كدت أسقط من الفرحة، أخيرًا انتظم نبض الإخوان مع الشارع، أخيرًا أستطيع أن أطمئن – قليلًا – إن ذات الأخ لو وقف بعد ساعات ليعلن انتهاء المظاهرة فلن يلتفت له أحد، أو لن يجرؤ على إنهائها أصلًا. أخيرًا تحققت معادلة الإخوان ذاتها، لن ندفع الثمن وحدنا، أنتم الآن لستم وحدكم.. وهم الآن أحوج ما يكونون إليكم.

لم يكد الشارع (مكرم عبيد) ينتصف بنا حتى وجدنا على محاذاتنا ثلاثة ضباط بزي مدني وبأيديهم أجهزة لاسلكي، الوجوه نفسها التي قابلناها بالأمس، لكن ما أبعد ما بين اليوم والأمس، اليوم عددنا يزيد على الخمسة آلاف، ونسير في وضح النهار والهتاف يرتج بين البنايات الشاهقة: انزل انزل انزل، والأعداد تتزايد.

صاح ضابط من أمن الدولة فينا: آخركم نهاية الشارع لا عبور إلى الأوتوستراد، ظننته مجنونًا، لا بل مسكينًا، لا يدرك بعد أن خُمس هؤلاء على الأقل كانوا يوم ٢٥ في الشوارع والميادين، ويعرفون جيدًا طريق الوصول إلى الميادين مرة أخرى، كدت أتفل في وجهه وأقول: ليس اليوم أيها الصفيق، قد يكون لك ذلك بالأمس، لكن ليس اليوم.

لمح الشباب في مقدمة المسيرة صفًا من الأمن المركزي يحاول أن يتشكل على مرمى البصر في منتصف طريق النصر، أطلقوا الصفارات سريعًا

وهرول الكل ناحية الهدف، وصلنا بعد أن تشكل الخط بالفعل، كان هزيلًا مكونًا من صفين، وفي بعض النقاط ثلاثة صفوف، انتظرنا حتى التأمت صفوفنا وضغطنا من المنتصف، ومررنا مرور الكرام بضربات قليلة متفرقة.. وانكسر الطوق الأول.

الثاني كان جاهزًا بالفعل، في منتصف الطريق أيضًا وأمام قسم أول مدينة نصر، كان عددنا لا يزال خمسة آلاف، وكان الطوق أضخم، ولمحنا أن الطوق الذي أفلتنا منه بدأ يعيد تشكيل صفوفه كي يطبق علينا من الخلف، وفي تصرف سريع انثنينا في طريق جانبي واحتشدنا سريعًا، وهرولنا تجاه شارع عباس العقاد قبل أن يأخذوا الأوامر بإعادة تشكيل أنفسهم.

وبالفعل نجحنا في الوصول إلى الشارع قبلهم، وأعدنا خط سيرنا مرة أخرى عند ميدان الساعة إلى طريق النصر، حيث أصبح الطوق الضخم خلفنا بعد أن كان أمامنا.

أمتار أخرى في الشارع وبدأ عددنا يزيد تدريجيًا، لم يكن أحد على علم بوجهتنا بعد، كنا نفكر في الاعتصام في الميادين العامة، كل منطقة في ميدانها الأشهر، حتى يأتي المساء، حتى نبيت ونخيم في كل ميادين مصر، لكن ها نحن نخلف وراءنا ميدان الساعة، وآخر ميدان شهير مقبلين عليه - في مدينة نصر - هو ميدان رابعة، تُرى هل خرجت مظاهرات من مسجد رابعة أيضًا أم تم إجهاضها.

لم تمر دقائق قليلة حتى جاءتنا الإجابة.. المئات يخرجون من مسجد رابعة ويكسرون طوقًا هزيلًا في وسط شارع الطيران، يبدو أن الخطبة التي بترناها في مسجدنا جعلت وصولنا مزامنًا لخروجهم من خطبتهم، الكلُّ في لحظة الالتحام أخذ يهتف الله أكبر الله أكبر. وفي لحظة من

الارتباك، يهتف أحدهم من وسط الجموع ويشير بإصبعه تجاه طريق النصر: التحرير.. التحرير.

لأول وهلة ظننته متهورًا أو أحمقَ، فبيننا وبين التحرير ساعتين أو ثلاث من السير على الأقدام، ولكن للوهلة الثانية.. صدقه الناس كلهم بخطوات ثابتة تحركوا بها جميعًا صوب العباسية يهتفون: التحرير التحرير. وبدأت حشود أخرى تنضم إلينا من «الطيران» كانت في طريقها إلى «رابعة» من مساجد متفرقة، وسارت المسيرة وأمامها شباب من الإخوان يحاولون لم شملها حتى لا تتبعثر قواها، واخترنا طريق صلاح سالم للوصول إلى العباسية ومن ثم غمرة.. رمسيس.. التحرير.

في منتصف شارع يوسف عباس وعند بوابة نادي الزهور تحديدًا إذ يقوم الأمن بعمل حركة جنونية، يهجم علينا بعناصر كانت تسير إزاءنا طوال هذه الفترة بزي مدني، لا يتجاوز عددهم عشرين أو ثلاثين عنصرًا، بأيديهم أجهزة صاعقة وهراوات صغيرة وأسلحة بيضاء، لدقيقة صرخ الناس وهُرعوا لسماع أصوات الصاعق الكهربائي غير معلوم المصدر، رجعنا ربما عشرة أو عشرين خطوة بشكل هستيري إلى الوراء . التقطنا أنفاسنا، صوبنا أنظارنا شطرهم.. وجدوا أنفسهم فجأة مكشوفين بالكامل لنا.. أخذنا العشرين خطوة مرة أخرى في نفس واحد إلى الأمام: هجـــوم.

وفي دقائق، كان الثلاثون رجلًا ما بين جريح وشريد، وإذا بالحجارة المحفوفة بقضبان الترام القديم تنهال عليهم من كل صوب وحدب، ووجوهم بالفعل غطتها الدماء، ومعاناة اليومين الماضيين لدى الشباب تُفرَّغ كلها فيهم، حتى ظننت أنهم هالكون لا محالة، لولا أن آخرين تدخلوا لحمايتهم من القضاء المبرم عليهم.

انتظمت صفوفنا ونحن نستعد لدخول شارع صلاح سالم، يمننا وجوهنا إلى اليسار حيث العباسية، نرمق عن يميننا طوقًا مكونًا من عشرة صفوف وربما أكثر، ومصفحات وآليات انتظمت منعًا للتفكير في تغيير مسارنا إلى قصر الرئاسة في مصر الجديدة. كان مشهد اللواء الذي يقف وهو يرى هذه الجموع الهادرة تودع مدينة نصر وتستقبل صلاح سالم لا ينسى بالنسبة إليَّ، نظراته الزائغة ورغبته في أن يمر المشهد سريعًا أربكتني، ترى ما الذي يحدث في بقية الشوارع والميادين، وفي بقية محافظات مصر؟

مرت ساعتان منذ فرغنا من الجمعة، الساعة الثانية ظهرًا، نسير وسط طريق صلاح سالم في اتجاه العباسية.. «حسني مبارك راحل راحل.. انزل انزل خليك راجل». كان الهتاف الأثير ساعتها بل كانت القناعة التي بدت مؤكدة، منذ ساعتين مضيتا لم تكن متوقعة، ومنذ يومين مضيا لم تكن متخيلة، لكن الشاب المرفوع على الأعناق الذي يحاول أن يجاوز صوته المدى كي يهتف بها، هو ذاته الذي يحاول ببصره أن يجاوز المدى كي يرى نهاية المظاهرة.. مشهد يجعله يردد الهتاف كحقيقة مؤكدة لا مطلبًا أو شعارًا.

ألوف بعد ألوف، أمشي بينهم كالغريب، مَن هؤلاء، ومن أين أتوا، مع الزيادة غير الطبيعية أكاد لا أعرف أحدًا من وجوه من حولي، وأنا الذي لا أترك الشارع ولا أغيب عن المظاهرات منذ خمسة أعوام ونيف، لكن هؤلاء لم ينضموا إلى مظاهرة، إنما انضموا إلى ثورة.

اقتربنا من مدخل العباسية ولم نعثر على شرطي واحد على طول طريق صلاح سالم، توقعنا أن نعثر على بعض التجمعات في ميدان العباسية، لكن الميدان كان خاويًا على عروشه، كل ما هناك عشرات الحجارة

وآثار لحطام زجاجات فارغة على أرض الميدان تنبأنا أن حربًا بدأت هنا، وأن أرضًا محروقة مُهدت أمامنا، لتترك لنا جهاد مواصلة الطريق ذاته في هذا الوقت من النهار، ومع تلك المسافة.

تجاوزنا العباسية وبدأت الأحياء البسيطة تجاور أيسر الطريق، لنشهد نوعًا مختلفًا عن تفاعل سكان مدينة نصر، الزغاريد من الشرفات تنطلق بين الفينة والأخرى، كعادة «ستات البلد» في تحية أي عرس يمر بشارعهم، وعشرات من زجاجات المياه البلاستيكية تُقذف على المسيرات لتروي عطش كبار السن والأطفال والسيدات، اكتشفت ساعتها أن بيننا عجائز استمروا معنا إلى هذه النقطة، ساروا كل هذه المسافة من مكرم عبيد إلى غمرة!

أذن العصر قبل أن نصل إلى غمرة، نادى الهاتفون: لا صلاة إلا في التحرير، تذكرت مشهد صلاة العصر منذ ثلاثة أيام في الميدان، مشهد منعش بالنسبة إليّ الماء الذي فُتح علينا، تمنينا في تندر — أنا وأصحابي — أن نجد عربات المياه في انتظارنا حتى تطفئ ما لاقينا من حر الطريق.

بُعَيد غمرة بدأت الطريق تضيق بنا، والمساحات التي كانت بيننا تتقارب خطوة بعد أخرى وانحشار لآلاف البشر على مرمى البصر، شرعت في اعتلاء الأرصفة وتخطي الصفوف المنهكة، عدة أمتارًا وبدأت ألاحظ مئات الشباب العائدين من معركة ما أمامنا، الكمامات على أفواههم، والعيون غارقة في أدمعها، والوجوه متوهجة من أثر الدخان، رفعت أنا الآخر كمامتي المعلقة على رقبتي طوال الطريق، أحكمتها على أنفي وفمي وأنا أتابع التقدم.

الدخان يكاد يحجب الرؤية كلما اقتربنا، ويظهر الشباب العاري الذي خلع ملابسه وتلثم بها استعاضة عن الكمامات، لا ينقصهم

سوى المقلاع كي تُطابِق مشهدهم بمشاهد الانتفاضة، يبدو أن هؤلاء مرابطون هنا منذ الجمعة، بينهم أيضًا شباب الأحياء والمناطق القريبة من العباسية ورمسيس يبدو ذلك من مظهرهم وطريقة كلامهم، تقدمْتُ وصديقان لي صفوفًا مكمَّمة من شباب مصر الجديدة ومدينة نصر الذين وصلوا لتوهم، التقطنا بعض الحجارة المنتشرة على الطريق وكلما تقدمنا خطوات لنبدأ في الرمي تكشَّف أمامنا جزء من ميدان الحرب فإذا العدو أبعد مدى، والحجارة لن تسقط إلا على صفوفنا المتقدمة، تركت الحجارة من يدي وحاولت الصعود أعلى كوبري المشاة – عند آخر سور الترام – في محاولة لاستكمال صورة المشهد.

بالكاد رأيت من بعيد الفوهات العلوية لعربات الأمن المركزي وجنودًا مقنعين يسحبون كل دقيقة والأخرى أجزاء سلاحهم ويلقمون فوهتها قنبلة دخانية تصل إلى ما قبل نهاية الميدان بأمتار، صف العربات كان يقف بعد مسجد الفتح بخمسين مترًا على الأكثر، ومن تلك النقطة إلى النقطة التي أقف فيها آلاف البشر وعشرات التشكيلات والتجمعات، ولا تمر خمس دقائق حتى ترى مجموعة تنسحب حاملة جرحاها، وأخرى تتقدم مكانها بعدد أكبر، وأصوات القنابل لا تتوقف وأبواق عربات الشرطة تضج في الميدان، وأكشاك الشرطة التي كانت تنتشر أسفل الكوبري تتصاعد منها ألسنة اللهب والدخان، والإطارات المحترقة تجري بين الصفوف، والهتاف مختلط بالصراخ بالجراح، والأرض مغطاة بأجساد بشر لا ينتهون.

أحاول النظر خلفي لأرى موردهم فإذا شارع رمسيس ما زال يغص بالبشر إلى غمرة، بلا انقطاع، بلا موطئ قدم، بلا توقف في الزحف حتى؛ فإذا كنا أتينا من مدينة نصر، فهناك المعادي والمقطم وجسر

السويس والزيتون وعشرات الأحياء والمناطق التي استنزفها نصف النهار للوصول.

بدا أن هناك استماتة على مدخل رمسيس شكلت لدى الحشود – القادرة منها على عبور الميدان دون اختناق – فكرة التوجه صوب العتبة، في محاولة للوصول إلى التحرير من هناك، ولدى الحشود الأخرى التي أنهكها التعب - خاصة النساء والشيوخ – رغبة الجلوس على الأرصفة في المسافة ما بين غمرة ورمسيس، نزلت سريعًا وجاوزت مع العابرين الميدان بصعوبة، إذا يمر الناس وعين على السماء التي تُمطر نارًا وحديدًا وعين أخرى على الأرض التي تنتشر بالكتل البشرية والدوامات الدخانية. وقبل أن أصل إلى مسجد الفتح من الخلف – مكان موقف سيارات الأزهر والحسين- عثرت على صديق تظهر عليه آثارٌ لا بأس بها من المعركة عرفت منه أن المظاهرات التي كانت تريد الانطلاق من مسجد الفتح منذ الصباح لم تبرح ميدان رمسيس، لأكثر من ٤ ساعات كر وفر لم يتقهقر فيها رجال الأمن سوى مائة أو مائتي متر فقط.

الأمن المركزي لم يعد يسير وفق القواعد بعد، لم يعد ينزل من سياراته ثم يشكل درعًا، ثم يرفع الهراوات، ثم يعتقل البعض، ثم يبدأ في ضرب الدخان، ثم الرصاص المطاط، ثم الحي، لا.. الأمن أصبح يبدأ من الخطوة قبل الأخيرة، يضرب الدخان مباشرة ثم يشرع في ضرب الرصاص في الحال.

المشكلة أن أعدادًا متفرقة كانت تقف على نواصي الشوارع دون حراك، وكنا نمر بجانبهم في هدوء مرددين: «سلمية.. سلمية»، لكن ما إن يتم تزويدهم بقنابل الدخان وحشود مناسبة حتى يتحلقوا حولنا ويأتونا من كل مكان، لكنها مواجهة أرحم إذ الكر والفر في الشوارع الجانبية

أيسر، وهي أعسر من جهة الأعداد التي نهاجم بها متواضعة وغير مؤثرة بالنسبة إلى حشودهم، على كل حال لم نفلح في المواصلة للعتبة، كان الطريق ملغمًا في كل ناصية من المكان.

***

لما استيأسنا التقطنا أنفاسنا قليلًا وتوضأنا وصلينا العصر في زاوية صغيرة بالقرب من شارع كلوت بك، بعد الصلاة تأبطت ذراع صديق قديم وتوجهنا مرة أخرى إلى رمسيس. المشهد في الميدان لم يختلف، اللهم إلا في تزايد عدد دوي الانفجارات التي تُسمع كل حين، ولا ندري ما مصدرها، والحشود في شارع رمسيس ما زالت تتوافد، ولا ندري على أي حال تغيب شمس هذا اليوم، حاولت أن أندفع متهورا ناحية مسجد الفتح. كان الأمر مروعًا للغاية، الداخل إلى تلك المنطقة يغمض عينيه، ولا يفتحها إلا على لون دمائه، وأقرانه يحملونه خارج مدى الضرب، أغلب الإصابات كانت بالخرطوش ثم الرصاص الحي.

أخذت عيناي تدمع مرة أخرى من كثرة الدخان، حاولت أن أتمشى بعيدًا وأنا أشرع في ترتيل أذكار المساء، خطر على ذهني التقدم من ناحية أحمد حلمي، توجهت ناحية محطة القطار وعبرت إلى الجانب الآخر، لا وجود لبشر، الموقف نفسه خاو على عروشه، محطة مصر التي عبرت منها لا يوجد بها سوى أنفار قليلين يترقبون أي قطار يصل كي يقلهم إلى بلادهم، والكل يكتم أنفه بالمناديل الورقية، وعلى القرويين منهم علامات الذهول، وهم يشاهدون من بعيد الدخان المتصاعد من كل حدب وصوب.

عندما وصلت إلى الميدان مرة أخيرة كانت الشمس قد آذنت على المغيب، صعدت مرة أخرى أعلى كوبري المشاة. تنهدت تنهيدة طويلة

قبل أن أضع بصمة آخر هذا اليوم في ذاكرتي «أمسينا وأمسى الملك لله».. أحسست ساعتها بمعنى للملك جديد، كم نحن مفعولون، كم هو مالك الملك.. قد أصبحت الأرض في حال وأمست اليوم في حال لم يُحسب له مآل.. تمتمت مكملًا: أمسينا وأمسى الملك لله ، والحمد لله ، لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو على كل كل كل شيء .. قدير.

.....

اللهم إن هذا إدبار ليلك وإقبال نهارك وأصوات دعاتك.. «فتقبل منا».. هكذا تمتمت بعيد أذان المغرب ناظرًا إليّ صديقي حسن رفيق آخر ساعة من ذاك النهار أن هلم نصلي ونكمل الطريق. أصوات الانفجارات ما زالت تدوي كل فترة، وسحائب الدخان تحالفت مع خيوط الظلام لحجب الرؤية أكثر فأكثر، ولا جديد في المشهد سوى أن طلقات الدخان نفسه قد اختفت والمئات التي تزحف تلتهمها كتلة الدخان الموازية لمسجد الفتح حشدًا بعد حشدٍ ولا يكر منهم أحد كما كان منذ الصباح.

نزلنا وسط الحشود على السلم الحديدي يتأبط ذراعي ذلك الفتي الذي يصغرني بسنتين أو ثلاث: ترى ما نهاية تلك الثورة؟

– لا أحتاج إلى رؤية نهايتها، بدايتها تكفيني.

ينظر باستغراب!

أتابع: تعرف.. والدك الذي خاف عليك ولم يسمح لك بالنزول للمظاهرات، عندما يرى هذا المشهد سيأمرك غدًا أن تنزل.

– جزى الله النظام عنا خيرًا هو لا يعلم بوجودي هنا الآن بسبب قطع الاتصالات.

– نعم ولكنه سيعلم غدًا، وسيسلم جيله كاملًا الراية لنا، بعد أن كانوا يحجموننا عنها، لأنهم فشلوا في التقدم بها ولو خطوة واحدة إلى الأمام، بل قد كرسوا موقفه المنهزم بدعوى الثبات، ولم يعلموا أنك إذا لم تكن تتقدم فلا يوجد ثبات إنما هو تأخر حتمي.

تنهد طويلًا ثم زفر بها: واضح إنك شايل كتير من المجتمع.

ضحكت: وأرى أن هذه ثورة على المجتمع ذاته قبل أن تكون على الدولة، وأن هذا المشهد هو ضمين نجاح الثورة على المجتمع، وضمين نجاح نتائجها الاجتماعية، ولا أهتم بذات القدر بنتائجها السياسية.

اقتربنا أكثر من الدخان صوب شارع رمسيس، وقبل أن أدخل فيه سمعت صياحًا هائلًا من العشرات التي تعتلي كوبري أكتوبر يصيحون بهتاف واحد «الجيش نزل.. الجيـش نزل» وبنظرة سريعة نحو إشاراتهم رأيت ثلاث عربات مسرعة تسير فوق الكوبري تجاه التحرير، كتمت أنفاسي رهبة ورغبة، وانطلقت شيئًا فشيئًا تظهر ألسنة لهب أمامي تندلع من صندوق قمامة حديدي في وسط الطريق، أجاوزه فتظهر كتلة نارية أخرى تندلع هذه المرة من عربة أمن مركزي تلتهمها النار التهامًا؛ مررت من جانبها في ذهول، إذ أرى لأول مرة في حياتي عربة أمن مركزي محترقة. كانت أول الأمر تخيف أي مظاهرة أو وقفة أو مؤتمر، وها هي الآن مشتعلة، عبرت إشارة رمسيس وكأني أدخل في فيلم هوليوودي مثير.

الأنوار خافتة بطول الشارع، والبشر مجموعات صغيرة كالحة من أثر المعارك المبثوثة على نواصي الشوارع طوال اليوم، بعضهم بح صوته ولا يجد في جسده قوة سوى رفع يده بعلامة النصر كلما مر على سيارة أمن محترقة، وبعضهم يرفعها بكاميرا جواله ليسطر الذكرى، وبعضهم

يغلب انفعاله رهقه فيزعق في الشارع الممتد «فين أمن الدولة .. فين الحكومة .. نهايتك يا ظالم .. نهايتكم يا ظلمة»، ثم تتحول الصرخات إلى عبارات تُنحت بالحديد على أسطح سيارات الأمن المركزي المندلعة منه النار.. عبرة كل ظالم.

أصِل إلى الإشارة الثانية في الشارع، مرت عليَّ ثلاث عربات محترقة حتى الآن، أحدهم يميل على صاحبه ويقول لقد أضرمت الشرطة النار في مركباتها قبل أن تولي بالفرار، كان ذلك منذ ساعة فقط، لقد رأيتهم، وآخر يصعد فوق واحدة قد أتت النار عليها وينصب نفسه مرشدًا أثريًا يشرح للمارة الذين توقفوا قليلًا لمشاهدة المنظر: وكنا نقف فوق هذه البناية ونرمي بالمولوتوف عليهم حتى دخلت واحدة في هذه الفتحة - يشير إلى الفتحة العلوية في سقف العربة - ففر الجنود هاربوين وانفجرت العربة في دقائق.

أكمل طريقي، أمر من جانب نقابة المهندسين، أجاوزها إلى مبنى محكمة النقض، ثم شارع عبدالخالق ثروت والسلالم التي وقفنا عليها كثيرًا في هذا المربع طوال السنوات الماضية، كل درجة منها الآن هي شارع وميدان كامل في طول البلاد وعرضها.. يصرخ أحدهم في وجهي فجأة: اطلع على الرصيف اطلع على الرصيف.. لسه ما ولعتش.

أنظر محاذاتي إلى سيارة تحترق كسابقاتها، أنصاع لهم وأصعد على الرصيف، أنزل بعد خطوات وأخلفها ورائي، ثوان وأسمع دوي انفجار وسنا نار عظيمة في الأفق، أكمل خطواتي - دون نظرة واحدة إلى الوراء — فلم يعد المشهد جديدًا.

أخيرًا استقبلت ميدان عبدالمنعم رياض، أحسست أن الروح عادت مرة أخرى لذلك التمثال الذي يمسك في يده بنظارته المعظمة، وييم شطره

تجاه «التحرير»، رنا القائد الشهيد كأن الدماء التي سالت اليوم جددت قناة دماء رفقائه في أكتوبر العظيم، رنا إليَّ السيل الهادر الذي بدا أمامه صوب الميدان كمشهد للعبور.

كل عناصر الميدان هي هي منذ آخر ساعة تركته فيها، منذ منتصف ليل الثلاثاء، ما زاد هو الكم، الحشود بدت عشرة أضعاف ما كنا عليه قبل يومين، كان العشرات منهم معصبين بضمادات بيضاء ينقع في وسطها أحمر قان، الليلة هم بالمئات، أتعثر في الكثير ممن أعرفهم، أسأل عن تاريخ الإصابة؟ موقع المعركة.. قصر العيني.. شبرا.. المطرية.. كوبري قصر النيل.. ميدان الجيزة .. المنيل .. غمرة.

أدركت غير بعيد أن جل المعركة فاتتني اليوم، لكنها على أي حال لم تنته بعد، فلا تكاد تصل إلى آخر الميدان من ناحية الجامعة الأمريكية إلا وتكتشف أن مقطوعة طلقات الدخان ما زالت تعزف، وأن أعدادًا من الشباب ما زالت تصر على الثأر لمعارك اليوم من مبنى وزارة الداخلية نفسه، وأن العشرات ما زالوا يصابون مختنقين عند «ثغر» الجامعة الأمريكية ، رغم أن مصدر الإطلاق لا يبعد كثيرًا عن مقر مجلس الشورى .

بين الفينة والأخرى تُطلق قنبلة بعيدة المدى تتجاوز إلى منتصف الميدان أو زيادة، ينظر إليها الشباب باستهتار كنظرة الجزار إلى رفسة من ذبيحته التي يهراق الدم من رقبتها، لا تفزع أحدًا، ولا تؤذي أنوفًا أزكمت لثلاثة أيام من دخائنها، كل ما يفعلون للرد على أصوات طلقاتها هو أصوات أحجارهم ومطارقهم على حديد الأسوار والأعمدة المنتشرة في الميدان، قرع قرع متواصل يشعر الجميع أن الميدان جمرة متقدة لا تخبو ولا تغفل لحظة، ربما كانت هذه رسالة أيضًا لقوات الجيش التي

بدأت أخبار انتشارها تصل إلى الجميع.
كان القرع على أشده من مدخل قصر النيل لدرجة الصداع، جال في خاطري وضع مبنى التلفزيون الآن، بالتأكيد فكر الكثير هنا قبلي بمحاصرته على الأقل، قررت التوجه نحوه، على الكورنيش من قصر النيل إلى كوبري أكتوبر وجدت عربات محترقة أيضًا، أمام مقر الحزب الوطني وجدت عربتين وقفتا بعرض البابين الرئيسَين للحيلولة دون اقتحامه. كان مصيرهما الحرق أيضًا، لم أكد أقترب من مدخل التلفزيون حتى وجدت حائط صد كثيف من الأمن المركزي، يشبه الحائط المتمترس عند مجلس الشعب، يبدو أن المكانين الوحيدين اللذين لم يقعا بعد هما: مبنى وزارة الداخلية، ومبنى ماسبيرو!
لم أكن سعيدًا بإهمال الشباب الثائر الهجوم على التلفزيون واهتمامهم أكثر بالهجوم للوصول إلى الداخلية، راودتني سيناريوهات «إذاعة بيان الثورة» وأخذت أحك رأسي، ترُى من سيلقي بيانًا كهذا، وهل سيبدأ بـ»أيها الإخوة المواطنون»! «اجتازت بلادنا فترة عصيبة في تاريخها»! «قرار رقم واحد للثورة .. « ترُى ما يكون القرار الأول؟
«حاسب .. حاسب» قطع تفكيري صوت أحدهم يحذرني من سيارة أمن مركزي طائشة نحوي، دققت النظر بعد مفاداة عصيبة لها فإذا بأربعة شباب يجلسون في قمرتها، والعشرات في صندوقها الخلفي وعلى سقفها يلوحون بالأعلام في مشهد عجيب، بدت هيئاتهم مختلفة عن الشباب هناك في الميدان، نفس الأشكال التي تقف هنا على الكورنيش يوميًا تنادي على المراكب أو تقف بعلب «الكانز» وعلب «السجائر»، بدوا منتشرين في المكان، في دقائق اكتشفت أنهم كثيرون بالفعل.
تابعت مجموعة منهم تتنادي، وجدتهم يتوجهون ناحية مبنى الحزب

الوطني، تجاوزوا السور ولم تمر دقائق حتى كان أحدهم يشعل في الخيمة الكبيرة المنصوبة في حديقة الحزب، خيمة الانتخابات السابقة، دقائق أخرى وكانت ألسنة النار تلتهم الخيمة البلاستيكية، وأشباح من الشباب يهرول هنا وهناك داخل المبنى، ترحمت على الأوراق التي من الممكن أن نحصل عليها من الحزب. وقررت أن أكتفي بمشهد النيران وهي تحاول الوصول إلى البناية ذاتها، على يقين أنه خلال ساعات لن يتبقى فيه حجر على حجر.

كانت الساعة تشارف على التاسعة مساء، لم أكتشف أنني لم آكل منذ الصباح إلا اللحظة، لم أكتشف أن أهلي الآن في البيت قد يتفطرون عليَّ قلقًا إلا الساعة، كان عليَّ الخيار، المبيت في الميدان أو الرجوع إلى البيت ثم الاستئناف غدًا، كانت عربات الجيش تغص كوبري أكتوبر، قررت الخيار الثاني. مشيت والعشرات العائدون إلى بيوتهم سيرًا على الأقدام – فوق الكوبري– وسط الجنود نتبادل نظرات الحيرة والشك التساؤل والريبة والأمل والرجاء.. نزلتم لحمايتنا؟ لحمايتهم؟ لحماية أنفسكم؟ أنتم جنود ثورة يوليو ساقطة الشرعية.. جنود أكتوبر حافظة الكرامة.. جنود السلام جالبة المهانة.. أنتم معنا؟ نحن معكم؟

نظرات لم تنتهِ إلا بسيارة أجرة رضي صاحبها أن يقلني وراكبَين آخرين إلى أقرب نقطة من مدينة نصر، لينتهي يوم ٢٨ يناير بالنسبة إليَّ.

......

باتت الشوارع ليلتها متوجسة، تشعر بالتغيير ولا تشعر، سكون مرتقب لما تسفر عنه شمس الغد، المركبات البنية والصفراء استبدلت بالمركبات الزرقاء، والرجال المتزيين بآلام الحروب خرجوا لأول مرة من ثكناتهم منذ حرب أكتوبر، أو بالأحرى خرجوا من شاشات التلفاز التي لا نراهم

عليها إلا في أفلام أكتوبر ، بدت أجسادهم ودباباتهم غريبة عن جسد الوطن، سمعت ذلك جليًا في أزيز مجنزراتها على الإسفلت المسكين على طول كوبري أكتوبر.

هبط التاكسي الذي أستقله من آخر منزَل للكوبري واختفت تدريجيا صفوف الشباب السائرة على الأرصفة بجوارنا تقطع مئات الأمتار على أقدامها عائدة إلى منازلها. كنت محظوظًا بأن وافق السائق على إيصالي لأول شارعنا، أعطيته فوق ما طلب باشًّا في وجهه بعد الموال الطويل الذي أسمعنيه عن وقفة الحال منذ يومين: كل ثورة وأنت طيب.

***

لم أبت ليلتي بخير، لم أكن أشعر بنفسي طوال اليوم بسبب أصدقائي المعتقلين منذ الأمس، لا أعرف ما الذي فُعل بهم، هل تنجح الثورة ويخرجون، أم تنجح فينتقمون منهم، أم تفشل فينتقمون منهم أيضًا. في الصباح، جاءني خبر الإفراج عن الجميع من مقار احتجازهم، فارتحل فجأة إحساس فشل الثورة الذي تملكني ليلة أمس، أحسست ساعتها أنه لم يكن سوى إحساس بالحيرة من وجود معتقلين وثورة في الوقت نفسه، الآن أستطيع أن أقول إن هناك ثورة فقط، انتهى فصلها الأول، وعلينا إكمال بقية الرواية.

ساعات وكنت أتجول في التحرير مرة أخرى أرمق الدبابات التي استقرت على مداخله بارتياب زال مع قرب اليوم على الانتهاء دون أي تدخل منها.. عادت خدمة الاتصالات دون الرسائل، وانتشرت الناس في الميدان حتى بلغوا ذروتهم بعد العصر بقليل، قابلت العشرات من شباب الأمس، وعشرات من الذين فارقونا بالأمس بعد صلاة الجمعة بساعة أو اثنتين، كل النخب وقيادات الأحزاب والحركات أيضا حاضرة ومستقرة

في الحديقة الدائرية بوسط الميدان. لم يستهوني الوقوف عند أحدهم إلا ذلك الرجل الذي سررت إذ ما رأيته، تلك الشيبة التي طالما تطلعت إليها على المنصة أشد ما تكون في ثوريتها، رغم ما يتعارض معي من أصول في فكر الدكتور محمد سليم العوا إلا أنني أبجل هذا الرجل.

قبل المغيب بدأت حركة غريبة تسود الميدان، كان الجميع يتحدث في الهاتف، والجميع يبدي علامات التعجب تارة والهلع تارة أخرى، الجميع يتناقل الأقاويل ويردد ما يزعق به هاتفه: الحقونا.. البلطجية داخلين علينا.. الحرامية هينهبوا الحي.. البيوت تحتاج إليكم.

كان الكلام أكثر من كونه إشاعة، والدخان أكبر من كونه بلا نار عظيمة.. دقائق ورن هاتفي أيضًا، تحدثت والدتي بصوت هادئ: ستبيت وأخوك عندك الليلة؟

- أعتقد ذلك.

- طيب أنصحك بالعودة، المدينة في رعب، والكل متأهب، تعال الليلة وفي الصباح اذهب مرة أخرى، يحسن بنا أن نكون مع بعضنا الليلة.

رويت في الكلام قليلًا بعد أن أغلقت هاتفي، أطرقت لحظات ثم رفعت صوتي في الميدان ورحت أهتف مع الثائرين: هنبات في الميدان بينا يا جدع الجبان جبان والجدع جدع.. ومع دخول حظر التجول والاطمئنان على أن قوة الميدان ما زالت متماسكة قررت العودة مع أخي إلى البيت، علني أجد ما افتقدته في الشوارع، أمس، أريد أن أشعر بالثورة خارج الميدان أيضًا.

ركبنا المترو من محطة جمال عبدالناصر، قطعنا تذكرة من غير طابور، لم يكن المترو خاويًا، ولكن كنا الوحيدين من قطع تذكرة، الجميع كان يقفز على البوابات، والبعض كان يعبر حتى من على القضبان ، ساءني

الوضع للغاية، تكظمت على مضض ومضينا.
وقفنا نصف ساعة عبثًا للحصول على مواصلة من المترو إلى مدينة نصر، أتى «ميكروباص» يبدو أن تراخيصه منتهية منذ قرن مضى، ركبنا مضطرين. لم يكد يقطع شارعًا حتى رأينا في أول الشارع الآخر ثلاثة شباب يعترضون الطريق بأسلحة بيضاء، صدمت للحظة.. أفعلًا الأمر ليس إشاعة؟! زادت صدمتي عندما وجدت السائق يقبل عليهم بكل ثقة، ويقف بهدوء، وأنا أترقب، وفجأة: أخرج بطاقته ووجه الحديث للراكبين، يا جماعة كلو يطلع بطاقته.
كان هذا هو المشهد الأول للثورة خارج الميدان، الشباب اليوم يقومون بدور ضباط الشرطة بالأمس، ارتحت قليلًا للفكرة، تساءلت كيف يمكن نشرها وتعميمها، لم يقف تساؤلي كثيرًا دون الجواب. بعد أقل من مائتي متر وجدنا كمينًا آخر؛ وبعد مائتين أخرى وجدنا ثالثًا ورابعًا وخامسًا.. وصلنا أخيرًا الحي السابع.
وقفنا مرة أخرى ننتظر مواصلات.. لا مواصلات.. قررنا المسير، منظر الشباب المنتشر بطول الطريق بدأ يستفزني، الأمر ليس بهذا التهويل، كل هؤلاء مسلح، كل هؤلاء يفتشون، ولم أر مجرمًا واحدًا.. المدن ليست كالقرى وأهل المدينة في الغالب لا يعرفون بعضهم بعضًا. كيف سيقيّم هؤلاء الشباب الوافد من الساكن، أعود فأقول: الكل يحمل سلاحًا؟ من أول رجل «كنبة» بيتهم، إلى الساطور والسكاكين وأسياخ الحديد المقتلعة من سور حديقة أحدهم.
وصلنا إلى الحي السويسري وجدت صديقي أنس ومصعب يجمعان الشباب للتوجه إلى التحرير مرة أخرى، شاركوني نفس حالة الاستياء من الهلع الزائد، ورويا على سمعي مزيدًا من قصص السطو والنهب المسموع

عنها دونما دليل واحد.

أكملنا طريقنا، لم نبتعد عنهم سوى عشرة أمتار حتى سمعنا صياحًا وجلبة، لم أعرها انتباها ككل الصيحات التي سمعتها الليلة طوال الطريق، فجأة خالط الصيحات صوت غريب عنها، إنها طلقات نارية، طلقات آلي، درت بعيني إلى الخلف قليلًا، قبل أن أنحرف بحركة أكروباتية بأخي وصديقه قفزا خلف سور طوبي لحديقة على الرصيف الذي كنا نسير عليه تفاديًا للطلقات المنبعثة من عربة نصف نقل تقل شخصين يفتحان النار على مصراعيها.

التقطت أنفاسي بعد أن أكملت السيارة المسرعة طريقها، لقد كدنا نلقى حتفنا الساعة، ما هذا؟ من هؤلاء؟ يبدو جليًا أن غرضهم ليس سرقة شخص ما، ويبدو جليًا أن تلك الدقائق كافية لإيقاظ سكان مدينة نصر عن بكرة أبيهم حتى الصباح لاعنين المظاهرات والمتظاهرين، بل ومصر الجديدة والمعادي أيضًا.

لم تبتعد السيارة مائة متر حتى كانت في واجهتها مدرعة عسكرية، لم تحسن أن تستدير بسرعة لثقلها، استدارت بصعوبة ولكن قاطع المشهد عربة «سيات» صغيرة مسرعة بها ثلاثة شباب بأسلحتهم البيضاء يكرون خلف العربة المطلقة للنار، نظرت للمشهد بدهشة وعناية.. هؤلاء الشباب لم يواجهوا طلقات الشرطة يوم الجمعة، ولم يذهبوا إلى الميدان. إنهم الليلة يعرفون طعم الثورة مثلنا، لقد أتت لهم فلول الشرطة إلى عقر دارهم، لتثويرهم، بالطبع لم يكن هذا مقصدهم، لكن هذا مآل الأمر، أي غباء هذا!

بالفعل لم تدخل هذه الترويعات عند الأهالي مدخل أن هؤلاء بلطجية أو مجرمون، كان التخويف في كل منطقة قائم على أقرب منطقة عشوائية

لهم، سيخرج عليكم سكان «الهجانة» يا أهل مدينة نصر، كما خرجت «بولاق» على الزمالك. عرف الجميع ساعتها بعد سماع دوي النار أن الشرطة وحدها هي من تستطيع فعل هذا، وأن وجوهًا أخرى أشد كراهة لم تكن على بال عموم الناس، ستسدي لنا الأجهزة الأمنية خيرًا في إبدائها لهم وجهًا بعد الآخر.

عندما وصلت إلى البيت كان الجميع متحفزًا أيضًا، أخذوا يسألون عن أخبار الميدان ومن به وما حوله، وأخذت أسالهم عن أحوال المدينة وما سمعوه أو شاهدوه. قطع حديثنا صوت مكبر مسجد الحي: يا إخوانا، الناس تفتح أنوار البلكونات عشان البلطجية يعرفوا إن المدينة كلها صاحية..

فشلت محاولاتي في إثبات فكرة لامبالاتي تجاه ما يحدث، استسلمت وأخذت العصا ونزلت إلى الشارع قليلًا، جلست في هدوء أفكر فيما آلت إليه الأمور، أندم على أن عدت للبيت وتركت الميدان. وفي الوقت نفسه أشعر أن هذه الربكة الأمنية جعلت كل شخص له دور – إجباري – في هذه الثورة، وأن المئات الذين رأيتهم وأنا خارج من الميدان الليلة يحاولون حمايته قد تحولوا لآلاف تحرس كل شارع في مصر. الجو أخذ يوغل في البرودة، الرجال بدؤوا يتململون من طول الوقوف، صعد بعضهم إلى شققهم وأحضروا كراسي وأحيانًا أكوابًا ساخنة من شاي أو فناجيل من قهوة.. بعض الشباب جمع أعوادًا من الخشب وأشعل النار ليتدفأ، كل نصف ساعة ينقطع هذا الجو الحميمي بصياح أحدهم في مكان ما من المدينة، يجري نصف الناس، والنصف الآخر يشير بيده: اهدوا خلاص ما فيش حاجة!

الأحد – ٣٠ يناير

نزلت مبكرًا صباح اليوم التالي، افترضت أن هناك الآلاف باتوا ليلة أمس في التحرير ينتظرون الآلاف الأخرى التي انسحبت لحماية البيوت حتى يتبادلوا مواقعهم. الشارع ما زال فيه بقية من ليل أمس، بقع الرماد المنطفئة من أثر الجذوات المشتعلة ليلًا، الألواح المعدنية الطويلة والحجارة الضخمة وأكياس الرمل التي تعترض الشارع.. أحاول زحزحة بعضها حتى تمر السيارات، نفر قليل من الشباب الذي واصل منذ الأمس يتثاءب ويترقب طلوع الشمس وانتشار الحياة مرة أخرى.

لم أجد أي مواصلات في الشارع الرئيس، سرت على أقدامي عدة محطات حتى وجدت ما يقلني إلى رمسيس، أنباء إقالة الحكومة وتعيين الحكومة الجديدة، نائب الرئيس الغامض الذي تم تعيينه، الحكومة الجديدة التي تتشكل في تونس، والمظاهرات الوليدة التي بدأت في اليمن، كانت عناوين الصحف مثيرة في أيدي ركاب المواصلات، وثرثراتهم، كنت أستمع إليها وأقول في نفسي، نعم أعرف من صنع كل هذا الذي تتحدثون عنه، أعرف الكثير منهم، أعرف شبابًا أجبر ابن علي على الهرب، ومبارك على أن يقدم أول تنازل فيقيل حكومة ويعين نائبا، ويستمر في حظر التجوال ويحكم مباشرة بالجيش، ثم يغص السؤال في حلقي، أينا سيكسر الثاني أولًا، هل تنسحق المظاهرات اليوم أو غدًا، أم ينكسر النظام غدًا أو بعد غد!

من رمسيس عاودت المشي إلى الميدان.. شوارع القاهرة الصبوحة بنكهة «أصحبنا وأصبح الملك لله» جد رائعة، شارع رمسيس مع الإضافات الجديدة من سيارات الأمن المركزي المحترقة عن اليمين واليسار يبعث في

النفس ما يبعث.

وصلت إلى الميدان.. الشمس بدأ قدحها يعلو، وحرها يوقظ، لم يبت الكثير الليلة الماضية، طفت في جولة سريعة، بدا المكان آمنًا، لاحظت بائعًا متجولًا يبيع «الصميط» للقائمين من رقادهم. قلت في نفسي: الحمد لله لن تأتي أيام المظاهرات على «الغلابة كلهم».. على الأقل لن يكون منهم هذا الرجل.

كانت الشمس تغريني بدفء يذهب قسوة ليل الشتاء اليناير، تخففت من سترتي وتمددت على حشائش الصينية التي تتوسط الميدان، أخذتُ غفوة حتى قرب الظهر. استيقظت لأجد شبابًا يمرون بمخبوزات وعجائن للإفطار.. وآخرين أحضروا أكياسًا سوداء كبيرة وأخذوا يلملمون فضلات ليلة أمس على الأرصفة وفي الحدائق. ازداد شعوري بأن هذا الميدان سيكون رحمًا لمخلوق جميل متناسق منسجم.

بعد الظهر بدأت الأعداد تزداد، ولكنها أقل من الأمس، وبدأت الإذاعة التي ثُبتت، أمس، تهتف لتحمس المتظاهرين أحيانًا، وأحيانًا أخرى تبث الأخبار.. هاجس اقتحام البيوت والفلتان الأمني خف قليلًا عن الأمس، والناس تتناقل الصحف والجرائد وتتوجس من اقتحام السجون..

قرأت خبرًا من جريدة في يد أحدهم: أن تمردًا حدث في سجن وادي النطرون.. أغمضت عيناي وتذكرت ذلك اليوم، عندما زرت صديقي رفعت في ذلك المكان، رأيت الكثير من الإسلاميين: إخوان وسلفيين وجهاد وتكفير. كان أحدهم يشير لي إليّ ويقول: إنه معتقل منذ ٢٠ سنة، أرى معه في الزيارة زوجته وأولاده وقد اعتادوا على المكان كأنه بيتهم الثاني.. مؤكدٌ هم الآن طلقاء إذا كانت الأنباء صحيحة..

تتبرع يا بيه لحسني والحزب الوطني وجدت شابًا يقطع شرودي بهذا السؤال؟

نظرت إلى الكيس الأسود في يده، وإلى ورقة البسكويت الفارغة في يدي، فجدت بها عن طيب خاطر.

انتصف اليوم ولم يحدث أي جديد، الوجوه نفسها، والأصدقاء أنفسهم، والهتافات نفسها ودعوات للإضراب غدًا، ومظاهرات مليونية بعد غد، تُرى هل ننجح في حشد الناس كيوم الجمعة! الوضع الآن أصعب، الناس بدأت تقتنع بإسقاط الحكومة وتعيين عمر سليمان، عمر سليمان ذاك الرجل المسعور، يعتقد البعض أنه رجل صارم حاسم، وآخر معلوماتهم عن عمل المخابرات هو مسلسل رأفت الهجان. بعض المكاسب القليلة قد ترضي الشعب المصري الذي كان راضيًا أصلًا منذ البداية.. طرد هذا الشعور هتاف سمعته لحظتها لأول مرة: لا مبارك ولا سليمان.. دول عملاء الأمريكان، ودمية يرفعها أحدهم على هيئة عمر سليمان يحركه حركة مسرح العرائس.. تنهدت: الآن يمكنني أن أطمئن قليلًا فكل خطوة يأخذونها هناك من ينتبه لها.

آذنت الشمس على المغيب وتجاوزت الساعة حالة الحظر والناس ما زالت منتشرة في الميدان، تواردت الأنباء عن نزول البرادعي للميدان، ما بين مرحب وحانق تباينت ردود فعل المتظاهرين. لم يمر الكثير من الوقت على الخبر حتى دخلت الميدان سيارة جيب سوداء وكان الرجل بداخلها، حيث اكتظ الناس من حولها.

لم أسمع من حديثه إلا شذرات، لكن سمعت الكثير من جدل الناس حوله، فمنهم من يقول: ما جاء به أين كان يوم قتل الشباب، أين كان منذ اليوم الأول؟ وبالطبع التعبير الأشهر: جاي يركب الثورة!! ومنهم

من احتفى بالرجل احتفاء الفاتحين، واعتبره الأب الشرعي للثورة في ظل عدم ظهور أي دور بارز لأي تيار وعدم حدوث أي تغيير في المعادلة السياسية خلال الأشهر التي سبقت الثورة إلا من قدوم البرادعي مصر وتحركاته وحملته التي جابت المحافظات داعيًا للتغيير.
لم أكن أتناقش مع الناس كثيرًا، لم أكن متحمسًا لأن أتحدث مع أحد أو حتى أهتف وقت الهتاف، كنت مستمتعًا بالناس سعيدًا بهم.. أستعد لاستقبال ليل الشتاء الطويل، وأشعر أن الميدان بدا مألوفًا للغاية، ومجموعات من الناس أصبحت تقترب أكثر من بعضها وتكون مناطق معروفة، الإخوان بالطبع قسموا أنفسهم إلى مجموعات بسهولة حسب شعبهم ومناطقهم، والمنصة التي بدأت صغيرة أخذت تكبر الآن، عند كنتاكي بدأت تتشكل نواة فناني الثورة، تمددت على الرصيف المقابل لبناية ١٣ ميدان التحرير، حيث كان مركز الحضارة في الدور الرابع من هذه البناية، وكان العديد من أصدقائنا يستأنسون تحتها بالدكتورة هبة رؤوف وعدد من أساتذة المركز. أخذنا السمر والسهر والتجوال في قضايا السياسة والفكر، فلم ننم حتى هدأت حركة الميدان وانطفأ مذياع المنصة، نمت ورأسي لا يشغله إلا سؤال واحد: كيف سأتوضأ للفجر في هذا الجو البارد؟
عند الفجر كانت الأجواء مهيبة بالنسبة إليَّ، المئات من المعتصمين يقفون طوابير على الحمامات العامة التي كانت في قلب الميدان، أو عند جامع عمر مكرم، أو في الزاوية الصغيرة خلف هارديز، والمئات ممن فرغوا من الحمام يتوضؤون بزجاجات الماء يفرغونها على أطرافهم المطلة من تحت سترات الشتاء الثقيلة. بعد الصلاة، عاد السكون للميدان مرة ثانية، فغفوت قليلًا، ثم استيقظت على حر الشمس.

بدأت الوفود في التكاثر قرب العاشرة صباحًا، وجدنا بعض المارة من غير الثوار بدؤوا في زيارة الميدان كالسائحين، ينظرون في دهشة حينًا وبلاهة حينًا إلينا، ما هؤلاء، وماذا يريدون، يغمغمون بعبارات غير مفهومة في سياق «إلى متى تعطيل حال الناس ومصالحهم» أو يصيحون بشجاعة لحظية «ربنا معاكم» ثم ينصرفون. بعد الظهر، صلينا صلاة الغائب على الشهداء الذين قضوا في الأيام الماضية، وأعلنت المنصة أن غدًا الثلاثاء مليونية كبرى في ميدان التحرير، وأن الجمعة المقبلة مسيرة عظمى إلى قصر الرئاسة. هلل الجميع وصاحوا بالشعار الموحد: الشعب يريد إسقاط النظام.

غربت شمس اليوم مع حركة ونشاط زائدين في الميدان استعدادًا لدعوات الحشد في الغد، بدأت تظهر بعض المصطلحات الجديدة التي أخذت وضعها على مدار الأيام في ذلك المكان، ك»المنصة» مثلًا، أو «التأمين» أو «الإذاعة»، شاهدت في ليلتي الثانية أيضًا ثلاث عربات نصف نقل محملة بالبطاطين الرخيصة تفرغها في وسط الميدان ومجموعة منظمة من الشباب تبدأ في توزيعها على القابعين على الأرصفة، ذكرتني البطاطين بتلك التي يوزعها السجناء على بعضهم في «التخشيبة»، وبالطبع بتلك التي ينام عليها الجنود في وحداتهم، خشنة وذات ألوان رديئة، لكنها تبدو مصرية للغاية ومألوفة كرؤية عربات الفول في صباح شوارع القاهرة.

الثلاثاء — ١ فبراير

لم أر الميدان بهذه الحالة منذ أن دخلناه قبل أول مرة قبل أسبوع من الآن، لكنها حالة تستحق أن تكون ختامًا لهذا الأسبوع أو بداية، اليوم الثلاثاء كثلاثاء يناير، ولكنه في فبراير، والناس يتوافدون من كل حدب وصوب، ويدخلون من بوابات الميدان السبع زمرًا، حتى اكتمل حشدهم عند العصر، فأعلنت المنصة أن عددنا قد جاوز المليون، وضج الميدان؛ وزادت مساحة الأحمر في شريط قناة الجزيرة إلى نصف الشاشة مكتوب عليها مليون بأكبر خط متاح لديهم، ونفرت العروق ورجت الهتافات الميدان والشوارع المفضية إليه، واستمر الهتاف والحماس إلى الليل حتى تناهى إلينا خطابٌ جديدٌ لمبارك بعد قليل. وفي دقائق معدودة، كانت شاشة عملاقة تُنصب في الميدان، والآلاف يتحلقون حولها، وآخرون يتسربون من الميدان إلى المقاهي القريبة التي استبدلت محطات الأخبار بمحطات الأغاني والكليبات، وأصبحت الجزيرة قناتها الرسمية بدلًا من ميلودي!

بدا الحوار كما سابقه، مناشدة للإخوة المواطنين، وإشادة بالمواطنين الشرفاء، وتحذيرًا من القوى الخفية والأجندات الخارجية، وتذكيرًا بالخطوات التي اتخذت، وبالحكومة الجديدة وبدعوة الحوار التي يجريها عمر سليمان. وبدأ الناس في التململ حتى وصل إليَّ «لم أكُن أنتوي الترشح إلى فترة رئاسية جديدة» وكانت الكلمة ككرة طائشة دخلت خط الـ١٨ فطار الناس معها حتى اصطدموا واصطدمت بالعارضة، فصاحت الجماهير صيحة مكتومة، وانتظروا انتهاء الخطاب بفارغ الصبر، الذي أكمله باستعطاف المشاهدين بأن يكمل آخر أيامه في

خدمة بلده ويضمن لهم الانتقال السلمي للسلطة.

كانت الصورة التي انتشرت في الليلة نفسها في كل المواقع المصرية والعالمية هي صورة الأحذية التي تصوب إلى الشاشة العملاقة في الميدان، هاجت الجماهير اعتراضًا على الكلمة، ورأينا أنها غير معبرة عن المطالب، والجميع في نفس واحد أخذ يردد عشرات المرات: ارحل .. ارحل .. ارحل .. ارحل .. ارحل.

الأكبر منا سنًا والأكثر تجربة رأيناهم في تلك الليلة يحاولون مناقشة وجهة النظر في الخطاب، يحاولون إقناعنا أن المكاسب التي حصلنا عليها حتى الآن ليست هينة، وأن المطالب يمكن أن تتحقق بذلك الطريق نصف الثوري نصف السياسي، وأننا نستطيع أن نستكمل مطالبنا بالموازنة بينهما، وأن الإصرار على الرحيل الآن انتحار؛ فليس بعد ذلك إلا المواجهة والدماء، وقد ينقلب الأمر علينا في النهاية.

ونحن ما كان قولنا لهم إلا أننا نخشى أن ينفض هذا الجمع غدا فنُختطف من اليوم التالي من البيوت والشوارع، وتخرج بدلًا منا المظاهرات الأخرى التي نسمع عنها تطالبه بالترشح من جديد، فينزل على رغبة الجماهير مرة أخرى، وينتهي كل شيء. كانت ليلة نقاشات عصيبة على كل حال.

في صباح اليوم التالي، شعرت بحاجتي للذهاب إلى البيت أقضي فيه اليوم وأرتاح قليلًا ثم أعود في المساء، تمشيت من بعد الفجر حتى وصلت إلى ميدان رمسيس بعد الشروق. صادفت لأول مرة منذ ٢٨ يناير بعض رجال الشرطة المرورية عند إشارة رمسيس، نظرت في أعينهم ووجدت فيها انكسارًا لم أره من قبل، بالنسبة إليَّ كان انكسارًا، لأنه بعد علو مزعج وغير مستحق، لكن لو قارنتها بنرات بائع الجرائد أو

سائق الأوتوبيس لأصبحت عادية، رجل موظف يؤدي خدمة ما، وليس إلها صغيرًا على الأرض يخفض ويرفع.

وصلت إلى البيت وتلمست سريري فغرقت في النوم حتى الظهر، استيقظت لأجد أن الإنترنت قد عاد بعد غياب خمسة أيام تقريبًا، وأخذت أتجول في المواقع والأخبار وأرى الصور التي لا تتسع لها قناة الجزيرة، وبينا أنا أقلب عيني بين اللاب توب وشاشة الجزيرة إذ ترتفع أخبارٌ جانبية عن مناوشات بين المجموعات التي كانت تتظاهر اليوم من أجل مبارك والمتظاهرين في الميدان، أين الجيش الذي يقف حائلًا على أبواب الميدان؟ كان الأمر مريبًا لكني لم أعره اهتمامًا في البداية.

بعدها بساعة أو اثنتين بدأت الصور والتغطيات الحية تُنشر، ورأيت البلطجية وهم يدخلون بخيلهم ورجالهم إلى الميدان من جهة التحرير، والمتظاهرين وهم يمسكون بتلابيب راكب الفرس فيردونه أرضًا ثم يكبرون، أخذت أقلب هاتفي وأتصل بمن تركت من زملائي في الميدان ومعظمهم كان يطمئنني بأن الأمور على ما يرام، وأن الجولة الأولى شهدت سحقًا لهؤلاء الهجانة بجمالهم وخيلهم وأسلحتهم البيضاء الرخيصة.

بدأت أتجهز للنزول إلى الميدان، هاتفت أحد الأصدقاء كان في طريقه إلى الميدان، رد عليَّ وهو يلهث ويلتقط أنفاسه بصعوبة بالغة: أحمد، إنهم هنا في كل مكان حول الميدان يقبضون على الشباب ويقطعون كل الطرق المؤدية إليه، أخذوا عددًا كبيرًا منا ويسحلون الباقي بالهراوات والأسلحة البيضاء. قد استطعنا الفرار، لا تأت، لن تستطيع الدخول.

كانت المكالمة كالصاعقة علي، لم أخف هذا الخوف وأنا شاهد في ٢٥ و ٢٨ يناير، الخوف مما لا تشهد أكبر بكثير من الخوف مما تشهده وتعرفه، وإن عظم الأخير وصغُر الأول. كلما تذكرت ذلك اليوم شعرت

بأني كنت جبانًا، وكان ينبغي علي أن أنزل مهما تكن الكلفة، رغم أني تلمست لنفسي طريقًا إلى هناك أكثر من مرة، وهاتفت من أعرفهم خارج الميدان حتى من الإخوان، لكن التعليمات لهم كانت واضحة، لا تأتوا متفرقين الليلة فتُخطَفون، خاصة أصحاب الأماكن البعيدة عن الميدان. كان النداء موجهًا فقط إلى الثوار من منطقة وسط البلد وممن يعرفون جيدًا خريطة المكان ومن أهله، أن يقدموا على الميدان بالإمدادات الطبية والغذائية، فالميدان مغلق من الظهر وقد دخل الليل، والإصابات في ارتفاع.

كانت أصعب ليلة أمر بها منذ بدأت التظاهرات، كان منظر اللهب المتطاير من الأبنية وزجاجات المولوتوف يرعبني أكثر من قنابل الغاز والخرطوش، في الأخيرة نحن في حرب مع نظام يهزمنا أو نهزمه، وقد جربنا أن نهزمه، وفي الثانية نحن في حرب أهلية نوعًا ما، صحيح أنهم مستأجرون من النظام، لكنهم ليسوا عساكر يأتمرون بالانسحاب والتقدم، ويخافون من تحلق خمسة أفراد عزل عليهم حتى لو معهم كل سلاح، من نواجههم الليلة مجرمون في الأغلب طلقاء سجون، غير هيابين، لديهم تصريح مفتوح بالقتل والإيغال في الإيذاء بلا حدود، ودائرة العنف معهم مرشحة دائمًا للاتساع والتمادي. كان كل رجائنا ودعائنا الليلة أن يصمد المعتصمون فقط حتى الصباح.

اتفقت مع جار لي من الإخوان على أن نشحن سيارته بالإمدادات الطبية ونتوجه بعد الفجر مباشرة للميدان، أخذنا إمدادات غذائية فقط حتى لا يُرتاب في أمرنا كثيرًا على الكمائن، فكرنا في الوصول للميدان من منطقة الأزهر والحسين، كطريق غير معهود للوصول إلى التحرير. كان الطريق خاليًا من كل شيء إلا كمائن الجيش العادية والتي لا

توقف أحدًا في هذه الساعة من الفجر، وبقايا رماد وحجارة كمائن اللجان الشعبية، وفور وصولنا إلى شارع الأزهر قابلنا كمين عند مدخل الحسين. كانوا رجال شرطة بزي مدني عرفناهم من النظرة الأولى، لكنهم محاطون بثلة من البلطجية شاهري الأسلحة في حضرتهم، أنزلونا من السيارة وفي لحظة واحدة جهزت نفسي لكل الاحتمالات. أعتقد أن هذا الكمين لو كان لهؤلاء البلطجية فحسب لسفك دمنا استبيحت السيارة وكل ما فيها، لكن الشرطة — واكتشفنا لاحقًا أنهم مباحث من شرطة السياحة — أوقفت هذا الأمر، وطلبت منا بطاقتينا ثم اقتادتنا إلى حجرة تتبع نقطة شرطية صغيرة قرب الحسين. وجدنا في النقطة شخصًا أو شخصين آخرين مثلنا كانا يحاولان الوصول إلى التحرير، بدت أجهز نفسي للاعتقال، وأرسلت رسائل نصية لأهلي أنه تم القبض عليَّ وعليهم نشر ذلك.

كانت الحوارات بين القائمين على احتجازنا مخيفة ومضحكة في الوقت نفسه بالنسبة إليَّ، مخيفة لأنني لا أعرف هل يمكن بالفعل قطع كل الإمدادات بهذه الطريقة عن الميدان ثم اقتحامه بالكلية في ساعات الصباح وإنهاء الأمر؟ ومضحكة لأنها مليئة بالأساطير والخرافات عن الميدان والمعتصمين فيه من شمّامي الكلَّة والمستأجرين بالدولارات ووجبات الكنتاكي، سمعت تلك الترهات لأول مرة مباشرة من بشر يؤمنون بها بالفعل.

لبثنا هناك ساعة أو اثنتين نجلس القرفصاء وكل حين يمر علينا ضابط فيسبنا ويتوعدنا ثم يمضي، وجرى تحقيق قصير مع ضابط برتبة صغيرة في غرفة مجاورة شبه محترقة لم أتملص فيه من شيء، وقلت له نعم ذاهبون بالطبع للتحرير. وعندما سألني هل لك سابقة اعتقال، قلت له بالطبع

لي وأخذت أشرح له، صدم الرجل لثوان ثم أعادني إلى الغرفة الأولى.
بعدها بنصف ساعة تقريبًا أمرنا بالتحرك حيث حضرت عربة شرطة وركبنا في «البوكس» وبدأ يسير بنا في شارع خان الخليلي ثم دخلنا إلى شارع المعز، وكان من الغريب جدًا أن يسير بنا في المعز ذلك المكان الذي أعشقه ولي فيه من الذكريات ما لي، لكن ما إن وازينا مجموعة قلاوون. وكانت السيارة تتمايل بنا مبطئة بطبيعة الحال حتى برزت لنا مجموعة من النسوة ذوات العباءات السوداء الرخيصة كن يجلسن قبالة باب مدرسة قلاوون، وقد بدا عليهن أنهن يعرفن بأي جريرة قد أخذنا لأن السباب في الثورة والثوار وتعطيل حال البلد وخسارتهن وخسارة أزواجهن للعمل وكسب العيش قد بدت من أفواههن أغلظ العبارات حتى اقتربت واحدة منهن، وبصقت بصقة قوية نالني منها في وجهي ما نالني وتابعت البصق والسيارة تبتعد عنهن.
الغضب .. الألم .. الحنق .. الكره .. الإهانة .. الشفقة .. الرثاء .. مشاعر متراكبة هيجها في نفسي هذا الموقف، هؤلاء النسوة ربما هن زوجات لهؤلاء الرجال الذين نسميهم البلطجية الذين استغلهم الأمن في الهجوم على الميدان، تلك السيدة التي بصقت على وجهي لم تأخذ أمرًا من أحد بإهانتي، آه ربما أخذت دافعًا من برامج التوك شو والإعلام لو كانت تشاهد غير الجزيرة والعربية، ربما هي تعلم الآن علم اليقين أن هذه التظاهرات هي شر محض لها ولأولادها، وهي معرفة قائم عليها الدليل مسبقًا بقطع الأرزاق، ووقف حال البلد.

انتهينا إلى نقطة للشرطة العسكرية قرب العباسية، الجيش يفضح تمالؤه مع السلطة منذ الأمس، منذ أن سمح للبلطجية بدخول الميدان

والهجوم علينا، وها هو التنسيق على أعلى مستوى، بعد أن أحرقت أقسام الشرطة جميعها ولا يوجد مقار احتجاز لديهم، نُسلم للشرطة العسكرية مباشرة، لكن الأمر لم يستغرق نصف ساعة حتى تحول الأمر من إجراءات تسليم إلى إجراءات إطلاق سراح وسط تعجُّب الجميع بمن فيهم رجال الشرطة الذين سلمونا. يبدو أن الخرق اتسع على الراتق، وأن الشرطة العسكرية لا تملك الآن من السعة بالاحتفاظ بكل من يأتيها من طرف المتظاهرين والثوار.

خرجت من هذه التجربة القصيرة وأنا واثق كل الثقة أن هذه التظاهرات أصبح اسمها ثورة متكاملة بحق، وأنها ستمضي حتى نهاية مبارك حتمًا، وأن فرص رجوعها إلى الخلف أصبحت ضئيلة للغاية، اتصلت بأهلي لأطمئنهم عليَّ وأكملت طريقي إلى التحرير.

وجدت الميدان على وجه غير الوجه الذي تركته، على البوابات كان التأمين لأول مرة محكمًا، تفتيش ذاتي ومعاينة للبطاقات وتفرس في الوجوه، كان وقت الظهر قد اقترب وجدت الأرصفة لأول مرة ممتلئة عن آخرها بمفترشيها، لم يكونوا شبابًا أو رجالًا فقط ولكن عائلات بأكملها، يبدو أن الإخوان حشدوا من كل المحافظات وجاءوا إلى هنا منذ الصباح، الشباب الذين قابلونا على البوابات أيضًا من هذه الوفود الصباحية، فوجوههم تبدو قريبة العهد بالميدان. ما إن وصلت إلى منتصفه حتى صافحت عيناي عشرات الوجوه المربّطة باللواصق البيضاء الطبيقة والضمادات الملتفة على الجباه والسيقان والسواعد، وبقايا قطرات الدماء الجافة المتناثرة على الخيام والأرصفة.

كان الضرب رغم كل هذا العدد في الميدان ما زال مستمرًا من جهة المتحف، الأرض هناك مغطاة بالحجارة وكسر السيراميك والبلاطات

المخلعة من الأرصفة وقطع المواسير الحديدة، وكل ما استطاع الطرفان أن يقذف به الآخر، مرابطو الصف الأول ما زالوا يمسكون بالحجارة وبعضهم قد صنع خوذًا من أوان معدنية نحاسية أو بلاستيكية اشتهرت صورها فيما بعد، وبين الصف الأول وجسد الميدان عشرات الشباب في صفوف يحملون الجرحى إلى المستشفى الميداني الذي دهشت عندما وجدت حجمه قد زاد عشرة أضعاف تقريبًا في يوم وليلة، واستقر خلف «هارديز» بجوار الزاوية الصغيرة التي لم تعد صغيرة منذ دخول الميدان، وأصبحت مرافقها تئن من آلاف الزائرين آناء الليل وأطراف النهار كل يوم.

سمعت يومها حكايات لم تروها الصفحات ولا المواقع ولا التقطتها كثير من الكاميرات، لم تكن لقطة الخيل والجمال الشهيرة هي المشكلة أبدًا، لم يكن هجوم الصباح كله هو المخيف، بل كان هجوم الليل. كان وابل النيران والزجاجات الملتهبة المقذوفة من فوق أسطح بنايات التحرير القريبة من مدخل المتحف والذي أخذ يزحف حتى كاد يبلغ منتصف الميدان، وكانت المناوشات بطول ليل الشتاء البطيء وحرب السيطرة على أسطح هذه العمائر بالأسلحة البيضاء بين الثوار والبلطجية، لم يكن الأمر مجرد محاولة، بل كانت خطة كاملة وفشلت.

بدأت ليلة الجمعة، وشعر الجميع بالضغط المتزايد على بوابات الميدان، الآلاف من المحافظات أنهوا أعمالهم وتجهزوا للمبيت في الميدان على الأقل الجمعة والسبت يومي الإجازة، فضلًا عن القاصدين لمد هذه الإجازة أسبوعًا أو أكثر كل حسب ما استطاع، كل من يدخل يقصد أول شاب مربوطة رأسه أو عينه أو ذراعه فيقبله بين عينيه ويشد على يديه ثم يذهب ليأخذ موضعه من الحشد، بدا لي أن الدماء التي سالت

بالأمس قد روت جذوة الثورة من جديد بعد ما تباعدت الأيام، وبدأ بعض المتظاهرين في الانشغال بكلام الخطابات ودعوات الحوار مع النظام، وحتى النظام نفسه بدأ يقدم القرابين الحقيقة أكثر بدلًا من كلام الخطب، وسمعنا عن قرارات النائب العام لأول مرة بمنع للسفر وإقامة جبرية لعدد من قيادات الحزب الوطني وكذلك لحبيب العادلي نفسه. كنا نستقبل هذه الأخبار بين عدم تصديقنا خطوات مثل هذه لم تكن تخطر ببالنا من قبل، وبين عدم رضانا بأي خطوة أقل من تنحي مبارك ورحيله بشكل كامل.

الجمعة — ٤ فبراير

مع شروق الشمس كنت أسير على كوبري قصر النيل، أدفئ جوفي بقطع البطاطا الساخنة وأشهد بشائر الوافدين إلى الميدان. كانت مشاعري ما زالت ملتبسة، وموقفي من نفسي تجاه اليومين الماضيين ما زال متخبطًا، لماذا لم أتجاسر وأنزل من البيت على أي حال أول ما سمعت بأخبار الهجوم، ولماذا لم أرابط في الصف الأول بعد أن دخلت الميدان ظهر الأمس. وكانت المناوشات قد تجددت في بعض الثغور من جديد، هل أنا جبان أو مجرد مدعي الثورية، أو على الأقل جزءٌ لا أثبت وقت الفزع، أم أن ما حدث كان مجرد قدر وحسابات للمكسب والخسارة في الحالة الثورية نفسها.
لقد قابلت العديد من الأصدقاء والزملاء الذين باتوا في الميدان ليلة الخميس، ورغم هذا لم يكونوا كلهم مهدفي نحورهم وصدورهم للهجوم، كان الإخوان منهم من يتصدون لذلك، وأكثر الحناجر الثورية كانت

عند المنصة تحمسهم. كان هذا حال الكثير ممن أعرفهم عامة في الميدان، بعضهم في مجلس شباب الثورة كما سموه منذ أيام، وبعضهم في شعبته مرابطًا عند بوابة من بوابات الميدان، وأنا لم أكن لا في هؤلاء ولا في هؤلاء، وبت أشعر على غير العادة بعدم الرغبة في فعل أي دور مميز في هذه الثورة، فوق الانتظار هنا مع الناس، ومراقبة كل شيء.

في طريق العودة، استقبلتني أكبر لوحة من القماش في الميدان علقت على أبرز بناية فيه تقع بين مدخلي باب اللوق وطلعت حرب، صفراء فاقع لونها تلهب الناظرين ومكتوب عليها مطالبنا بخط واضح وستة من هذه المطالب تحتها: إسقاط الرئيس، بخط كبير، وحل مجلسي الشعب والشورى، وإنهاء حالة الطوارئ فورا، وتشكيل حكومة وحدة وطنية انتقالية، وبرلمان منتخب يقوم على إجراء تعديلات دستورية لانتخابات رئاسية جديدة، ومحاكمة فورية للمسئولين عن قتل الشهداء، ومحاكمة عاجلة للفاسدين وناهبي ثروات الوطن. أمام اللافتة في إشارة الميدان كان الشباب يعلقون دمية بحجم إنسان تقريبا على مشنقة وكلمة مبارك مكتوبة بخط واضح على ظهر الدمية.

كانت أضخم تظاهرة في الميدان منذ الثورة، كانت أكبر صلاة جمعة شهدتها من قبل، كان كيوم عيد لا تظاهر واعتصام، كانت صور الميدان قد بدأت في الانتشار بعد يومين فقط من عودة الإنترنت للمنازل والشركات وتداول الناس لها، شجعت صور الميدان العديد من العائلات على زيارة الميدان. كانت الدهشة تعلو الوجوه، تستطيع بسهولة أن تميز الوافدين بغرض الاستكشاف من المقيمين في الميدان من الثوار القدامى من الشباب الجدد، الهتافات اتجهت أكثر إلى التلوين والتنويع والسجع، واللافتات إلى النكت والسخرية ورسوم الكاريكاتير، وصافرات الكرة

الكبيرة والأعلام الكبيرة والألعاب النارية مع حلول الظلام قد عززت من كون هذا الأمر أكبر من متظاهرين وثوار.

السبت — ٥ فبراير

أزعم أن حركة الجرائد لم تشهد انتعاشة كالتي شهدتها في أيام التحرير من بعد ٢٥ يناير، الجرائد كلها قومية ومستقلة ومعارضة، وأن بائعي الجرائد المتوسلين لشراء بضاعتهم على الأرصفة وفي الإشارات في الصباح الباكر من كل يوم كانت الأعداد تتخطف منهم، وكطقس يومي كانت الحلق تتشكل في الصباح بالميدان وكل حلقة حول صحيفة ما يقرأ أحدهم بصوت عال أهم ما ورد فيها. وكانت في هذا اليوم الأخبار بدأت تكون أكثر جرأة، تنحى جمال مبارك عن منصبه في لجنة السياسات، وأخبار أكثر جدية في التحفظ على حبيب العادلي، ومطالب لأمريكا أكثر وضوحًا بانتقال سلس للسلطة في مصر، والخبر الأسعد بينهم وهو انفجار في خط الغاز بين مصر وإسرائيل، والفاعل غير معلوم.
وكان الجدل السائر بين خواص الثوار يومها هو دعوات الحوار التي تجددت مرة أخرى بعد هدوء يوم أمس، وترقب لجلسة مع عمر سليمان غدًا، وبدأت المناوشات المعتادة بين قيادات الإخوان التقليدية وبين شباب التيارات الأخرى، تلك الجدالات التي أعرف منطق كل طرف فيها جيدًا منذ أن كنت طالبًا في عامي الأول بالجامعة قبل ٦ سنوات.
في نهاية اليوم، تجددت الدعوات لمليونية أخرى، يوم الثلاثاء المقبل، على أن تكون هناك بالطبع دعوة لمليونية أكبر، وربما مسيرة لقصر الاتحادية

يوم الجمعة المقبل إذا لم يتنحَّ الرئيس قبل ذلك، تُرى كم نصمد أو كم يصمد هو لا ندري، على كل حال فقد تم إطلاق اسم «أسبوع الصمود» من يومنا هذا وإلى أن نصل إلى الجمعة التالية. كان الهدف هو إشعار النظام أن الاعتصام لن يكون له أي سقف تحت أي تفاوض محتمل.

أسبوع الصمود

في صباح يوم الأحد كان مشهدًا مميَّزا، العشرات من الموظفين ذاهبون لأعمالهم لأول يوم بعد توقف لمدة أسبوع تقريبًا، البنوك فتحت أبوابها وكذلك المصالح الحكومية، وقف بعض موظفي مجمع التحرير الذين ظنوا أنهم سيدخلون للمجمع ويستأنفون عملهم فعلًا في حالة ذهول. كانت الهتافات تعلو من حولهم وأسماعهم لا تكاد تصدق ما يُقال، وألسنتهم ما زالت جامدة لا تعرف بما ترد أو كيف تردد، بعد ساعة أو بضع ساعة انصرف أكثرهم مرة أخرى من حيث جاءوا ضاربين كفًا بكف.
كل شيء كان مكررًا ومعادًا في هذا الأسبوع، الهتافات والمليونيات، طوابير الحمام ونقاشات الليالي الطويلة، ورديات التأمين وأوراد الصباح والمساء، المنصات والكلمات والسجالات، الأخبار اليومية في الجرائد والمواقع حتى خطاب مبارك الثالث كان هو أيضًا مكررًا إلى حد كبير، ربما الجديد هو أغنية «في كل شارع في بلادي» لكاريوكي، سمعتها للمرة الأولى وأعدتها عشر مرات على الأقل، على العموم هذه هي فكرة الصمود في الأغلب أن تقف مكانك أطول فترة ممكنة دون تطوير محتمل في الهجوم.
في وسط الأسبوع وبالأخص في يوم ٨ فبراير بدأت أفكار تطوير

الهجوم، الفكرة المؤجلة في التحرك بمسيرة مليونية للاتحادية بدأت في الظهور مرة أخرى، توسيع نطاق ميدان التحرير تجاه مجلسي الشعب والشورى، حيث بدأ الميدان بالفعل يضيق على المتظاهرين. وتقدمت مجموعة بالفعل في اليوم التالي واحتلت بعض المواقع هناك؛ وبحلول يوم الخميس كانت خيام منصوبة بطول سور مجلس الشورى معظمها لشباب الثورة بعيدًا عن صخب الميدان، كخطوة رمزية أولية لتوسيع مدى الاعتصام.

دخول الميدان مساء الخميس ١٠ فبراير أو الخروج منه كان مهمة انتحارية، وبالرغم من ذلك فقد قمت بهذه العملية ثلاث مرات حيث كنا نعد لحفل زفاف صديق لنا آثر أن يقيمه في ميدان التحرير كما العشرات من الأفراح التي أقيمت في هذا الأسبوع، هذه الليلة خصيصًا كان هناك أكثر من ١٠ أفراح تقريبًا في الميدان. كانت منصةٌ رابعةٌ قد تم تركيبها صباح اليوم قرب مدخل قصر النيل، وعدد من الحمامات الخشبية المجهزة يتم تثبيتها في الشرائح المزروعة داخل الميدان، أو التي كانت مزروعة ومُحي أثر الخضار من وقع الأقدام والمبيت والخيام، أصبح الميدان كما أطلقنا عليه «دولة» بكامل مقوماتها، وإدمانًا لا نكاد نشعر معه أننا نريد أي شيء خارجه.

الجمعة ١١ فبراير

كان هذا هو اليوم المنتظر لانطلاق المسيرة لقصر الاتحادية، لم يكن لدى الكثير من التوقعات، غاية ما يمكن فعله هو إقامة اعتصام آخر مصغر عند أقرب نقطة من مصر الجديدة؛ فالطرق المؤدية لها كلها

مغلقة بحوائط متتالية من الأسلاك الشائكة والحواجز الإسمنتية القصيرة.
بعد انتهاء صلاة الجمعة، أعلن أن المسيرة ستكون بعد صلاة العصر حتى تخف حرارة الشمس قليلًا، ولكن مع أذان العصر بدأت أعرف أن أكثر من تظاهرة بالفعل بدأت هناك بالقرب من مداخل مصر الجديدة، وأن المسيرة لن تتحرك على الأغلب من التحرير مع كل هذه الأعداد الهائلة التي لا تعرف أولًا من آخر. توجهت إلى أقرب نقطة أعرفها، أخذت ساعة حتى أستطيع الخروج من الميدان والركوب إلى رمسيس ومن رمسيس إلى صلاح سالم. عند دار الحرس الجمهوري نفس النقطة التي تحولنا عندها وانحرفنا من طريقنا يوم ٢٨ يناير إلى التحرير مخلفين جحافل من الشرطة والجيش يحمون الطريق إلى الرئاسة.
كانت الشمس قد غابت منذ قليل، والليل بدأ في الدخول، رأيت على بعد أمتار الأعداد بالمئات فقط والهتافات تتعالى بالمألوف منها على مدى ١٨ يومًا، وفجأة سمعت صيحات عالية وقفز الجميع قفزات جنونية في الهواء كأنها لدغة ثعبان واحدة، لم أتبين لوهلة ما الذي يمكن أن يكون قد حدث. ولكن بعد جزء من الثانية عرفت أنه بالتأكيد ذلك الخبر الذي ينتظره الجميع، كان صديقاي أنس ومصعب في الحشد وصلت إليهما بسهولة وتعانقنا عناقًا هستيريًا مع أصوات وصيحات مبهمة غير مفهومة وصياح من الجميع وأصوات صفير وأبواق سيارات، وتذكر أن علينا الاحتفال في دولتنا هناك في التحرير لا هنا، فأخذنا نتحرك أفرادًا ومجموعات إلى التحرير مرة أخرى.

السماء مضاءة بالكامل بكل لون، الضوء يتحرك بقعة نور واحدة ثم

يتوسط الأفق فينطلق منه النور أشعة حمراء وصفراء وخضراء، أغاني النصر الصادحة تضج في أكبر حفل جماعي يمكن للمرء أن يراه في حياته، حاولنا الدخول من أكثر مدخل نظن أن زحامه مقبول. كان مدخل قصر النيل. ما زلت أتذكر الوجوه المستبشرة التي كانت تدخل أفواجًا في بهجة وتبتل وخشوع وما زلت أتذكر الوجوه الواجمة من ضباط الجيش وعساكره التي ما زالت مرابطة في مداخل الميدان وهي ساكنة لا تتأثر ولا تتحرك بأي شيء مما يحدث حولها. وفي هذا المشهد المهيب إذا بهتاف أسمعه لأول مرة بدأ يتردد حتى عم وسار به الجميع: الله أكبر .. الله أكبر .. الله أكبر لا إله إلا الله، الله أكبر كبيرًا والحمد لله كثيرًا وسبحان الله بكرة وأصيلاً، لا إله إلا الله وحده نصر عبده وأعز جنده وهزم الأحزاب وحده، لا إله إلا الله. كان هتاف العيد، في ليلة عيد، الهتاف الذي يردده ملايين المصريين من الجوامع والزوايا والشوارع والحارات أول يوم في عيدي كل عام، وبعد ما ردد الجميع التكبيرات ثلاثًا إذا بالجميع يهتف هتافًا مزلزلًا بحق: الله.. وحده.. أسقط النظام.. الله.. وحده.. أسقط النظام.....

كان هذا هو الفصل الهين من الثورة، وأنا خارج من الميدان ليلة التنحي. كنت أفكر في ذلك الطريق المخيف الذي وضعنا أقدامنا فيه. كنا بالأمس لا نملك الخيار ولا نمسك بزمام الفعل ولا نعرف السقف ولا نهمل هم المسئولية بحق، أما من الغد، من الليلة، فكل ساعة وكل خطوة نملكها ومسئولون عنها مسئولية كاملة. خرجت من الميدان كمن يتذكر أن غدًا يلقى في صباحه امتحانًا طويلًا لم يعد لم بعد، ياه.. كل هذه الجموع تنتظر ما الذي سنقدمه في القادم عوضًا عن كل هذا الضجيج في إتلاف القائم، هنا بدأت الثورة ولم تنته بعد.

الدماء التي تنزف

يمنح المرء مقداره من النزف كما يمنح قدره من الحياة، كل ما هناك أن البخل بالمـُقدر أو الجذع عليه .. متلفٌ لباقي الحياة.

الدماء التي تنزف

٢٠١١/٨/٢٠

عندما تقرأ في التاريخ وتستعرض مسيرة الأمة – والأمم كلها – فتلحظ اختلاط الحبر المكتوبة به سطورها ولون الدماء ، وتنتبه لمنحنى حضارتها المخضب بنفس ذاك اللون القاني الفريد ، يجب أن يتملكك العجب من سكون تلك الحركة المخضبة ، ويتلبسك الجزع من سقم ذاك الجسد بدمائه الفاسدة المحبوسة داخل أودجته المنتفخة والورمة ، ولكن لم يكن هذا عجيبًا في زمن مضى وكان يقول فيه الناس عن أميز مزايا أشهر حكامهم : يكفي أنه جنب بلادنا الحرب في عهده !

منذ آخر مرة نزف فيها دم الأمة بفخر (في العاشر من رمضان) بغزارة وزكاوة – بغض النظر عن آثار الحرب ونتائجها السياسية – أصيب قطاع كبير من الأمة بداء "حفظ الدماء" حتى أرخص كل حاجة لدينه ولعرضه ولإنسانيته حتى .. مقابل أن يحتفظ ببعض الدم الفاسد !

نعم كانت هناك جروح مستمرة النزيف كفلسطين وأحيانا نجد جراحا تفتح في أفغانستان .. العراق أو كوسوفو.. البوسنة والهرسك.. كشمير، لكن كلها كانت دماء تنزف كضريبة عن بقية الدماءِ الآسنة المحفوظة لا خيار لنا بها، أي لم تُبذل على ثغر ولم تدفع في حرب نحن آخذون بناصيتها ، إنما نُزعت منا انتزاعا .

كنا على مدار خمس أو ست سنوات – من ٢٠٠٥ – نتظاهر في الميادين ونهتف لأول مرة يسقط حسني مبارك ، قيلت لأول مرة

وابتلعتها أجهزة الدولة والأمن ، فعلمت ساعتها أنه لن يسقط .. علمت أن سقوطه مرتهن بتوجيه هؤلاء - الذين يرفعون الهراوات والعصي - وفوهات بنادقهم نحونا، مرتهن بسيلان الدم الأول .

وليلة الخامس والعشرين (من يناير) كنت أدعو الله جاهدا، لا أن يحفظ دمي ودم الشباب ، ولا أن نعود لبيوتنا سالمين، بل "أن تُريق منا الدماء"، أن يتخذ الله الشهيد الأول ، الشهيد الذي يفتح بدمائه باب جهنم على شانئيه ، وأبواب النعيم على حاملي نعشه الطاهر ، الذي تفتح له أبواب الجنة في السماء بقدر ما تفتح لنا أبوابها في الدنيا .

كنت أخاف من الاعتقالات ، من التعذيب في الأقبية ، من التضييق في الأقوات ، من تكسير العدسات ، لكنني يوما لم أخف من الدم المهراق لأنه يعني أن نقطة الاحتدام الثوري قد انفجرت وأن كل النقاط بعدها لا تلبث أن تشم عطر الدماء حتى تنفجر واحدة تلو الأخرى كشريط ملغم طويل يحيط بجسد الدولة والأمة في كل مرفق وكل زاوية .

اليوم نجد أن أمتنا فجرت أخيرا دماءها الآسنة في ربوعها ، أنها أخيرا لم تعد ترخص غاياتها ، أن دماءها أضحت اليوم في جسدها أكثر صحة، الباقي منها والذاهب، كل له وجه صحته الذي ينفق فيه .

اليوم بقدر ما ألتاع وأنا أرقب مصائر ومصارع قومي هنا في مصر أو في ليبيا واليمن وسوريا ، بقدر ما يزداد يقيني باستعادتنا لصحة منحنانا ، بل وصحة معتقدنا الذي يداخله النفاق إذا لم يغز واحد — في صرحه المتطاول عبر الزمن والرقعة — أو لم تحدثه نفسه بالغزو ، إذا دنت آجالهم وليس في أجسادهم أثر على جرح سالت دماؤه في سبيل الغاية التي من أجلها يحيون.

لقد عشنا آخر سنتين — بخاصة — مع نزيف الدم الغزاوي ، ذلك الدم

الذي جعل من أرض غزة أطهر بقاع الأرض قاطبة ، وهذه الأيام رأيت ريح غزة تدور وترفرف حول المدائن المحيطة، رأيت مسك الدماء الذكية يفوح في سيدي بوزيد وتونس ، وفي القاهرة والسويس ، وفي بني غازي والبريقة والزاوية ، وفي تعز وحضر موت ، وفي درعا ودير الزور والبوكمال وحمص وجسر الشغور واللاذقية .. هتفت صيحة الشهيد الذي تمر ذكراه في هذا الشهر بعد أيام .. هتفت لنا ولهم:

عهد على الأيام ألا تهزموا .. فالنصر ينبت حيث يهراق الدم

في حيث تعتبط الدماء فأيقنوا .. أن سوف تحيوا بالدماء وتعظموا

الدماء التي تنزف .. هي الفخار الأوحد لجيل سيجلس يوما بجوار أبنائه وأحفاده وهم يشاهدون وثائقيات ثوراتنا وتلتمع في أعينهم الأمواه وتنتفض في عروقهم الدماء .. لتصل مسيرة لا تتصل إلا به .

الثائر الأزرق

على حواف الأرض التي نطأها، توجد ثورة كامنة، توشك كل صباح أن تؤمر فتثور على بلادتنا..

الثائر الأزرق

وقفت أمام ذاك العملاق الأزرق، أتفرس ملامحه هذه المرة بعينين غير تلكما العينين اللتين أصافحه بهما كل لقاء لا يأتي إلا كل عام أو عامين، طويل عريض هائج مائج، لا يكاد يسكن، لا أدل على مشهده إلا يوم أن ابتلع فرعون بجنوده من على الطود، عميق سحيق هادىء، لا يكاد يتحرك، لا أدل على مشهده إلا يوم أن حمل مهد الصبي موسى إلى منبته.

كيف يجمع ذلك البحر الصخب والدعة في نفسه، كيف يراودك عن نفسك بلطيف أذيال موجه التي تداعب أطراف قدمك، حتى إذا فُتنت وأسلمت جسدك له ضربتك الأمواج تترا، ضربا لا ينفرك بقدر ما يقربك، فلا تفطن أن أسوأ ما في الموجة ليست كرّها بل فرِّها، فإنها لا تفر إليّ وقد سحبت قدميك شبرا بلا شعور منك.

ساءلت نفسي، أيهما يغلب الآخر، صخبك أم سكونك، بم وصفك الواصفون أيها العملاق الأزرق، أنت مع الرمال الوادعة تحت ظلك فإنك تبدو الهائج الأرعن، ومع الصخور الواقفة عند قدمك فإنك المحطّم العاتي، أنت تحت الطافين بالسفن على سطحك الغادر القاتل. كم ابتلعت في جوفك من أجساد وما شبعت، وكم حطمت من ذوات الدسر كالجبال الراسيات وما جفلت. لا يسكن لك صوت إلا ليصيح، ولا يهدأ لك موج إلا ليطيح، أنت إذا الصاخب الأول، والثائر الأكبر! وكم نعتك الناعتون، أيها الجميل المتلألئ؛ كم تعزل فيك العاشقون، نسيمك الذي يُفتّحُ في القلوب مشاعرَ، موجك الذي يحرك في النفوس

سواكنَ، فيفيض الحب ويقطر على شواطئك بين الحالمين، كم ذاب عاشق في عين معشوقته كما تذوب الشمس في أمواهك ساعة الغروب، وكم غاص واله في روح محبوبه كما تغوص الأقدام في رمال ثغرك.

قل لي من أنت حقا؟ هل المهلك القاتل الماجن، أم أنت الرومانسي الحالم المفتِن، أم أنت أيضا المواسي المؤنس الذي ما زال الشكائون يشون إليك شكواهم فتداويهم، ويقذفون في أحشائك أحزانهم فتبدلهم بها عرائس من أعماق روحك، كشيخ هرم قديم قدم الزمان تغسل همومهم، وتزيح عنهم أتراحهم، تؤنسهم ساعة الوحشة والفراق.

أم أنك لست هكذا مع كل الشكائين، بعضهم تظهر له وجهك الآخر أيضا، يأتيك مستأنسًا فتوحش حياته كما أنت موحش ساعة الإظلام، مستأمنا فتخيف روعاته كما أنت مخيف ساعة العاصفة، مكلوما فتهيج أحزانه كما أنت ليلة تمام القمر.

ربما أنت لست أيًّا من هذا، أو كل هذا، ربما ما أنت إلا صفحة خالية بيضاء، يطبع الراءون عليها ما في نفوسهم، فتثور مشاعرهم وتتعاظم بقدر ما يرون من عظم حدودك في أعينهم، أنت هم .. أنت نحن ..

أنت أنا حينما جئتك قبل ذلك طفلا كان المرح يفيض منك، واللعب بين جنباتك يغطي على كل متعة، فأنتظر لقاءك من العام للعام طربا وحبورا، ويطير النوم من عينيّ عشية موعدك فلا أرقد إلا قليلا. وأنت، أنا حينما جئتك قبل ذلك شابا تثور أفكاره ومشاعره فقابلت بما أنا عليه باعثا لكل فكرة في الرأس دافعا لكل دفقة القلب، كنت مثورا ومحفزا كما لو كنت نفيرا.

وأنت، أنا حينما جئتك شاكيا منكسرا من ضربات الحياة عندما صادمت الصخور الأفكار والمشاعر، فما زدتني إلا انكسارا وشجنا

وإيلاما، كنت قاسيا مكدرا حانقا ومقيتا، وأنت أنا عندما جئت اليوم وقد شارفت على الثلاثين مجربا مغرما عاشقا ومعشوقا والدا ومولودا هازما ومهزوما، فكنت حكيما رزينا، حكيمًا ولكن ثائرًا، رزينًا ولكن ممتلئًا بالحياة.

أنت قِدر شوقي الذي يغلي في أبياته المهداة لك (وكأَنّ اللُّجاجَ حينَ تنزَّى .. وتسدُّ الفجاجَ كرًّا وفرّا .. أجمٌ بعضُهُ لبعضٍ عدوٌّ .. زَحَفَتْ غابة.. لتمزيق أُخرَى.. أنتَ تغلي إلى القيامة كالقدْ .. رِ، فلا حطَّ يومها لكَ قدرا)، وربيع الرافعي فى نثره المنثور بين يديك (ما أجملَ الأرضَ على حاشيةِ الأزرقَينِ البحرِ والسماء، يكادُ الجالسُ هنا يظنُّ نفسَه مرسومًا في صورةٍ إلهية) ومساء مطران (–شاكٍ إلى البحرِ اضطراب خواطري .. فيُجيبُني برياحِهِ الهوجاءِ .. يَنْتَابُها موجٌ كموج مكارِهي ويَفُتُّهَا كالسُّقْمِ في أعضائي .. والبحرُ خفَّاقُ الجوانبِ ضائقٌ .. كمدًا كصدري ساعةَ الإمساءِ)، أنت صورة نفس كل شاعر وأديب طبع على صفحتك جزءا من روحه، أنت مُثور كل هؤلاء ومخرج اللآلئ من مكنونهم كما الصياد في أحشائك.

يا مهلك الطاغية وجنده، ومؤمِّن الصبي وأمه، أنت الثائر أبدا، حبا وكرها وحزنا وفرحا، أنت الذي لا يهدأ أبدا، ولا الهدوء يليق به، ولكن لا ينفلت زمامه ويترك لمداه العنان إلا قليلا، عندما تستغضب ربما فتغضب، ساعتها تبتلع القرى والمدن وكل من جاورك فظن أن ثورتك لا تفور فورانا يحيلها إلى انتفاضة عارمة لا تبقي ولا تذر.

أيها الأزرق الثائر الجليل الجميل، ما أنا إلا مثلك ثائر ما أحببت الثورة يوما إلا أن الثائرين هم الأحياء وغيرهم موتى وهمل على جانب الحياة،غيرهم كالرمال الناعمة أو الأشجار الباسقة أو حتى الصخور

القاسية – لا فرق – على حوافك.

أنت المتن وكل ذلك حاشية عليك، كما الثائرون وهذه الحياة، يثورون فيجعلون لها معنى، ويحاول الشاطئ أبدا أن يطفئ هذه الفورة، يظن أنه ينجح في ذلك أبدًا، فالماء يلفظ أنفاسه الأخيرة زبدا على حوافه، والموج تنكسر رقبته انكسارا على أطراف صخوره، لكن الأيام تمضي والآباد تمر، وما زال البحر يأكل من الشواطئ ويزحف على الأيبسة، وما زال الصخر الصلد المتعالي يكل ويشيخ وتخور ذراته فيصبح بعد مرور الزمن لعبة بين يدي الماء يحفر فيه قنواتٍ ومداخلَ لا تنتهي إلا بانهياره التام الذي يشهده الناس فجأة فيخر كجسد سليمان المتكئ على عصاه البالية.

أيها الأزرق الثائر النبيل، ويا كل أزرق فينا، لا يبهتن لونك، ولا ينفدن ملحك، ولا يهدأن موجك، ولا ينضبن عطاؤك، ولا تكف الشمس على أن تشرق منك، أو تغرب فيك؛ فأنت أيها الثائر ملح هذه الحياة، وأنت أيها البحر سر هذا الكون.

شجرة تلعب بأوراقها نسائم الصيف، وخرير متقطع بضربات فأس في الطين، ومشنة تحملها امرأة تسير في الطريق الطويل لسبعين عامًا ولا تتعب.

فاطمة جاب الله

الغبار يكاد يسد شعاع الشمس، الرجال شمروا عن سواعدهم المفتولة، والمهندس وقف في منتصف قطعة الأرض التي تتوسط القرية .. وبجواره الحاج محمد الشراقي يتابع كل صغيرة وكبيرة بحكمة واقتدار .. تخرج من البيوت المجاورة رائحة الخبيز الفواحة، وأصوات الطيور التي تسرح في الأحواش قد غطت عليها جلبة العمل في الموقع .. الكل كان يتابع ما يفعله هؤلاء في قطعة الأرض هذه، حتى الأطفال. وقف الصغير منهم يتابع المشهد بتحفز والأكبر قليلاً يساعد العمال في نقل الحجارة على الثقالات ..

كانت في العاشرة من عمرها وقررت أن تحمل الحجارة مع صويحباتها.. لفت خرقة قديمة وأحكمتها فوق رأسها وأخذت إحداهن تضع فوقه حجرًا أخذ يترنح قليلاً وهي تحاول القيام حتى مشت باتزان، ثم أخذت تثبت قدميها الصغيرتين على الثقالات المتأرجحة حتى تصل بها إلى يد العامل الذي بدأ بناؤه في التطاول.

كانت سعيدة أنها شاركت في بناء جامع الشراقي الكبير ولو بنذر يسير، دخلته لأول مرة بعد أن افتتحه الحاج محمد مع أهالي القرية، كان بهيًّا به صحن واسع ومصلى ملحق وبعض الحجرات للكتاب، وأمامه قطعة أرض أوقف الحاج خراجها على عمارة المسجد والنفقة على حُصُره وزيت إضاءته وعامله.

تمر الأيام .. يغدو أهل القرية ويروحون فى طرقاتها ، ساحبين المواشي خلفهم في البكور وفي الأصيل ، جالسين على المصاطب

في العصاري أو عندما يغسق الليل على البيوت والغيطان ....
الماء يجري دابًا في عروق الأرض اليابسة، يحني الفلاحون أعوادهم السمر ليحيوا أعوادًا خضرًا، تعزف النواعير لحن الشروق والغروب، الساقية القديمة التي على رأس الجسر تغوص في الأرض أكثر وأكثر تدفن معها الذكريات، تعبر الفتاة الطريق الرئيس الذي يفصل بين البيوت والغيطان، ترمق الساقية القديمة التي اعتلاها الصدأ بنظرة مرتابة من الأساطير التي ينسجها أهل القرية حول توقفها عن الدوران. الهاجس يجعلها تشد يدها على طبق الخبز الفلاحي الفارغ فوق رأسها وتسير حذو صاحبتها، تستقبلان النخلات المزروعة في مدخل القرية ثم تستلمان سور حوش الحاج عطية القديم حتى يسلمهما إلى الجامع الجديد.
عندما اقتربتا، شعرتا بوجود حركة وصوت بالجامع في غير وقت صلاة، دخلتا من الباب المخصص للنساء. وقفتا على أطراف قدميهما تنظران من الشراعة فإذا بشيخ معمم يلقي درسًا في الناس بعد العصر، خافت جارتها –وهي الكبرى– أن تتأخرا على أهليهما ، فطلبت من فاطمة أن تذهب إلى البيت بالسلة وطبق العيش وتستأذن لهما في البقاء قليلاً خارج الدار. تبرمت فاطمة إلا أنها امتثلت مهرولة إلى الدار ..
في هذا اليوم، استمعت فاطمة إلى الشيخ يذكر الناس بالصلاة ويخوفهم من عاقبة التفريط فيها ، ويحدث عن عقاب تاركي الصلاة في القبر وعند الحساب. كانت المرة الأولى التي تسمع فيها هذا الكلام ، طلبت من أمها في اليوم نفسه أن تفصّل لها ثوبًا طويلاً تصلي فيه، ووعدتها بالمحافظة عليه وعدم ارتدائه إلا للصلاة .. كان

الثوب من قطعة قماش خضراء موزعة بورود بيضاء صغيرة كلوزات القطن اليانعة حينما تتفتح.

يصدح الكروان عند كل غروب .. وتلعب الرياح بسعف النخيل .. تكبُر فاطمة .. تمتنع عن الذهاب إلى الغيط كل يوم. تجلس أمام الفرن، وتضع الطعام للطيور .. وتكنس الدار، وتهرول إلى ثوبها الطويل عند سماع كل أذان .....

طرقات خفيفة على الباب ، فيفتح أخوها الصغير.

- أبوك هنا، يا عبد العزيز ..
- نعم، يا عمي، تفضل.
- يدخل الحاج محمد الشراقي ثابت الخطى متنحنحًا ، ومعه ابنه الأوسط أحمد خافضًا عينيه في أدب وتهذيب.

يجلس الجميع يتبادلون التحايا .. يدخلون في الموضوع .. ثم يقرأون فاتحة فاطمة ويتمتم الجميع بالتبريكات والدعاء بتيسير الأمور ..

كان أحمد محمد الشراقي من أنبغ شباب القرية ، فوالده كبير القرية بلا منازع وبيتهم هو أكبر البيوت بعد بيت العمدة وفيه تفض النزاعات وتُقضى في الخصومات ، وقد أتم حفظ القرآن في كتّاب القرية قبل أن ينتقل مقره إلى جامع أبيه. اهتم والده بتعليمه فحصل على البكالوريا وعمل لمدة عامين في معسكرات الإنجليز في التل الكبير فأتقن اللغة الإنجليزية وارتدى البنطلون والطربوش، وكاد أن يصبح «أفنديًا» ؛ لكن العمل هناك لم يعجبه وعاد إلى القرية ليجد نفسه قد عُين أخيرًا معلمًا في معهد التربية العلمية وعليه أن يسافر إلى الزقازيق يوميًا ..

لم يكن يفصل بين دار جاب الله ودار الشراقي سوى شارع صغير. انتقلت فاطمة جاب الله الفتاة الصغيرة إلى الدار الجديدة وسعدت بوجودها وسط عائلة الشراقي. كانت غرفتها في الطابق الثاني من البيت تطل نافذتها الخلفية على الجامع، والأمامية على حوش الدار. وفي الطابق نفسه ثلاث غرف أخرى منها واحدة لتخزين الغلال، والأخرى لحفظ العسل الذي يجمعونه من المنحل الصغير الذي يقع على أطراف حقل الشراقي.

في الطابق الأول، تقع القاعة الصيفية التي يستقبل فيها الحاج الشراقي ضيوفه الذين لا ينقطعون من ليل أو نهار، وخلفها تقع الصالة الكبيرة التي تتوسطها مصطبة مربعة تسع الأسرة بكاملها. يحلو لهم الجلوس عليها مع إشعال «الشلية» في الشتاء، وخارج البيت هناك سقيفة يقبع الفرن تحتها وأمامها باب للحديقة الصغيرة المزروع فيها شجر الليمون والجوافة والمشمش وبعض الخضراوات الموسمية، وأربع نخلات لم تطرح بلحها بعد ، وحوش واسع يفصل بينه وبين الحديقة سور تقع في آخرة «طرمبة» الماء التي تضمن للدار الماء في كل الأوقات.

لم يمر عام على الزواج حتى توفي الحاج محمد الشراقي، وحزنت القرية والقرى المجاورة لوفاة الرجل الكريم الذي أنفق نصف ثروته على الفقراء والغلابة قبل أن توافيه المنية. أما أحمد فقد ظل يتنقل في الإدارات التعليمية بين المنصورة والزقازيق. وأحيانًا كان يذهب في مأموريات للقاهرة ويأخذ فاطمة معه، فركبت الحنطور والترام وزارت الجامع الأزهر والحسين، وتذوقت الداندورما.

تمر الأيام ، وتضع فاطمة مولودها الأول ، يسميه والده محمدًا على

اسم الرجل الذي تترحم القرية كلها عليه، قد أصبح لأحمد الشراقي «أسرة» لكنها لم تكن الأولى على كل حال؛ فقد تعرف في هذه الفترة على الإخوان من خلال زياراته المتكررة إلى المحافظات بسبب عمله في التعليم، وجذبه ما يحكيه الناس عن حسن البنا المدرس مثله، فلم يلبث إلا قليلاً حتى التحق بالإخوان وأصبح من أنشط الإخوة في أسرته. ولم تمر بضعة أشهر حتى أصبح مسئولاً لأسرته، ومن فرط حركته أصبح بعد عامين مسئولاً للشعبة التي ضمت قريته حوض نجيح وبعض القرى المجاورة صبيح والزرزمون والعلاقمة والسلامون أيضًا، إلى جانب العزب التابعة لها.

كان الشراقي لا يكل من متابعة مهامه في الجماعة التي رآها تحمل هم الدين الذي فُطر على حبه منذ الصغر، كان يُرشد ويوجه ويساعده في هذا انحداره من نسل الشراقي الطيبين الوجهاء، وأيضًا أخوه الأكبر سيد الذي كان لا يكل عن الحركة هو الآخر خاصة بعد أن أصبح المسئول الأول عن العمل الكشفي في مركز ههيا بأكلمه، وأصبحت قرية حوض نجيح نارًا على علم وسط مراكز وقرى الشرقية.

كانت فاطمة تسأل بفطرتها عما يشغل زوجها ويجعله يغيب كل هذه الأوقات خارج الدار، وأحمد يجيبها بكل بساطة عن فكرة الإخوان والدعوة والبذل في سبيلها .. إلا أنها كانت تشفق عليه من المجهود الذي يبذله، خاصة وأنه كان يمشي على قدميه مئات الأمتار يوميًا بين القرى وبعضها البعض ليتابع شئون الدعوة.

وفي يوم من الأيام، وجد أحمد دراجة جديدة على باب دارهم، ظن أن ضيفًا ما من المركز في زيارة له أو لأخيه سيد، دخل الدار يفتش

عن الضيف فلم يجد إلا فاطمة تخبره بأنها من أوصت أخاه سيد بأن يشتري هذه «العجلة» من الزقازيق بمال كانت تدخره، صمتت قليلا وقالت: أريد أن تتذكرني في كل خطواتك، وأن أشاركك الثواب في كل ما تفعل ..

طارات العجلة تدور وتدور بين الغيطان والحقول متنقلة بين هذه القرية وتلك العزبة، الدعوة تشتد، والأحوال تضطرب، الأخبار تتناهى إلى الناس باستفحال خطر اليهود في فلسطين؛ ويبدأ الإخوان في تشكيل معسكرات للتدريب، ومن كثرة عدد الإخوة في حوض نجيح وما حولها تشكل القرية أول كتيبة كاملة متبرعة للجهاد في فلسطين، ويقيمون معسكرهم في التل الكبير ويشرف سيد الشراقي مسئول الكشافة على التدريب.

الفلاحون وضعوا الفؤوس وحملوا البنادق.. تركوا الطين وزحفوا على الرمال.. المعسكرات تشيد هنا.. وعصابات اليهود تعيث فسادًا هناك.. تركوا أرضهم هنا ليدافعوا عن أرضهم هناك.. الحصار يشتد والأسلحة تنفد.. والعجز يتحسس طريقه إلى المناضلين.....

تضع فاطمة مولودها الثاني فتاة.. تسميها زينب، بعد أيام تحمد الله على أن قامت بالسلامة وتضع قرطها في يد زوجها: تبرع بثمن هذا للجهاد في فلسطين، هذا أقل ما أستطيع فعله!

تبدأ الحكومة المصرية في تضييق الخناق على الإخوان أثناء الحرب، لا تكتفي بمنع الإمدادات عن الجبهات، بل تحاول تجفيف منابعها، تأتي رصاصة غادرة في صدر سيد شراقي وهو في معسكره بالتل الكبير يدرب الإخوة على القتال. زملاؤه أقسموا أنها حركة غدر من عسكري صوب مسدسه ولاذ بالفرار، البعض اعتبرها حادثة،

قضاء وقدر.
يهز الخبر أخاه أحمد.. وفاطمة .. وأهل قرية حوض نجيح .. يرفعون الشهيد في نعشه ويطوفون به في أرجاء القرية، يرون دمه في الماء الذي يروي الأرض، فتتدفق الدماء فيهم أكثر وأكثر نحو كتائب الإخوان المتجهة إلى فلسطين ..
موكب الشهداء أخذ يقتني من أبناء القرية أثمن جواهرها .. تنتهي الحرب بالخسارة الفادحة رغم كل البطولات التي رواها العائدون منها؛ ويظل جزء من كتيبة حوض نجيح على الجبهة في السويس حيث أخذت تمشط القناة من الألغام التي زرعها اليهود ..
زورق يضم أحد عشر شابًا من القرية ، ينفجر فيه اللغم بطريق الخطأ .. يستشهد كل من كان على متنه .. يدخل الشراقي على زوجه يزف لها خبر استشهاد أخيها الأكبر مع الشباب.. تختنق الدموع.. وتلوذ بحضنه الحنون.. يغوص فيها أكثر.. ويردد: هما في الجنة.. سيد ومحمود في الجنة .. ينتظرانا في الجنة ..
تمر الأيام وتنجب فاطمة عليًّا وخديجة وإبراهيم وسمية .. تموت سمية وهي طفلة من حمى أصابتها. تجزع الأم.. لكنها تأخذ من صبر زوجها ما يعينها على ثكل فلذة كبدها .. تضم أولادها الخمسة إليها وتكمل في طريق تربيتهم الطويل.. محفور في وجدانها صوت سمية الصغيرة يمسكان بيديها الصغيرتين عمها سيد الشراقي وخالها محمود جاب الله .. ينتظرانها في الحياة البرزخية.
تنجح الثورة.. ويأتي الضباط الأحرار.. يلتف أهل القرية حول المذياع يستمعون إلى بيان اللواء محمد نجيب ويلتفتون إلى الشيخ أحمد الشراقي يستفسرون منه عن الأخبار التي لديه من الأفندية

والبهوات الكبار الذي يعرفهم في مصر ويذهب إليهم كل فترة.. والشيخ الذي بدأ الشيب يخط في رأسه وهو في أربعينه يطمئنهم ويتمتم: خيرٌ إن شاء الله ..

لكن الخير جانب قرية حوض نجيح هذه المرة.. إذ صحت من نومها ذات سحر على عربات البوليس وحافلات الجيش تطوق القرية.. لم يتركوا بابًا إلا كسروه .. اقتادوا العشرات بل المئات من شباب القرية، وعلى رأسهم الشراقي.. ولولت النساء، وعلا صراخ العيال.. ووقف العمدة يبرم شاربه بطرف خنصره والغفر من حوله مقطبو الجبين مغلوبون على أمرهم يتقون نظرات ذويهم ..

أفرج عن البعض وحكم على الأكثر بسنة أو سنتين.. أما أحمد الشراقي فحكم عليه بعشر سنوات.. وقع الخبر على أهل القرية كالصاعقة، حزنوا لكن في صمت، لم يكن أحدهم يستطيع أن يعبر عن حزنه حتى؛ فقد يكون أخوه أو ابن عمه مخبرًا فيشي به.. وحدها صمدت فاطمة مع إعانة بسيطة من جارات لها ..

عندما اعتقل الشيخ كان محمد أحمد الشراقي لم يتجاوز من العمر تسعة أعوام، ولم تكن أمه قد جاوزت عتبة الباب منذ أن احتجبت عن الناس في دار أمها .. حارت الأم كيف تفعل وكيف تصبر كل هذه السنين.. لكن كأن الله وهبها قلبًا صلدًا .. وقد أورثت كل صبر وأناة زوجها الغائب فتمثلتها تمثلاً .. وعبرت بها ثماني سنوات عجاف .. تربي فيها البنين والبنات .. وتدور على كل معتقلات مصر .. طرة وأبي زعبل والعقرب .. قرب الإسكندرية أو بعد بني سويف .. تزور زوجها كلما تيسر لها ..

الخوف يعشش في الجدران ويستقر، السياط تعلو وتهبط على أجساد البشر في الزنازين، دخان السجائر يتطاير من أفواه الجالسين خلف المكاتب الفارهة، عجلات القطارات تدور بفاطمة من بلد لآخر، أولادها وبناتها يروحون ويغدون للمدارس .. للجامعات .. تتمنى أن يقف الزمن بهم وبها .. حتى يعود أحمد ليشهد معها كل ذلك، تقريبًا هي الأم الوحيدة التي لا تتمنى أن يكبر أولادها.

***

في يوم من أيام مايو ١٩٦٣، كانت طرقات الشيخ تدب مرة أخرى على باب البيت، لم تصدق فاطمة أن زوجها قد عاد مرة أخرى إلى الحياة، لم تصدق أنه عاد، بقدر ما صدقت كل يوم أن فرج الله قريب، وأنه عائد. زُج بالرجل في المعتقل بعينين وخرج بعين واحدة، فقد إحدى حبيبتيه هناك من أثر التعذيب، تحت السياط التي نالت من جسد الرجل الجلد الصبور، ولم تنل من قلبه بعد. خرج ليفكر في تعويض فاطمة عن السنوات التي غاب فيها عنها رغمًا منه.

لم تمض أيام على عودته حتى قصد الزقازيق، ووقف أمام محال تجهيزات المنازل كوقفته هنا منذ عقدين ونيف، ابتاع لفاطمة أطقم حلل وأدوات طبخ جديدة وأكواب شاي بقواعد كريستالية لم تشهد قرية حوض نجيح مثلها من قبل .. اشترى لها ثوبَي قماش لتفصلهما عباءتين جديدتين كما تحب، كان الشراقي يعلم أنها لم تشترِ لنفسها شيئًا أبدًا طوال ثمان سنوات مضت.

لم يستمر الأمر كثيرًا وبعد عامين، اعتقل الشراقي مرة أخرى، هذه المرة لم تقو فاطمة على الصمود انهارت ودعت الله بحرقة زوجة مكلومة ألا يفجعها في سنوات ممتدة كالتي سبقتها، أن يشل يد الطغاة عنه، كانت تدعو على عبد الناصر بعينه ليل نهار أن يبتليه الله شر بلاء، ويذيقه من عذاب الدنيا قبل عذاب الآخرة.

لا تعرف فاطمة هل استجاب الله دعاءها هي، أم دعاء امرأة ثكلى أخرى مثلها، ربما ما حدث بعد عامين من النكسة لم يكن بأي سبب إلا دعوة مظلوم في غياهب المعتقلات. أذن الله له ولأصحابه أن يُرفع البلاء عنهم، نعم خرج الشراقي في عام النكسة بعد عامين فقط هذه المرة بالسجن، بعد أن سمع وأقرانه خبر الهزيمة الدامية من خلف الأسوار. في تلك الليلة التي اختلط عليهم فيها الفرح بانتقام الله من الظالم والغم بانهزامنا أمام اليهود.

عُين أحمد الشراقي بعد خروجه هذه المرة مديرًا لمدرسة حوض نجيح الابتدائية، ورزقه الله بآخر ذريته أسماء. أحبت فاطمة تلك الهدية التي ردت الروح لبيتهما العامر بالأبناء الذين تزوج منهم اثنان وبدت بشائر الحفدة تهل إليه.

***

«اللهم أمدنا بمدد رسولك الكريم .. وأفض علينا من بركاته يا أكرم الأكرمين يـــا رب»

كان صوت المبتهل الشيخ في إذاعة القرآن الكريم يصدح من مئذنة مسجد الشراقي. عقّب المذيع «إذاعة القرآن الكريم من القاهرة .. حان الآن موعد أذان العصر» ..

كان الشيخ تنساب من وجهه ويديه قطرات الماء خارجًا من الميضة يتمتم «رضيت بالله ربا ..»، قربت له فاطمة عكازه يتوكأ عليه حتى يبلغ الجامع، لم يخطو الشيخ ثلاث خطوات حتى أسند يده إلى الكنبة القابعة في وسط الدار. انتبهت فاطمة إلى الضعف البادي عليه فأجلسته إليها، لم يذهب الشيخ هذا اليوم لصلاة العصر في الجامع.

بعد أيام كان الشراقي ممددًا على فراش الموت يتألم في صمت كعادته، شعره الأشيب ولحيته التي شهدت سنين قاسية، عمامته البيضاء المبسوطة في ركن من الغرفة، كتبه وكتب أبيه المصفوفة على الأرفف الخشبية العتيقة، فاطمة الواقفة عند رأسه تتمتم بكل ما حفظت من أدعية ورقى شفاء، أولاده المتحلقون حوله بزوجاتهم، وبناته بأزواجهن. كانت السنوات التي قضاها بعد خروجه من المعتقل كافية للعمل الدؤوب وتوفير حياة كريمة لكل منهم، رسالته التي يراها أوشكت على الانتهاء. تدور عيناه في المكان وينتهي بعيني فاطمة الدامعتين فيسلم الروح راضيًا مطمئنًا، فبعد هنيهة يلقى جزاء ربه.

وكانت الجنازة مهيبة لم تشهد حوض نجيح ولا القرى المجاورة لها مثيلاً، حضر الناس أفواجًا من كل القرى والنجوع والكفور، حضر من بقي من الرعيل الأول في الإخوان من الزقازيق وما حولها. فُتحت أبواب بيوت القرية كلها كيوم كسْرها ليلة الاعتقال الكبيرة، لكن هذه المرة لتضييف المعزين بعد الدفن. حزن الناس كل الناس، ودمع الناس كل الناس على رجل كان يرق للناس كل الناس، حتى يوم أن مات عبد الناصر وخرج أهل القرية بنعش فارغ من الجامع

الكبير يطوفون به البلد ليودعوه – فرت دمعة من عين الشراقي، وكان ابنه يقول بعجب: أليس هذا من عذبك يا أبتي؟ رحم الله الشراقي.

اتشحت فاطمة بالسواد، وربطت على جرحها، كان الفقد الأخير الذي لا عودة بعده، ولكنه لم يكن الابتلاء الأخير لها في هذه الدنيا؛ فقد أصيبت خديجة بالمرض الخبيث وماتت بعد أشهر من المعاناة. فقد بعد فقد بعد فقد، كانت فاطمة تخرج من كل ابتلاء أوهن جسدًا وأصلب نفسًا، راضية محتسبة.

مرت السنون على فاطمة بطيئة، استوحشت الحياة بعد رحيل من رحل من أبنائها، كان يوم الجمعة بالنسبة إليها عيدًا عندما يتحلق الأبناء حولها منهم من يأتي من بلادهم القريبة من ههيا وأبو كبير، ومن يأتي من بلادهم البعيدة من الزقازيق أو الإسماعيلية أو حتى القاهرة، كان الأبناء يتناقصون والحفدة وأبناء الحفدة يومًا بعد يوم يتكاثرون ويكبرون.

«أمسينا على فطرة الإسلام وكلمة الإخلاص وعلى دين نبينا محمد .. وعلى ملة أبينا إبراهيم حنيفًا وما كان من المشركين».

كانت الحاجة فاطمة تتمتم كعادتها بالمأثورات التي علمها إياها زوجها في أول زواجهما ولم تدعها منذ ذلك الوقت عندما نادت على أحمد أن يعلي لها صوت التليفزيون لتسمع ما يتابعه، كانت الصورة في قناة الجزيرة تموج بالمتظاهرين المكممين، كانت بعض المشاهد القصيرة يرمي فيها المتظاهرون قوات الأمن بالحجارة. لم تر هذا المشهد إلا في متابعة أخبار فلسطين منذ عدة سنوات، صاحت بدهشة: الله يلعنهم اليهود.

صاح أحمد: لا، يا جدتي، هؤلاء ليسوا يهودًا، هذه الشرطة المصرية التي يضرب عليها المتظاهرون الحجارة.

في فبراير ٢٠١١، خصصت فاطمة جاب الله حصة أكبر من معاش زوجها الذي تنفقه ليذهب إلى الثوار، فاطمة لا تصرف مليمًا من المعاش حتى تخرخ سهم فلسطين وهي تدعو للمجاهدين وتلعن اليهود، وسهم الإخوة هنا في مصر وهي تدعو لهم بالثبات والتوفيق.

كان أحمد إبراهيم أحمد الشراقي، حفيدها من ابنها الأوسط في الثانوية آنذاك، يكبره أسامة وخالد وتصغره رفيدة، عندما اشتد بالجدة المرض في آخر أيامها كان أحمد وأسامة يتناوبان على السهر عليها في المستشفى، كان خرطوم الأكسجين الذي يصل فاطمة بأسباب الحياة يزعجها كثيرًا وتود التخلص منه، والعودة إلى البيت، أو الذهاب إلى الله.

***

في ٢٠١٤، كان أحمد الشراقي يقبع في سجن جده لشهور طويلة، بلا محاكمة ولا إدانة، بتهم لا يقوم عليها أي دليل من قبيل الإخلال بالسلم والأمن العامين. كان يجلس في ركن من عنبر بسجن «جمصة» ويفكر في والدته التي ستقطع ٦ ساعات من محافظة إلى محافظة حتى تصل إليه في الزيارة غدًا، وحكايات جدته في المستشفى بآخر أيامها عن جده أحمد، وأخيها محمود، عن الثورة وعبد الناصر والإخوان والمعتقل وفلسطين والإنجليز واليهود.. يرفع لها صوت إذاعة القرآن كما طلبت ويمضي لتأخذ قسطًا من

الراحة وهو يقول بصوت مرتفع كي تسمع جيدًا: عاوزة حاجة تاني يا نينة؟ فتشير بيدها وهي تتمتم بذكر قبل الرقاد أنها لا تريد شيئًا .. ويشدو النقشبندي.

«اللهم أعد للمسلمين عزهم ومجدهم .. وصن بلاد المسلمين من كل مكروه وسوء .. ورد الناس إلى الحق والعدل .. واهدهم إلى صراطك المستقيم .. يا أكرم الأكرمين يا يا يا رب» ..

يومًا ما كنتُ إسلاميًّا

يوما ما تكون شيئا ما، حتى إذا انقضى أجلٌ، ودار الزمان دورته، نظرت لما كنت عليه قلت من هذ؟ وكيف ما قد كان كان!

يوما ما كنت إسلاميا

شاب جامعي ضعيف البنية تسبح يداه في لحيته السلفية مسندا رأسه إلى حافة شباك المسجد تختلف عيناه إلى مطويته الصغيرة الخضراء ويتمتم " اللهم إني أصبحت منك في نعمة وعافية وستر .. فأتم على نعمتك وعافيتك وسترك في الدنيا والآخرة" .. في الحلقة كان يحب أن يرددها بالرواية الأخرى "فاتمم اللهم على نعمتك وعافيتك" .. كانت الأذكار مكررة لكن ما يقلق الفتى ذي العشر سنوات هل ينجو من "ربع الوالدات" أم يعيده مرة أخرى في الغد !

....

مسرح كبير وكراس مكسوة بقطائف حمراء وطلبة وطالبات جاءوا من كل المدارس ، الكل يتدرب على فقرته ، لأول مرة يجد نفسه في مكان واحد مع كل هؤلاء الطالبات منذ آخر فسحة ضرب جرسها في حوش مدرسته الابتدائية ، طالبات مدارس اللغات يثرن حفيظته ربما جئن لمسابقة رقص لا مسابقة إلقاء شعري !.. شيئًا فشيئا مع الوقت بدأ الانسجام بين الطلبة والطالبات أكثر.. ذهب الفتى ذو الخمسة عشر عاما إلى مشرفه: — أريد تغيير القصيدة ..

— الآن بعد أن تدربنا عليها كل هذا الوقت..؟

— نعم ، قصيدتي تتكلم عن القدس والانتفاضة وكل هؤلاء سيتكلمون عنها أيضا.. أريد أن أتحدث عن شيء أهم.. عن طريقنا للقدس والانتفاضة.. عن الاختلاط.. التبرج .. الحياء..

قصيدتي عن : الصحوة الإسلامية؟

.....

لهيب الشمس من فوقنا وصهد الإسفلت الأسود من تحتنا وعلى اليمين والشمائل تلف الطريق المتثنى بين العريش ورفح كثبان رمال هائلة، ونفر من الفتية يحث الخطى خلف قائد معسكرهم الإخواني في مشية منتظمة، نافرة عروقهم ينشد الفتى ذو الثمان عشرة عاما ويرددون خلفه "أعداؤنا يخططون .. يدبرون وينفذون ، يا أمتي .. ودائما نقول كنا .. ودائما نقول كنا .. يا أمتي نريد أن نكون نريد أن نكون."

....

الرمال البيضاء مترامية ببذخ على الساحل الشمالي ، والأمواج الصافية تتشابك وتتعالى ، وضع السماعات الصغيرة في أذنه متلهفا لسماع ذلك اللون الجديد من الطرب ، دارت برأسه ألحان "أفراح الندى" و"سبح الطير" و"أطياف الاستشهاد" و "درة الجهاد"و"البواسل" .. ودارت الأنشودة في الجهاز الذي لا تزيد مساحته عن الوسطى والسبابة إذا ضممتهما فتفتق له في الأفق حلم جديد .. عدا الشاب العشريني إلى خالد أبو شادي ، قطع عليه خاطرته بين الشباب.. دكتور : هل يستخدم هذا المنشد الجديد أحمد أبو خاطر آلات موسيقية .. في الخلفية ما يشبه الموسيقى لكن لا أدري ربما ليست كذلك .. كانت الأنشودة شجية رائعة رغم كل شيء " ألا كل ما هو آت قريب وفي الأرض من كل حي نصيب .. "

في تلك الأيام، كان الإخوان يحلقون لحاهم خوفا من الاعتقال ، ويؤكدون أنه في ظل الحرية لن يكون هناك إسلاميا وحليقا في نفس الوقت .. في تلك الأيام كنا نستمع إلى الإيقاعات الموسيقية الجديدة التي دخلت على بعض الأناشيد على استحياء.. في تلك الأيام، كان الحديث عن حلم الخلافة كأنه قاب قوسين أو أدنى .. كان الحديث عن الأمة لا الدولة .. في تلك الأيام كانت الخمُر زيا رسميا للأخوات ، وتستطيع بسهولة أن تميز الأخت المنتقبة إذا كانت سلفية أو إخوانية ، فالمنتقبات الإخوانيات يلبسن النقاب الملون لا الأسود .. وكنت تستطيع أن تفرق بين أخت وأخت تقفان للضرورة في حديث خاطف بالجامعة وبين الآخرين ، كأنهما تحدثان شخصا ثالثا ، تنصبان عمودا وهميا تنظران إليه حال الحديث ، فلا تقع عيناه في عينيها إلا لماما.. في تلك الأيام ، كان التلفاز يفتح في بيوتنا ساعة في الصباح لبرامج الأطفال، وساعة في المساء لنشرة الأخبار .. وساعة إضافية في يوم الجمعة للشيخ الشعراوي.. كانت مشاهدة الأفلام لا تصلح إلا أن تكون وحدك ، وحدك تماما ، فكل أمتي معافى إلا المجاهرون.. كان السهر معيبا .. والفجر في المسجد سمتا .. والجلوس للشروق عزيمة .. وشارب الدخان ولابسة البنطال لا تخيل لوجود هؤلاء بيننا!

جاءت الحرية ولم يطلق الإخوان لحاهم.. تعرفت على أصدقاء – إسلاميين – جدد نجلس على المقهى ويدخن بعضهم الشيشة.. لم تعد تسعنا الحسبنة على الفاسدين يذكرني أحدهم بقول أبي بكر : امصص بظر اللات ، ويفتح في سب أولاد الزواني أعداء الدين ! .. يذكرني آخر بأنه "لا غيبة لفاجر" وننطلق في سير الأولين والآخرين

.. يخبرني مطلعٌ على الفقه أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) جمع في غير سفر ولا مطر فيصبح المغرب والعشاء سواء مجموعين أم في أوقاتهما .. يمتلأ هاتفي بأرقام الأخوات .. يغني حمزة نمرة للأمل والإنسان وأبلة عطيات .. لا أعثر على أغنية واحدة بالفصحى .. ولا واحدة عن الحجاب أو الأمة أو الجهاد في أفغانستان .. ولا حتى في أي مكان آخر .. نتوافق على وضع "فيروز" ضمن قائمة المفضلات في تعريف أكثرنا على الفيسبوك .. ترفض أختي الصغرى أن تلبس الخمار وتعتبره موضة قديمة لم تعد أي من الأخوات ترتديه.. ندمن السهر ويصبح الفجر في المسجد مسألة ظروف.. يختفي الشباب الذي يُربي النشء الصغير من المسجد.. يشترك في الأعمال التطوعية والمشاريع الثقافية والحملات الانتخابية.. لا يقطع أحدهم اجتماعات أي هذه الكيانات العظيمة قبل المغرب بدقائق لأذكار المساء .. ولا قبل البدء لتجديد النية .. أحن لمن يصارحني أو أصارحه في رسالة قصيرة : "إني أحبك في الله"..

لا تنال سوريا منا معشار ما نالته كوسوفو أيام الحرب.. نطمئن أهلنا في النوبة وسيناء وننسى أن لنا أهلا من الأساس في غزة أو الشيشان.. نتحدث عن التنمية الاقتصادية والتجربة الربوية الرائعة في تركيا وماليزيا ونتجاهل منظومة الأوقاف أو توظيف الأموال.. نسلم بكل أوراق اللعبة.. الانتخابات والسينما.. الحدود والجنسيات.. البرلمان والقوانين وبدون إلحاق كلمة "الوضعية".. كل ذلك اتفقنا عليه.. اختلفنا في شيء واحد.. هل نستمر بمسمى "إسلاميين" أم إنه أصبح مصطلحا إقصائيا فكلنا مسلم مصري وسطي ووطني .. يحب السلام ويسعى للنهضة!

المسرح

ما الدنيا إلا مسـ... عفوا ما لنا وللدنيا، ما القلب إلا غرفة
صغيرة إذا تحولت إلى مسرح كبير فسد كل شيء

المسرح

كان يظن من صغره أنه مميزا، وأن هذا التميز يفرض عليه أن يكون للناس قِبلة، يتوجهون إليه بالأنظار، ويتبعونه بالإعجاب. كان يحاول أن يرتقي أي خشبة صغيرة تكون له مسرحا، لم يكن الإنجاز بالنسبة إليه أن يحصل على الدرجات النهائية في امتحانات آخر العام، أو أن يزيد مصروف جيبه، أو أن يحصل على هدايا محببة إليه، بل كان أكبر من كل هذا أن يزداد عدد المعجبين به، أو بالأحرى المتأثرين به.

لم يكن كل هذا من وحي خياله، كل ما هناك أنه نشأ ليرى أن ذلك المسرح الكبير القابع خلف الشاشة يجذب انتباه الآلاف، ويؤثر في جميع من حوله. كل النكات يأتي بها زملاؤه من ممثلي هذه المسارح، كل الأخبار والآراء ينقلها آباؤهم عنها أيضا. كان يظن في نفسه أنها فاسدة، وأن عليه أن يصلها هو بمسرحه الصغير، الذي عليه أن يكبر يوما.

عندما شب عن الطوق رأى في أضغاث أحلامه كأن جميع من يعرف قد احتشدوا في مسرح كبير، كان محط أنظارهم، وكان التصفيق حادًّا بدرجة كبيرة، وكان شعورا طاغيا بالظفر والانتشاء. أصبح العالم كله بعدها بالنسبة إليه بقعة كبيرة سوداء يتوسطها مسرحة الصغير الحبيب، وهناك ضوء مسلط عليه، وضوء آخر يتكشف له كل حين عن جمهور جديد، كلما كبر، استغل مهاراته، و علا صوته. جذب المزيد من الأنظار إليه، اتسعت دائرة الضوء

على الجمهور، كل حين تتسع ليرى عددًا أكبر، كان نظره معلقا بالنجوم الكبار الذين يقفون وسط مسارح هائلة، يشاهد برامجهم الملايين في التليفزيون، ويستمع إلى أشرطتهم الملايين في المسجلات، يعلمون الناس الخير، ويهدون الآلاف منهم إلى البر.

كان الذي يُسكّن من نفسه في سباقه المحموم كي يصل إليهم، أنه أقل منهم عمرا، وأنه لا يشُق أيٌّ ممن في سنه — في الدائرة التي يعرفها — له غبار، كان هذا يجعله مُؤملا أنه عندما يكبر سيكون في مثل مكانتهم بين الناس.

تمضي الأيام وتتسع دائرة الضوء أمام المسرح، لكنها لم تعد تتسع فقط ليراه جمهورا أوسع، ولكن أصبحت تتسع ليرى أن بجواره مسارح أخرى يقف عليها منافسون، كلٌ منهمكٌ مع جمهوره، الدائرة تتسع أكثر وأكثر فيرى بشكل أوضح، تقلصت مساحة الجمهور لصالح المسارح، أصبح كل فرد تقريبا له مسرحه الخاص، الكل يتفرج، والكل يمثل أيضا، كل مقعد هناك هو مسرح صغير حوله مقاعد أصغر، مسرحه ذاته هو مقعد في مسرح أكبر ليس أكثر.

كانت عيناه تزيغان وهو يكتشف كل ذلك، وكان يكتشف كل ذلك في لحظة انفتحت فيها الأنوار العالية بشكل غير مسبوق، أصبح يشاهده الآلاف الآن، يتحدثون عنه كما كان يخطط من قبل، يصفقون له باستمرار أحسن الآداء أم لم يحسن. كان كل ما عليه هو ألا يتعب من التمثيل، أن يعرض الفقرات تلو الفقرات تلو الأخرى، الساعة التي يتعب فيها ستدور المقاعد إلى مسرح آخر من تلك المسارح التي تحوطه من كل مكان؛ ساعتها لن يعرف

هل يستطيع استعادتها أم لا .. يحاول استعادة تركيزه، يتمنى لو يظلم المكان كله ولو لبرهة حتى يستجمع قواه ويكمل المسير. في لحظة كالحلم تظلم كل الأنوار، كل المسارح، كل القاعات.. يسكن الكون للحظة كاد قلبه أن يتوقف فيها.

- كنت تحتاج إلى هذه اللحظة وقد مُنحت إياها، ها .. ما الذي تود قوله؟

- من أنت .. من الذي يحدثني .

- ليس المهم من أنا، المهم الآن أن تعرف من أنت؟

- أنا .. أنا يعرفني كل هؤلاء الذين أغلقت الأنوار عليهم.

- لا أهتم بمن يعرفك، هل تعرف نفسك أولا .. هل ما زلت تعتقد أنك هنا لأن المسارح الأخرى تقدم الأفكار الضالة وأنت تتحدث باسم الهداية.

- (في محاولة للهروب من الأسئلة، وبصوت مرتفع) :عليك أن تشعل النور لأستمر في عملي، أصحاب المسارح المبهرة ما زالوا يقدمون للناس السموم، لا يجب أن نتوقف.

- تقصد يجب ألا تتوقف أنت فقط، ما الذي يدريك فالمسارح الصالحة التي تعرفها جيدا ما زالت قائمة.. قل لي أولا قبل أن أفتح لك النور، هل جذبت بالفعل أولائك الذين كانوا جمهورا دائما عند المسارح الفاسدة، أم أن كل ما تفعله الآن هو التنافس على جمهور يجلس أمام أقرانك من بني جلدتك ومن مذهبك نفسه، وأنك أصبحت تقدم نفسك مُقنعًا في أفكارك ليس أكثر.

يختفي الصوت وصاحبه ويضاء المسرح مرة أخرى، يكاد يتعثر في اللحظات الأولى، لكن بحركات متقنة منه يكمل فقراته كأن شيئا لم يكن، جمهوره أيضا لا يشعر بأي شيء، ما زال مشدوهًا له، يصفق على كل ما يأتي به جديدا كان أم مكرورا، الدائرة تتسع، والتصفيق يعلو، لِمَ لمْ يعد إذن سعيدا بهذا، يشعر أن التصفيق يعلو نعم لكنه يصبح أبعد، يحاول أن يدقق النظر في الجمهور الذي نادرا ما ينظر إليه بتمعن فتدهشه المفاجأة.
ينقطع النور مرة أخرى ..

- هل فاجأك الأمر ؟!

- أنت مرة أخرى، لم أطلب هذه المرة أن يُغلق النور .

- لكنك تحتاج إلى ذلك أيضا.

- ما الذي يدريك، ابتعد فحسب.

- أرأيت؟ .. لقد فرغت مقاعد الصفوف الأولى، منهم من ترك مقعده، ومنهم من كف عن التصفيق منذ زمن.

- اللعنة عليهم، كيف يتخلون عني الآن، بعد أن قطعت كل هذا الطريق، نعم لقد أحسست منذ زمن أن كل مقعد منهم تحول إلى مسرح هو الآخر كلهم يطلبون الآن من يصفق لهم، ونسوني أنا.

- ولِم تعتب عليهم، ألست تريد ذلك أيضا؟

- لا، أنا أريد ذلك حتى يكون تأثيري أقوى فيسمع أهل المسارح

الأخرى ذلك التصفيق الحاد فيفيقون.

- للأسف، يا صديقي، لو كنت كذلك لكان هم أولى الناس بالانتظار في مقاعدهم، أليسوا هم أقرب الناس إليك، وأعرفهم بك، ألم يكن هذا الصف هو الوحيد الذي يصفق لك قبل أن يكتشف مسرحك كل هذه الآلاف، فكر جيدا لِمَ يَعرِضون الآن..

ينفتح النور مرة أخرى، ويختفي الصوت وصاحبه مرة أخرى.
التصفيق ما زال حادا، وهو قد أصبح أكثر مهارة في الاستعراض، وفي إخفاء ما يموج داخله. صار حنِقا بتصفيق هؤلاء الذين في آخر الصفوف، من أنتم حتى يعلو تصفيقكم، والله إن واحدا من مصفقي الصف الأول بمئة منكم، ما الذي تعرفونه عني حتى؟ أحقا أنا أقدم ما لا يقدمه غيري؟ أتصفقون لي؟ أم تصفقون لأفكاري؟ هل أتيتم من عند أصحاب المسارح الفاسدة؟ أم أنكم هنا منذ البداية وأنا أنفق وقتي سدى؟
الأسئلة تمور في عقله وقدماه ما زالت ثابتة، يحاول أن يبحث في أعين الناس عن إجابة فلا يجد، لا وقت للبحث هناك، لا سؤال ولا إجابة، فقط الجميع منهمك في التمثيل وفي التصفيق، والمسارح كلها أصبحت فريقين كبيرين؛ وكل فريق يحدث نفسه، بحرين واسعين، لكن هذا عذب فرات وذاك ملح أجاج، بينهما برزخ لا يختلطان، وكل يحدث نفسه رغم الضجيج الظاهر!
قد تعب من الضجيج، ويريد أن تظلم الدنيا من حوله مرة أخرى، يشفق من سماع صاحب الصوت، سيأتيه شامتا مؤكدا له كل ما أسلفه.
لا يهم، ذلك أفضل ممن لا يسمعونني سوى صوت تصفيقهم.

- عرفت الآن أنني لا أريد لك سوى الخير.

- لم تعد لديَّ رغبة في أن تعرفني بنفسك، فقط أخبرني ما الذي يحدث.

- الذي يحدث أنك أدمنت تلك الخشبة يا صديقي، أنك تقدم الآن نفسك، ولا تسمع إلاها.

- أنا لم أنس أفكاري ولم أخرج عنها، لم يستهوني الجمهور يوما فأقدم له ما يعجبه ويخالف أفكاري.

- ومن قال لك إن هوى نفسك لا يكون إلا بمخالفة أفكارك، قد يكون وأنت تقدم أفكارك ذاتها، الانحراف يبدأ يسيرا لكنه ينتهي بشكل مفجع. وقد عرفت من أصحاب المسارح الكبيرة الذين كنت تتمنى أن تكون مثلهم في صغرك، قد عرفت الآن في أي واد أصبحوا، لم لا تكون حظوظ نفسهم هي من أوردتهم المهالك.

- ما الذي أفعله إذن؟ هذا ما أحسنه، أنزل عن المسرح! أترك المكان الذي قُدر لي

- من قال أنه قُدر لك؟

- أنا أريد للناس كلها الخير، وأنا خيّر، إذن فاقصر الطرق أن أكون مؤثرا حتى يكون الناس أخيارا على يدي، والمسرح هو وسيلتي، لأنها الوسلة التي أفسدت البشرية، وعلينا أن نصلحها بها أيضا.

- ومن يدريك، فربما هي وسيلة فاسدة في نفسها .. من يدريك لعل هذا المسرح بما يقتضيه من تضخيم دائم للأمور، وتهويل مستمر

للأفكار، وتصوير مثالي لكل شيء، هو مكمن الخلل، لماذا على الأفكار دائما أن تتمثل في أشخاص ظاهرين كل هذا الظهور، إذا سقط أحدهم مرة سقط معه خلق كثير بسببه، فيضعف الأفكار من حيث يريد لها أن تقوى.

- لكن الأفكار وحدها في العالم المجرد غير قادرة على تمثيل نفسها، ونحن من يناط بنا أن نمثلها، الأفكار الفاسدة تجد دائما من يمثلها لذا يعجب الناس بها.

- الأفكار الفاسدة سطحية وزائفة لذا مدخلها العين دائما، والعين ترتسم فيها الصور، والأفكار الخيرة حقيقية وعميقة لذا مدخلها القلب غالبا، والقلب تنقش عليه الحروف، ربما هذا هو المختلف، لذا أنزل الله الكتب لهداية البشر.

- نعم، وبعث أيضا بالأنبياء ليكونوا صورا لهذه الكتب.

- لكنه عصمهم هم، ولم يعصمنا نحن البشر، لم يكن أحدهم في حاجة لكي يمثل أنه مثالي، أما نحن فلو تقمصنا أدوارهم فقطعا نحن نحتاج إلى التمثيل هنا.

- إذن أنت لا غرض لك سوى أن أنزل من على المسرح في النهاية؟

- لا، أنا أريدك فقط أن تعرف أن أثره قد لا يكون بالشكل الذي تعرفه، قد لا يكون باقيا حتى، أريد ألا يكون هو حياتك كلها، ألا يكون هو المبتدى والمنتهى، ألا يمثل لك فارقا، أقلت مساحته أم زادت، أضعف تصفيق جمهورك أم قوي، يمكنك أن تهتم بالصفوف الأولى لأنهم فقط يعرفونك، لكن حاول أن تكون صادقا. خذ إجازة وامكث في الكواليس قليلا تتعرف إلى نفسك، فربما حجب

عنك التعرف إليها كل هذه الأبصار العالقة بك.

- والسنوات الماضية! والأعوام القادمة! والجمهور الذي ينتظرني! كل هذا يضيع هباء؟ لا أنت تضللني، لو أن كلا منا اتهم نفسه هذه الاتهامات لجلسنا جميعا خلف الكواليس، وانفرد أصحاب المسارح الأخرى بالساحة، فعاثوا في الأرض فسادا.

- تحدثني دائما عن «كل منا»، لكني عنا أحدثك عنك أنت، لو أن كل الناس اهتدت وأنت خسرت نفسك، واكتشفت في نهاية الرحلة أن كل هذا زيف .. ما تصنع؟ لو أن كل الناس مقدر لهم أن يهتدوا بسبب لا يتصل بك، هل تكون حزينا أم سعيدا؟ لو أنك تكتشف أنك تفعل كل هذا ليقال عنك إنك فعلت هل تكون راضيا؟ سأتركك الآن و ربما لن آتي مرة أخرى أبدا، قد انتهت مهمتي وعليك أن تعرف بعد ذلك وحدك.

أتى النور هذه المرة بطيئا، لم يكن مندفعا لاستئناف عروضه ككل مرة، بطؤت حركته قليلا وبدت عليه علامات الضيق والضجر، لكن أحدا لم يلحظ هذا حتى الآن، قرر لأول مرة التوقف والأضواء ما زالت مسلطة، كان قلبه يرتجف خوفا لكن وللعجب ها هي أعضاؤه تتوقف عن التمثيل، وقسماته تعود لطبيعتها ولم يحدث شيء .. تولّى من على المسرح؛ وأخذ يطوف بين صفوف الجماهير ..

المقاعد كما هي، في نفس مكانها، كل ما حدث أنها استدارت نحو مسرح آخر من تلك المسارح السابحة حولنا كأنها على قطع تروس

كبيرة في آلة ضخمة، وي .. لم تتوقف الحياة، وي .. لم يترك الجالسون مقاعدهم ويذهبوا إلى أصحاب المسارح الفاسدة كما كان يتوقع بشكل حتمي، ربما دوره ليس بالضخامة التي رآها، ولا بالمثالية التي نشدها، ربما هو مثل الجميع هنا يُمثل ويُصفق .. ليس أكثر .

كانت أول جولة له خارج مسرحه، عاد بعدها ليرتقي مسرحه الذي لم يستطع أن يبعد عنه كثيرا، أغراه الجمهور مرة أخرى، كل هؤلاء يحبونني، كل هؤلاء متيمون بي، ما الضير أن أقدم لهم العروض، حتى لو يقدمها غيري، حتى لو لم يعد الأمر مثاليا كما كان في ذهني، لكن هؤلاء الناس أحبهم ويحبونني، لن أتخلى عنهم.

بعد ساعات وساعات أخرى، بدت الحياة طبيعية والصوت الذي كان يأتيه قد خفت وطأته عليه، والأنوار لم تغلق ككل يوم، بدأ فقراته المعتادة، أحس بأن شيئا ما تحت قدميه غير منضبط، ربما هو عرق الخشب المشروخ الذي رآه أكثر من مرة وتغافل عنه، لا يظن أنه ينكسر، لم يحدث ذلك أبدا من قبل

لم يتركه مسرحه في ظنونه كثيرا، فجأة غاصت إحدى قدميه وانكسر اللوح من تحته، وقع أمام جمهوره، حاول القيام مرة أخرى لكن قدمه قد انكسرت، وأصبح الألم لا يطاق، لم يكن الألم من كسر قدمه بل كان من رد فعل الجمهور نحوه، كيف لم يتخيل ذلك يوما من الأيام.

في أول السقطة صُدم الجميع، الكل شهق شهقة جماعية فاغرا فاه : أوه!، الكل كان ينتظر هل يستطيع القيام مرة أخرى وحدة أم لا، لقد رأى كل شيء في أعينهم رأى من اغرورق بالدمع ونظر إليه أن قم ولا تجزع، ورأى من ارتسمت بسمة خفية داخله أن عليك اللعنة، كُسرت! لا قامت لك قائمة، أتى اليوم الذي ننتظره، ذهب عنك سحرك الآن..

تتحول البسمات الخفية إلى ضحكات منفلتة، ثم قهقهات، ثم سخرية لاذعة، ثم سباب ثم قذف بتلك الأشياء البسيطة التي تنالها أيديهم أحيانا، وهو في كل مرة يحاول الوقوف. يحاول الاستقواء بنظرات الصامتين، يحاول أن يفهم لم يهاجمونه، أهؤلاء من يؤدي من أجلهم، قد انكشف كل شيء الآن، يتمنى في هذه اللحظة — بكل قوة هذه المرة — أن ينطفئ المسرح لكنه لم ينطفئ، لقد ذهبت لحظات الظلام، وذهب الصوت الذي كان يُبصّره بعد فوات الأوان.

لِمَ يلوم الجمهور الآن، لقد رضي منهم قبل ذلك أن يصفقوا لأدائه دون أن يعرفوا شيئا عنه هو، لقد رضي منهم أن يعجبوا بظاهره من بعيد على المسرح، فعليه أن يرضى اليوم أن يسبوا أداءه أيضا، أن يضجروا بظاهره أيضا، لم يعرفوه في الأولى، فكيف يطلب منهم أن يعرفوه في الثانية.

لقد أصبح عالم المسرح بعد هذه الحادثة كئيبا، لقد بدأ يتكشف له أن الناس تصفق له وليس لأفكاره، أفكاره ما زالت على حالها، وهو قد أدمن التمثيل والتهويل. لم يعد يعرف حقا مقدار أفكاره هذه بينه وبين نفسه، ربما لو أتاه مريدٌ الآن خلف الكواليس وسأله أن يؤدي له الهدى الذي يدعيه لما استطاع أن يرشده، ربما تأسف له : اعذرني، يا بني، فأنا لا أستطيع أن أؤدي إلا أمام الجمهور، ربما أُعرض عنه، و ربما يكون أثره هو أعظم وأعمق من أثر عابر على عشرات الآلاف لا يستقر في نفس أحدهم كما يستقر في نفس هذا الفرد .. ربما!

إذن يختفي تماما ويلزم الكواليس، ربما هذا أطهر له، ولكن كيف له أن يعلم أنه لم يترك المسرح من أجل الناس أيضا، لا من أجل نفسي، أنه ما يردد إلا "إذا رحلت عن قوم وقد قدروا ألا أفارقهم فالراحلون هم" .. كيف له أن يعرف الحقيقة، أن يُبصر ويرى نفسه دائما سواء أكان في

خفاء الكواليس أو تحت أضواء المسرح!

الأضواء هذه المرة ليست منطفئة، لكنه يراها الآن مظلمة، لا يرى الجمهور، ولا يرى المسارح من حوله، لا يرى إلا نفسه مجردة أمامه، ولوحة قديمة معلقة مكتوب عليها "من أراد الخفاء فهو عبد الخفاء .. ومن أراد الظهور فهو عبد الظهور"، وحلمٌ قديم تذكر الآن نهايته، ذلك الجمهور الذي كان يصفق له بادئ الأمر، قد ظهر فيه شخص أو اثنان ممن يعرفهم يهتفون ضده، ثم اتبعهم الكثيرون حتى ضجت القاعة بهم، قُذف من على المسرح وهو يصرخ : لم تفعلون هذا بي، وفي لحظة غامضة خرج شاب وفتاة من وسط الحشود التي كادت تطأه ورفعوه فوق أكتافهما وساروا به، ساعتها استجمع قواه وأخذ يهتف : نعم هذا أثري، هذا أثري، نعم هلموا إليَّ، الآلاف يُدبرون عنه، والعشرات يُقبلون عليه، يرفعونه ويسيرون به إلى غاية لا يعرف منتهاها .. وانقطع الحلم.

أيوب سلطان

أيوب سلطان

وصلنا متأخرين، شارفت الساعة على الثانية عشر ليلًا، أتذكر أننا أيضًا لم يكن لدينا حجز مسبق، كان الفندق أشبه بنُزل صغير أو خانٍ أكثر منه فندقًا، وجدنا غرفًا شاغرة بالفعل، كانت درجات السلم الذي لا يمتد إلا لطابقين هما كل المكان – تحدث طقطقات تُسمع في سكون الليل، ليست درجات السلم وحدها بل المكان كله كأنه قائم بألواح خشبية ومسقوف بها، الطرز التقليدية في البُسط الفخمة ولوحات الزيت المثبتة على الحوائط، والثريات المتدلية من الأسقف ذات البلورات الكريستالية والزجاج الملون. كل شيء هنا يشعرني بأني دخلت فندقًا في أول القرن التاسع عشر لا ينقصه سوى أن يخلع لي الحمّال قبعته فأقذف له بعملة معدنية.

من إرهاق الرحلة، لم أتوقع أن أستيقظ قبل شروق الشمس، لكن صوتًا غريبًا أيقظني، وصورة لم تفارق رأسي كأنما كانت في حلم لا أتذكر منه شيئًا، شيخ ذو ثمانين حِجة يؤذن للفجر، أستيقظ لأجد الآذان بالفعل يتسلل صوته من النوافذ الخشبية، لا بد أن المسجد قريب من هنا.

ما زالت صورة الشيخ تراودني في الممر الطويل المفضي للمسجد الذي بدت مآذنه الشاهقة من بعيد، كأنه قادم إليَّ من البحر يلبس لأمته في جند عظيم، ليس عليهم سيماء البحر ولا البحارة كأنما يسيرون بالسفن في خضم الصحراء، ويستقرون أسفل أسوار ضخمة لا تنفتح لهم.

كان مسجدًا ضخمًا يرقد في الظلام، كانت الإضاءات خافتة بعض

الشيء، باب كبير بدا على ضوء مصباح الشارع الذابل تعتليه البسملة المذهّبة بالطغراء وبالثُّلث الجلي «ادخلوها بسلام آمنين»، يهديك الباب إلى ساحة مكسوة بالرخام الأبيض كأنما هي منحوتة في جبل جليدي، على اليمين واليسار مقاعد من رخام أيضًا أمام صنابير نحاسية ونفر من المصلين يتوضأ، كان كل شيء ساكنًا كوقت الفجر لكن ما إن قطعت الصحن إلى باب المسجد حتى وجدت خلقًا كثيرًا، عبرت بينهم لأجد لي مكانًا بشق الأنفس في الصف قبل الأخير.

كنا صبيحة الجمعة، المسجد يغص بالمصلين، شيبًا وشبانًا متجاورين مصطفين يصلون ركعتي الفجر، إضاءة المسجد من الداخل كالخارج خافتة أيضًا، كأنما يضاء بقناديل الزيت لا بمصابيح الكهرباء، على الضوء الشفيف ترى المصلين على اختلاف المظهر والملبس يعتمر كل منهم طاقية شبكية بيضاء أو زرقاء أو خضراء، يدخل المرء منهم إلى المسجد فيخرج طاقيته المثنية في جيبه ويضعها على رأسه ثم يكبر. كلٌّ ينهي ركعتي النافلة ثم يجلس.

« لا إله إلا الله .. حسب ربي جل الله .. ما في قلبي غير الله .. نور محمد صلى الله .. اللهم صلّ على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد بعدد كل داء ودواء وبارك وسلم عليه وعليهم كثيرًا كثيرًا .. اللهم صلّ على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم».

الشيخ يجلس بين الصفوف، يردد ذلك الذكر الجماعي الذي كانت الحناجر تتمتم كلماته في خشوع مهيب فترتفع في فضاء المسجد الشاهق. كان صوته المتهدج ناصع العربية كما لم أسمع من أحد قط، مُفارق للمئات الذين يرددون خلفه بصوت واحد يشوبه حرف العين والحاء المملوئين بهواء هاء العُجمية التركية، يردد الجميع «لا إله إلا

الله .. لا إله إلا الله» عشر مرات ثم يردفون «حسب ربي جل الله .. جسب ربي جل الله» إلى الصلاة على النبي وآله ثم يهللون من جديد. ظننت أنهم قد فرغوا من المكتوبة وهذا ذكر لما بعد الصلاة، لكن إقامة الصُبح ما لبثت أن رُفعت فسكن الجميع وقاموا، قرأ الإمام نذرًا من السجدة والإنسان على سُنة الجمعة، وما إن سلموا حتى انطلق صوت مُعمم في مكبر الصوت يَسبَحُ ويُسبّح من مقام النهاوند. كانت رُسل النور قد لامست حديد نوافذ الجامع اللامعة من الندى، ثوب الإنارة الخافتة أخذ يتكشف أمامها فيبين لي عن المكان من حولي.

بساط المسجد، قطعة واحدة ضخمة صنعت خصيصًا بالتأكيد، مزهاة بالأحمر والزهري على شاكلة أوراق الشجر، وفي المنتصف زخرفة زرقاء ضخمة على هيئة وردة متفتحة. الحوائط ذات الحجر الرمادي المميز للصروح القديمة هنا، وأسنة المآذن المدببة كالسنان تستقر واحدة منها فوق المنبر الموشى بالزخرفات الذهبية من جوانبه والأعلام من أمامه معدّ لاعتلاء خليفة منتصر، القبة البعيدة المطرزة بإتقان... بدا كل شيء كأنه معد لاستقبالك أنت .. فقط يتزين لك وحدك على وقع الضوء المتزايد في المكان والتسبيح المستمر من مكبر الصوت: سبحان الواحد الأحد، سبحان الفرد الصمد، سبحان رافع السماء بغير عمد، سبحان من بسط الأرض على ماء جمد، سبحان من خلق الخلق فأحصاهم عددًا، سبحان من قسم الرزق فلم ينسَ أحدًا، سبحان الذي لم يتخذ صاحبة ولا ولدًا.

ناقة تحمل النور وتمشي الهوينى، زمامها غير ملجم تسير كأنها مأمورة، تسير في طرقات المدينة وتحط أمام بيت من بيوتها، شيخ وزوجه يستبشران ويلهثان بالحمد على الاصطفاء .. ما زال الذكر يصدح في المكان عاليًا

والكل منصت في خشوع: يا الله جل جلاله وعم دوامه ولا إله غيره، إلى ليس كمثله شيء في الأرض ولا في السماء، وهو السميع العليم، سبحان الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد، سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين.

الشيخ يوغل في الزمن أكثر، كأنه الآن فقد شطر عمره أو يزيد، أراه أقرب للشباب يمشي في الصحراء في سبعين نفرًا، يشارف جبال مكة عند العقبة، يعاهد مع المعاهدين ويضيء وجهه بذلك النور الذي لن يخبو من وجهه بعد اليوم أبدًا ..النور عم المكان، الذكر توقف وهب المصلون لركعتي الضحى ثم انصرفوا.

خرجت بعد المصلين، بدا لي صحن المسجد من جديد – بعد أن كان معتصمًا بالدجى – سافرًا، كانت الأعمدة الرخامية التي تحمل قبابًا أصغر ملتفة على جوانبه، وعلى طرف منه كان عدد من الزائرين يمسك باب حجرة مسورة، اقتربت لأفهم، صادفت عيني اللوحة البارزة «قبر الصحابي الجليل أبو أيوب الأنصاري».

صورة الشيخ لم تعد غائمة بعد الآن، عرفت إذن سر كل هذا، سر الأذان والفجر والذكر والبيعة والناقة والبحر والأسوار، أسوار القسطنطينية التي دفن تحتها الصحابي الجليل بعد جهاد ودعوة وصحبة للنبي جاوز معها عمره الثمانين، كنت قد عرفت من الأمس أن المنطقة مدفون فيها أبو أيوب الأنصاري، لم أتذكر ذلك كله إلا الآن.

لم يكتب لي الله بعد أن أزور نبيه صلى الله عليه وسلم ولا صحابته، كانت هذه هي المرة الأولى التي أقترب فيها ممن اقترب من رسول الله، ربما أدرك الآن لم هذه الوجوه خاشعة تغشاها السكينة ويكأنها في حَرَم، ولم هذا الحمام الذي ما زال يطير ويحط على كل شيء في المكان،

يشرب من هذه النوافير المنتشرة في ساحة المسجد الخارجية ويقف على قضبان النوافذ الحديدية وفي زوايا القباب الصغيرة وعلى تلك الدوحة العظيمة المستقرة في المكان كأن عمرها من عمر أبي أيوب رضي الله عنه.

هل الصحابي مدفون هنا حقًا يا آق شمس الدين، أم أن هذا مجرد خرص؟ هل علي أن أصدق كشفك كما أصدق ويصدق كل من هنا تلك الروح التي تسري فيهم؟ لا أدري، وربما لا يدري أحد على وجه الحقيقة أين قبر الصحابي، هو هنا في مكان ما على أية حال، بجوار سور القسطنطينية حيث أمر جند يزيد أن يوغلوا قدر طاقتهم ثم يواروا جسده بالتراب، وبعد ثمانية قرون يأتي شيخ محمد الفاتح السلطان المنتصر، ويشير إلى المكان فتُضرب تلك القبة، ويشيد هذا المكان.

في الساحة، بدت الشمس كالمحتفية بكل ما في المكان، لم يغرِني طريق العودة إلى الفندق بقدر ما أغراني طريق الصعود إلى الجبل، كان محفوفًا بالأشجار والأحجار، تقترب فتجدها شواهد منتشرة بين الخضار في كل موضع قدم، منقوش عليها تواريخ موغلة في القدم وأسماء قضاة ومشايخ وأعيان وقادة جيوش ووجهاء وخلق غير ذلك كثير. كل شاهد من هؤلاء نُحتت فوقه علامة تميزه من عمائم أو طرابيش بأحجام مختلفة ربما كانت تنبئ عن مكانة كل منهم في زمانه.

«مدينة لي حاجي عثمان اقفرات أفندي .. يا زائري! اعلم كنت مثلك في الأمس وأنت مثلي في غدٍ من أجل هذا فاجتهد قبل غد لآخرتك. الكيّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني .. دوغوم تاريخي هجري ١٣٠١» .. استقبلني هذا النقش على أول منحنى الصعود لجبل الموتى. زرت من

قبل جبل الموتى في سيوة، كان بالفعل مرتفعًا موحشًا مليئًا بالقبور، أما هذا الجبل فمشرق بالحياة والخضرة كأن باطنه لا يحوي كل هذا الرفات. عندما وصلت للقمة كان المنظر بديعًا للغاية، المكان كله يشرف على خليج القرن الذهبي، هنا صورة تختصر إسطنبول كلها، قباب ومآذن آيا صوفيا والمسجد الأزرق تتلألأ من بعيد بألوانها الذهبية، والماء يصنع منه الريح الزرد المنتشر على طول الخليج، والأشجار عندما تنظر للأسفل تلف السلطان أيوب الذي يظهر لك بكله للمرة الأولى، وفوق كل ذلك يشخص أمامك شاهد قبر لا يكتب عليه صاحبه موعظة عريضة كالتي قابلتني في طريق الصعود، فقط كتب كلمتين: هو الباقي.

كم من سلاطين ووزراء وصدور عظمى جاءوا إلى هنا في أول أمرهم يتوجون في هذه الساحة العظيمة عند السلطان أيوب، ثم يؤتى بهم إلى هنا مرة أخرى في سفح الجبل يرقدون في مثواهم الأخير، خارج أسوار الملك والحكم، خارج أسوار القسطنطينية، هو الباقي.
نزلت الهوينى أتقي الشمس التي أصابت شيئًا من كبد السماء في تلك الساعة، سُبل الماء هنا منتشرة، بصنابيرها النحاسية التي تنفتح بصرير صغير كأنك تفتح بوابة الزمن، شربت الماء من إحداها ونزلت أتلمس طريق الفندق أخيرًا، أمر على ساحة المسجد فإذا بها قد دب فيها نوع آخر من الحياة، باعة متجولون بعربات مزينة يبيعون الذرة المشوية أو المثلجات وأطفال تلهو ونساء كثر يتوافدون على الضريح والحمام قد لازم النوافير يتقي ببرد مائها حرارة النهار المشمس.

أشباح الأبواب الصغيرة التي قابلتني في طريق الذهاب تبدي لي الآن

أنها أحواش مقابر أيضًا، لكن الاختلاف في اتساعها وأسوارها والأبواب المذهبة التي تقف أمامها عليها والقباب الملونة التي ضربت عليها، كل قبر منهم تحسب أنه روضة من الرياض إذا دخلته ورأيت ما يصنع الرخام الفخم مع الخطوط الزاهية مع الأشجار المورقة والأزهار المفتحة من فتنة، وإن كان كل ذلك من أجل قبر.

الحوانيت والبازارات التي أمام شرفة الفندق مباشرة قد فتحت وتلألأت حبات المسابح وألوان الخُمر التركية فيها، وفاحت روائح البخور والعطور من أمامها، وزوار السلطان يقلبون في بضاعتها ويشترون منها للتذكار أو التبرك، هذا السوق الصغير أكمل لوحة المكان بكل براعة.

كان عليّ أن أتناول الفطور سريعًا ثم نتحرك من المكان، الشيخ ذو الثمانين حجة يقدم عزقًا من نخل فيه رطب وبسر إلى أصحابه ومعهم النبي في يوم ضربوا فيه حجرًا على بطونهم، وأنا أتناول شطيرة صغيرة من زبد ومربى وأحتسي شايًا إنجليزيًا في حديقة الفندق الذي بدا هو الآخر أكثر مما رأيته في الليل، أكثر من قطعة فنية لم تدخل إلى القرن الواحد والعشرين قط.

حزمت حقيبتي، تأكدت من أن جميع الصور التي التقطتها سليمة في ذاكرة الكاميرا من أجل أن تراها العين التي كنت أريد أن تصحبني هنا. أغلقت دفتري وتأكدت أن كل ما شعرت به في تلك الجولة الصباحية سجلته في ملاحظات الرحلة هنا، طبقت الحجاب الملون بإتقان، ورسمت لوجه حبيبتي السلطانة به كل الصور، أوَ ليس الحب وحده سببًا كافيًا للسلطنة؟ نعم هو ذلك، وربما من أجل هذا فإن أبا أيوب لم يتسلطن على الحقيقة إلا هنا في القلوب فكان عند الأتراك: أيوب سلطان.

كفرنبل

المدن الجبانة تعيش على ما هي ١٠٠٠ عام، والمدن الباسلة تحرق في كل قرن مرة أو مرتين.

كفر نبل

الطرقات مكتسية بالأخضر الجبلي، أشجار الشوك الخادعة بلونها المزهر، حواف الطريق الجيرية البيضاء تليها مساحة رملية صغيرة صفراء، ثم صخور رمادية متكدسة تقبع فوقها الشجيرات النائتة قاتمة الاخضرار.
الدكتور يسير بسرعة معقولة، بيد يوجه عجلة القيادة على الطريق الملتوي بين التلال وبالأخرى يضغط على زناد مسدسه الصغير المخبأ أسفل المقعد، ما إن بدت الناحية من بعيد قال لنا : ها هي كفر رومه وبعدها نصل إلى البيت، ينهزم الخضار الجبلي أمام الصخور الرمادية، تظهر شجيرات قليلة سامقة بدت من بعيد كأشجار الأرز ولكنها كانت صنوبر بالأساس، يبطئ بنا قليلا فنظن أنه كمين آخر، تقف السيارة ويشير لنا – بعد أن فتح نافذة السيارة – إلى تلة قريبة، انظروا هذه "شنشراح".

نترجل من السيارة ليقع بصرنا على ذلك الأثر العجيب .. مدينة عتيقة دارسة، طلل روماني قديم، عدد من بوابات المدينة ما زالت قائمة أحجارها التليدة، تقف غير عابئة بالثورات ولا الأنظمة ولا الدول ولا الناس .. تساءلتُ مستعجبا : يبدو أنها كانت معلما سياحيا قبل الثورة، قبل ضرب السياحة كما كان عندنا.
ضحك الدكتور: لا هذه المدن القديمة لا يزورها أحد إلا مصادفة، رغم أنها مسجلة على قائمة اليونيسكو لكن لا نعدها مناطق سياحية ولا أحد يهتم لأمرها هنا، إنما هي أحد معالم مدينتنا التي مر عليها التاريخ من أول سطر فيه.

على كل لم نكن سياحًا أيضا، ربما فاجأنا المنظر ليس أكثر، ركبنا مرة أخرى، مررنا على كمين قال عنه الدكتور إنه آخر كمين قبل البلدة، شاب أشعث يرتدي بزة الجيش المموهة، يقف بجوار برميل فارغ محشو بالحجارة و محشور فيها علم الثورة الأخضر، بشَّ للدكتور عندما رآه، ورحب بنا، قبل أن يزيل الحواجز من الطريق أمامنا.

بمجرد وصولنا للبلدة كانت الطائرات قد بدأت جولة جديدة في سمائها، أشار الدكتور : إنها البراميل المتفجرة، خرجنا من السيارة التي كانت قد وصلت بالفعل أمام البيت وهرولنا إلى أقرب حائط، قال الدكتور : علينا أن نبقي بجوار سور أي منزل، لا بداخله حتى نرى أين يقع البرميل، ولا في وسط الشارع حتى لا يسهل استهدافنا.

ابتعدت الطائرات قليلًا، تركنا السور وطرقنا باب البيت، فتح طفل صغير وصاح وسط حوش الدار : خالي عبد السلام وصل يا جدة، طلت من باب البيت سيدة خمسينية لا تسعفها الكلمات المتناثرة في التعبير عن فرحتها المتلهفة ولا تستطيع أجفانها المتعبة أن تحجز ماء عينيها فانسدل سريعا، لم يمهلها ولدها عبد السلام حتى تلقفها في حضن عميق.

قامت السيدة زهرة بعمل واجب الضيافة معنا على أكمل وجه، جلسنا متجاورين في شرفة البيت التي تطل على الحوش. عهدت السيدة إلى أحد أحفادها فقطف لنا من حديقة المنزل ثمار الخوخ و التين الجبلي وبعض عناقيد العنب، وعلى العشاء كان الخبز شهيًّا مخبوزا في الفرن الذي يقبع بالفناء الخلفي للدار مع الزعتر والجبن والسالمون المجفف، وأخذت تحلف بالله أنها لو كانت تعلم بقدومنا لذبحت لنا من الطير الذي تربيه على سطح البيت.

كانت السيدة زهرة ما زالت دامعة العين تحاول الاطمئنان على ابنها وتسمع منه أخبار حلب وما حل بها، والدكتور يطمئنها بأن الأمور على ما يرام، وأن الجيش الحر والثوار يتقدمون كل يوم في موقع جديد، وقريبًا يحوزون الكلية الحربية رأس الحربة في الصراع على مدخل دمشق من جهة حلب.

كان عبد السلام يحدثها وهو مبتسم وهادئ ومفعم بالأمل كما رأيته في أول لقاء قبل أيام.. كانت أول مشفى ندخلها في حلب وفي سوريا كلها، كانت وسط المدينة، وبعد رحلة رعب وخوف – تحركنا فيها داخل نطاق سيطرة النظام دون غطاء – وصلنا لها حيث تشح الإمدادات عن تلك النواحي.

لم يكد يعرفنا بنفسه وبالطاقم الذي معه حتى اقتحم الغرفة طبيب شاب: دكتور لدينا حالة حرجة، بخفة ارتدى المعطف الأبيض وألقى بالسماعة الطبية على كتفه وخرج من فوره ونحن خلفه، وصل إلى المصاب الذي كان يتحرك على عجلات السرير إلى غرفة العمليات، استوقفهم وألقى نظرة. قلبه خارج قفصه الصدري، ومقلتاه جاحظتان، والدكتور يقيس النبض، وما هي إلّا ثوان حتى مد أصابعه إلى جفنيه وأغلقهما بهدوء وقال : إنا لله وإنه إليه راجعون .. تقبله الله في الشهداء.

كان المشهد الصباحي مفزعا بالنسبة إلينا، أن يكون أول الحالات رجلًا خمسينيًّا قلبه خارج صدره، نعم قلبه خارج صدره بشكل حرفي، رأيت قطعة اللحم النابضة تلك ملقاة على جسده، وأسرته تولول خارج المشفى، كانوا يحملون أمتعتهم على سيارتهم الخاصة ويحاولون الفرار من المدينة بعد أن وصل القصف إلى حيهم، ولكن قذيفة هاون عاجلتهم وأصابت الأب بشظية لم ينج منها كما شهدنا.

في المساء، خرج معنا الدكتور عبد السلام لزيارة بعض المشافي القريبة والاطلاع على احتياجاتها، عندما ركبنا السيارة طلب منا أن نتشهد، نظرنا إلى بعضنا البعض، فقال في دعابة: الاحتياط واجب، وهذا الشارع الذي سنقطعه تقع عليه القذائف طوال الليل، والعمر واحد والرب واحد.

....

المساء قد أقبل، والقمر يبدو مكتملا خلف أوراق الزيتون الوارفة التي تظلل شرفة البيت، والسيدة زهرة قد ارتوت قليلا من ابنها الذي طال غيابه ستة أشهر كاملة وأتت لتجلس معنا وعلى يديها صينية شاي بالمرمرية الجبلي ومعه الفستق الحلبي.

ضرب بوق سيارة خارج الدار.. تهلل وجه الأم بقدوم ولدها الثاني فِراس الذي يقيم معها في البلدة، تعانق الأخوان عناقًا حارًّا، ثم قال الدكتور : هذا فراس فتى فتيان كفرنبل وحامي حماها .. وضحك الجميع.

....

في الصباح كان فراس يحتسي قهوته وينظر خارج البيت إلى سور قديم محطم معظمه.

- هل كانت هناك معركة ما؟

طوى بذلته الحربية فظهر لي جرح غائر على ذراعه وقال : معركة التحرير.

- كنت من المشاركين فيها ؟!

- أنا كنت أول من ردد خلف محمود قدور الله يحميه : بالروح بالدم نفديك يا درعا في أول جمعة من نيسان ٢٠١١، والتي نعتبرها ذكرى ثورتنا هنا. وظلت المظاهرات تخرج كل يوم جمعة من وقتها إلى أن حاصر الجيش المدينة بعدها بشهرين وظل ٢٠ يومًا حتى استطاع أن يدخلها، وكان هذا الحائط الذي تراه أقوى كمين في البلدة، وهناك أُصِبت.

سمعنا صوت الدكتور ينادي: هلموا إلى الفطور حتى نبدأ جولتنا مبكرا.

لم تكن المسافة بين البيت والمشفى بعيدة، ترجلنا إلى المكان حتى نعاين احتياجاته ونصور المستلزمات التي تنقصه.

واجهة المشفى مخرمة من كل مكان بالطلقات المتنوعة كما في كل المباني هنا وسط المدينة، كانت مهمتنا كما في كل مشفى تصوير المكان والمعدات الناقصة وتوثيق الاحتياجات وإيصالها إلى اتحاد الأطباء العرب من أجل الحملة الإعلامية التي يقوم بها الاتحاد، لم يكن هناك الكثير من المصابين، نظر إليَّ فراس وقال: كان عليك أن تأتي هنا وقت معركة التطهير كانت هذه الأرض مغطاة بالدم لا ترى من لون بلاطاتها شبرا.

قاطع فراس صوت دوي كبير، هرولنا خارج المشفى بإشارة منه وانتظرنا بجوار حائط مقابل للمشفى كما تعلمنا من قبل، رأيت البراميل المتفجرة بشكل أوضح هذه المرة، أشار إلى طائرة ينزل منها برميلًا مترنحًا وقال، هذه الحمولة تنزل في معرة النعمان بيننا وبينها عدة كيلومترات، ثلث ساعة بالسيارة، بدا لي صوت البرميل بعدما انفجر كأنه بعد شارعين منا.

كان الحائط الذي نلتصق به مدونًا على جداره عشرات الأسماء من الشهداء، قال لي فراس أن هذه الساحة شهدت أهم فصول معركة التحرير، أشار إلى دبابة نصف محترقة في مدخل الدوار وقال: هذه من مخلفات المعركة، كان منها عشرة على الأقل أزلناها كلها إلا هذه آثرنا أن نتركها كنوع من التذكار.

عدنا إلى البيت بعد هذه الجولة القصيرة، كانت السيدة زهرة أعدت شايا بالمرمرية بناء على استحساني له بالأمس، قلت لها مازحا: إن فراس أخذني في جولة سياحية بمعالم المدينة الأثرية. تبسمت وقالت: لولا هؤلاء الشباب ما كان للمدينة معالم من أصله. وربَّتت على كتف ابنها الشاب.

أخذت السيدة زهرة تسألني عن مصر وعن أحوالها بعد الثورة، وعما يصلنا من أخبار عنهم هنا في سوريا، وأخذت تدعو لنا بدعوات صافية صادقة، ثم همت بالانصراف وقالت: لا اتأخر عن موعد الغداء، لقد ذبحت لكم من طير ما زلت أسمن فيه من شهور وأقول سأذبحه لعبد السلام عندما يأتي لزيارتنا.

تبادل عبد السلام وفراس نظرات صامتة بعدما رحلت الأمر وقال الثاني للأول: هل أخبرتها؟ رد الأول: ليس بعد؛ ثم تنهدا في الوقت نفسه تنهيدة كبيرة.

لم تكن زهرة تعلم أن ابنها لن يجلس معها سوى ليلة واحدة فقط وأن عليه المغادرة اليوم معنا صوب الحدود لاستكمال مهمة الإمدادات الطبية، قال فراس لعبد السلام بعد صمت: لا تخشى عليها إنها تنتظر أبانا منذ ثلاثين عاما، ستعرف كيف تنتظرك شهورا أخرى.

حكى لي عبد السلام أنهم ليسوا من معرة النعمان ولا من إدلب، وأن أصلهم من حماة، وقد شهدوا أحداث المجزرة قبل ٣٠ عاما، حيث ذهب أبوهم في عداد المعتقلين أو المفقودين، لا أحد يعرف حتى الآن، وأن والدتهم ما زالت تنتظره منذ ذلك الحين، وتمني نفسها بأنه عائد وأنه حي، وأن أمانيها في خروجه قد زادت بعد بداية الثورة.

تنهد ثم قائل: تعرف، يا أحمد، أتذكر ذلك اليوم منذ أشهر قريبة، عندما اجتمعنا هنا في الدار مع الشباب وكنا نتناقش كيف يمكننا أن نرد علي قوات النظام التي نعرف أنها سوف تصلنا بعد أسبوعين أو ثلاثة على الأكثر من إعلاننا الإضراب العام، ومظاهراتنا اليومية بالليل والنهار، كنا نتناقش كيف يمكننا أن نشتري عدة بارودات ندافع بها على حواجز البلدة حتى يصلنا أي مدد من الثوار المسلحين، فدخلت علينا ووضعت بين يدي قرطها

وعقد ثمين كانت تحتفظ به من والدنا ثم صدحت بزغرودة أسمعت الحي وشرعت في طرق أبواب جاراتها تطلب منهم أن يضعن حليهن للشباب حتى يتجهزوا بذهبهن للقتال.

بفضل هذه الليلة، كفر نبل استطاعت أن تتحرر وأن تبقى حتى اليوم حرة، وحرة هنا ليس من قوات النظام التي فشلت في السيطرة عليها وفقط، بل حرة لأنها لم تحتاج إلى أي قوة مسلحة من الثوار الطارئين، وثارت بأيدي أبنائها وبارودات دفعت أموالها من حلي نسائها، ودماء روت هذه الأرض التي رأيتها منذ ساعات.

– ولكن يا دكتور هذا ليس حال أغلب المناطق المحررة الآن، فالجميع يتحزب الآن، وكلنا يعرف ما بعد هذا التحزب.

–نعرف للأسف، ونحن بين نارين، نار النظام ونار من يحاول أن ينجينا منه، ونسأل الله السلامة.

في المساء، كنت مدعوا لمسيرة ليلة ينظمها الشباب، تعجبت من خروج مسيرة ليلة في هذه الأجواء الخطرة التي تفتح فيها السماء على البشر السنة اللهب وقذائف الموت، وتعجبت أكثر عندما سألت فراس: لم تقومون بالمسيرات أصلا، نحن نتظاهر أمام النظام، وأنت النظام هنا وبلدكم محررة، فأجاب: هذه المسيرات يتابعها أهالينا المحاصرين في البلاد الأخرى فيعرفون أن الثورة ما زالت نابضة.

في الطريق، مررنا على صديق لفراس، عرفني عليه وقال: هذا رائد الفارس مهندس لافتات كفرنبل الشهيرة، تعجبت من التعريف هل اللافتات تحتاج إلى هندسة، ولكن التساؤل لم يعلق كثير بذهني عندما ساعدتهم في تحميل اللافتات على سيارة مكشوفة، كانت متنوعة في الأحجام والمقاسات وكثيرة في العدد وقدر كبير لا بأس به منها عبارة عن رسومات كاركاتورية

مرسومة ولوحات فنية وعبارات مسجوعة أو حتى طرفٌ محكية مضحكة مبكية وكل ذلك له نسخ عربية وأخرى إنجليزية.

في الطريق، أخذ رائد يحكي لي مغامرات هذه اللافتات التي ننقلها اليوم بسهولة، كيف كان الحال في كتابتها والتنقل بها وقت أن كانت كفر نبل محتلة من قبل النظام، وكيف تنقلت بين الجبال والمزارع لتصل إلى قرية هنا أو هناك في مسيرة صباحية أو ليلية، كانت حواجز النظام تعامل اللافتة معاملة الباوردة بالضبط، لا يهم إن كان معك قطعة قماش بيضاء مكتوب عليها أو قطعة حديد سوداء محشوة بالرصاص، أيام المقاومة والجبال لا يعلى عليها يا فراس، الله لا يعيدها أيام، وضحكنا جميعا.

تحت جنح الليل بدأنا في التحرك مخلفين وراءنا البلدة فوق تلك التلة المشرفة على كل مزارع التين والزيتون هذه، تفتح عيونها كل يوم على هذه الأرض وتطمئن أنها ما زالت بخير، هذه الأرض التي تعبت ومر عليها الآن عامان ثقيلان من النار والدم، ولا يعلم أحد ما الذي عليه أن تنتظرها حتى تورق هذه الشجيرات في الصباح بلا خوف من أن تحترق.

:

وِصَال

كنت أظن أن الكنز في الرحلة، ولكن عندما وصلت نسيت الرحلة .. ونسيت الكنز، فقد وجدت ما هو أعظم

وصال

من ذاق عرف.. وقبل أن أعرف، يا صاحبي، كنت أعرف أنني سأعرف، كنت أرى لكنها رؤيا البَصير لا المبصر، كنت موقنا لكنه علم اليقين لا عينه، وعلى الرغم من كل ذلك دُهشت كأنني لم أتخيل أو أتوقع أنني سأعرف يوما ..

الوصال .. ذلك الأمر الذي يُحسِنُ المرءِ في وصف شوقه إليه حال الغياب والاغتراب، أو تشوفه حال الاقتراب، أما حال الحصول والوصول فإنه يقع أسير الانجذاب، فلا يُحسِن الناس عبر القرون — إلا نفرًا قليلا منهم — وصف الوصال حال كونهم فيه، أما من عذبوا به، وصُدوا عنه، ومُنعوا قطره فا لمئات منهم قد خلد مراثي طوال في وصفه .. وإن كانوا قد ماتوا إليه ظمئي.

حدِّثني عن البحر وأنت على الشاطئ، حدثني عن زرقة مائه وسمائه، حدثني عن ضربات موجه المهيجة لروحك، وذرات يوده الغازية لمسامك، حدثني عن دفقاته المتناغمة مع دقات قلبك، حدثني حتى عن أول غمسة لأطراف قدميك في أطرافه، وأول استشعار لاتصال ذراتك بذراته، كل ذلك يمكنك أن تحدثني عنه ورسمه ملء عينيك وصوته ملء أذنيك.

أما إذا خضته خوضا حتى غمرك تماما، وأصبحت نقطة بأحشائه، لا تطال قدماك أرضا ولا يدك سماء، فقط أنت فيه، ساعتها تعالى

وحاول أن تحدثني عنه، وعن شعورك الآن به، ساعتها لن يكون منك سوى الصياح فرحا ولهوا وطربا، تُعليك موجة وتهبط بك أخرى، ولا شُغل لك سوى ألا تُغرم به حد الغرق!

فكذا الوصال يا صاحبي، أوله هَون وآخره هول، الشوق له معروف منثور ومنظوم، والوصف حال حدوثه مُعجز معقود له اللسان والقلب.. وكل ما سأحكي لك عنه لا يكافئ ما هو عليه، فأنا بالكاد أحاول ألا أكون به غريقا .. يكفيك مني وأنا في عرض البحر أن أصيح وألوح أن هلموا، تلويحة بصيحة مفعمة من سابح، خير من ألف كلمة غزل للبحر وأنت على شاطئه، الأولى تجعلك تخلع حجبك وتلقي بنفسك فيه، والثانية تجعلك تكتفي منه بالنظر!

تريد أن تعرف ما الذي يحدث لك بعد القفزة الأولى، ربما ما حدث لتوماس آديسون عندما أنار مصباحه بعد ما قالوا لنا إنها التجربة المائة، أو عندما تضعضعت عظام الرافعي وهو يقول : يا كهرباءَ الحبِّ رفقًا .. إنّما هذهِ الأنانيبُ الضّعافُ عِظامي!

فهي روح جديدة غريبة تسير في أوصالك، كما الكهرباء لو سرت في مصباح فأنار أو آلة فتحركت، كما الأرض إن نزل عليها قطْرٌ فربت، أو النهر إن انزاح عنه سد فجرى، لكنها روح تعرف مسارها جيدا، خطوطها في الأرض محفورة، ومسارها في العروق أو الأسلاك محفوظة .. هو اتصال بعد انقطاع غير معلوم، وليس إنشاءً من العدم.

اتصال بين أجزاء النفوس المقسومة في هذه الخليقة في أصل عنصرها الرفيع، كما يقول ابن حزم، اتصال تشعر معه بهذين الإحساسين المتناقضين معا، تشعر ويكأنك لم تُخلق أو تعش إلا هكذا؛ من أول عمرك لا تعرف سوى أنك متصل بنصفك المقسوم لك، ورغم ذلك

في كل يوم وكل مشهد تشعر أنك للتو تتصل مع قسيمك لأول مرة، وتعجب في كل مرة كأول دهشة.

مع ذلك الاتصال لأول مرة، تشعر بذلك المعنى المروي في مشهد سرمدي مشهود، عندما يؤتى بأبأس أهل الأرض من أهل الجنة، فيصبغ صبغة في الجنة، فيقال له : يا ابن آدم، هل رأيت بؤسا قط؟ هل مرَّت بك شدة قط؟ فيقول : لا والله يا رب ما مر بي بؤس قط،ولا رأيت شدة قط!

نعم تشعر أنك لم تشعر بحرمان قط، لم تلمس شغاف قلبك شقوة قط، لم تصب عيناك بسهاد قط، ولا أصيب قلبك بنصال الهجر والمنع والشوق لمحبوبك قط، تشعر أنك ولدت بذلك الموصول وهو ولد بك!

لكنها ولادة لا تنتهي كأي حدث ولادة عادية، فإذ أنت وصلت في مراتب ذاك الوصال إلى الكلف والشغف يصبح كل لقاء وكل اتصال هو لحظة ولادة جديدة، لا تسأم منها إلا لو سأمت الشمس ذات يوم من أن تشرق، ولا تمل منها إلا إذا ملت الطيور ذات صباح من أن تطلق زقزقاتها فرحها بدفء شعاع نجمنا الأكبر هذا وإن كانت ولادة المرء الأولى منا تكون من رحم أمه، فإنه هنا هذه المرة تكون الولادة من قلب محبوبته. فإن النظرة الأولى تكون كالنطفة في قلبها تظل تكبر حتى تصير علقة ثم مضغة ويظل يفيض الشعور حتى إذا كانت لحظة الوصال تُنشئ منها خلقًا آخر، تعرف من نفسك القديمة وتُنكر!

تعرف منها بعضا من ذكرياتك القديمة في مذاهبك ومشاربك في الحياة، وتُنكر منها الكثير مما تُغيره أنت وتُكيفه من مذاهبك

ومشاربك تلك حسب هواك الجديد، تنظر للعالم من خلال أربع عيون فتبصر فيه ما لم تبصره من قبل، تستتخف بعض ما كنت تستثقل، وتستثقل بعض ما كنت تستخف، ولعمري إن مذهب أقوام بأن تمام المحبة بأن تكون النفوس المقسومة قبل أن تتصل متشاكلة تشاكلا ظاهرا حتى إذا تمازجت لم تجد كبير جهد في أن تتطبع وتتماثل، لغريب.

فأيهما أشد حبًّا وغراما، ذلك الذي يكون قبل الوصال، فيه ما هو مثال صاحبه، وفيه ما يخالفه، حتى إذا تم الوصال تحققت المعجزات ووجدا نفسيهما يتشكلان معا تشكُّلًا حرًّا لينا لم يعهداه من قبل، أم اللذان لم يجربنا ذلك الجهد وهما في الأصل يأتيان هذا الأمر ويدعيان ذلك لا حبا للآخر وإنما لأنه أصلا يوافق هواهما ولم يكابدا فيه!

تلك المكابدة الماتعة التي تمزج روحيكما بعد فترة فتصبحان كلًّا بعدما كنتما جزئين مقسومين، كلٌّ يصلح منه قول أحدهما للآخر : يا أنا، وإني كنت لأعجب من ذلك الوصف وأحسب أن قائليه قد أفرطوا فيه وخرجوا عن القصد، ولكن لَمّا اختبرته وجدتهم لم يبلغوا معه الحد!

بلا غموض أو إغراب، نعم تشعر في الوصال أنك الآخر والآخر أنت، لأنك لا تعرف في الوصال كيف يبتدأ الشعور وكيف ينتهي، أين حدود روحك مع حدود روحها، ما مقدار التماهي بينكما كيف يقل وكيف يزداد؟

ما مصدر البهجة والسعادة، إنك لتسعد أن صاحبتك منفرجة الأسارير، تعزف الدنيا موسيقاها بأذنك عندما تسمع صوتها مفعما بالفرحة، فتفرحُ هي لذلك أيضا، وهي تحبك فرحا وتسعى لتلك الغاية في كل ساعة من ليل أو نهار، فلما ترى أنك فرح لفرحها تفرح لفرحك، فأين بدأ الأمر وكيف انتهى هنا!

ما مبتدى الضيق والضجر، إنك لتضيق بك الحياة إذا يوما تكدرت صفحة وجهها أو غامت عيناها بسحابة عابرة، فتضيق نفسها لأنك تكدرت بسبب كدرها، فتضيق نفسك مرة أخرى لأن كدرها زاد لما رأت أنك قد تكدرت لكدرها. وعندما يكون سبب هذا الضيق والضجر أحدكما فإن الأمور عندما تتصافى تجد أن كليكما يحتمل قلبه إثم أنه آلم صاحبه وكلاكما يعتذر عن ذنب أو غفلة لم يعد يعرف من بدأه ومن أنهاه!

ولا يكاد يُفهم ذلك الأمر إلا عندما تعلم أن الحنان المنان يقول "فإذا أحببته" .. "كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ورجله التي يمشي بها .."، أين بدأت المحبة هنا وأين انتهت، سبحانه هو المبتدى وهو المنتهى

وقد كنت قديما أعجب من علاقة الحب بين العبد الطائع وبين الله كيف تكون أحد أماراتها كثرة الاستغفار، وأحسب أن كثرة الاستغفار هي من كثرة الذنوب. ولكن لما مُنحت شيئا من وصال الدنيا علمت أنني في كل سكنة وحركة في حياتي وددت أن أقول لحبيبتي: أنا آسف، كما أقول : أستغفر الله .

أنا آسف لأنك الآن لست في درجة سعادة أفضل فلربما بوسعي أن أفعل، أنا آسف لأنني يوما ما ولو قديما كدرت عليك أو آذيتك ولو عن غير قصد، ولو غفرت لي، نعم.. فإن ذلك يوما ما قد حدث وعلى أن أكون آسفًا، أنا آسف لأن كل هذا الحب الذي تعطيني إياه قد لا أكون أهلا له، آسف لأنني يوما ما قد أغضبتك، آسف لأنني يوما ما سوف أغضبك، وسأفعل لأننا نحيا في هذه الدنيا التي دوام حالها من محالها.

نعم .. أستغفر الله لأنني عصيته يوما وأعصيه كل يوم، أستغفر الله لأنني يوما لم ولن أوفي شكر معشار ما أنعم به عليَّ، أستغفر الله على ما علمت من ذنب وما لم أعلم، أستغفر الله على ما مضى من ذنب وما هو قادم، أستغفر الله ولو عشت في كل دقيقة أقول أستغفر الله لما اكتفيت، ولو عشت لأفهم ذلك المعنى دون ما أفاء به عليَّ من الوصال لما فهمت ..

الوصل يقرب منك كل المعاني التي توصلك للحبيب الأول، فإن كان أول معنى وصل إليَّ منه هو صلة الاستغفار، فإن الصلة العظمى هي صلة المحبة التي يكون الحمد علَما عليها، فإنه في الوصال تصبح كلمة "أنا أحبك" ليست جملة يُقصد بها الإخبار، ربما في أول مرة فقط، لكنها في كل مرة تصبح مقصودة بذاتها، متلذذ بقولها ، مترنّمٌ بسماعها ، تصبح جملة لا نهاية لأحرفها، كلما قيلت كان لها لون ومعنى غير الذي كان منها من قبل.

إذا قيلت في شدة فكأنها كلمة مواساة، وإذا قيلت في نشوة كأنها كلمة شكر، إذا قيلت في موقف نصر فكأنها كلمة فخر، وإذا قيلت في موقف انكسار فكأنها كلمة جبر، إذا قيلت في خوف كانت طمأنة؛ وإذا قيلت في أمن كانت هدهدة، إذا قيلت في أول الطريق كانت وعدًا؛ وإذا قيلت في نهايته كانت وسمًا .. وإنك لتحب أن يقولها لسانك في كل وقت، وإنك لتحب أن تسمعها أذنك على كل حال.

وكذا الحمد، فإنه يَحسَن من العبد في السراء والضراء، في العسر واليسر، في المنشط والمكره، في الأولى وفي الآخرة، حمدا لا يبلغ منتهاه أبدا، حمدا يملؤ السماوات والأرض، ويملؤ ما شاء العليم من شيء بعد، حمدًا لذاته ولنعمائه، حمدًا لأنه هو أهل الحمد، وحمدا لأنه المنعم عليَّ بلا

استحقاق ولا فضل، حمدا يحبه ويرضاه، حمدا قال فيه موسى من قبل: كيف أحمدك وحمدي لك هو هداية منك تستحق أن أحمدك عليها!
أما ما بين الاستغفار والحمد فإنه الثناء الحسن، وقد كنت أيضا لا أعرف كيف تكون كلمات المخلوقين في حق الخالق مناطا للاستحباب والتكليف منه، لكنه ليس الخالق وحسب، لكنه المحب لخلقه، والمحب يحب من محبوبه أن يثني عليه ويذكره بما هو أهله دائما
في الوصال الأرضي تجد نفسك غير مكتف بأي أوصاف تُقال وتُكرر، تود لو أخبرت محبوبك كل يوم، كل يوم أنه الأجمل بعينك، أنه الأبهى طلعة، والأوسم وجها، والأعذب بسمة، والأرق حاشية، والأغن صوتًا، والأميس قدًّا، تود لو توقفت عند كل حركة وسكنة له فأبديت له ما فيها من فتنة لك شبت ولم تزل، عطره وحُليه، كحل عينيه ونصيف وجهه، كل ما له وما فيه حسن.
وإذ الثناء عليه معه له مذاق، فالثناء عليه أمام الناس له مذاق آخر، وكلاهما محبب في نفس المحبوب، بلا غرض للتيه أو قصد للعجب، أو حذر للحسد، فقط كلاكما يحب في لحظات ما أن تَعْلم الدُّنى أن الحب بينكما موصول، وأن قدر كل واحد في نفس الآخر أغلى من شربة الماء في هجير البيداء.
كذا فهمتُ بعدما ذقت وعرفت، كذا فهمت "سبحان الله" و "الله أكبر"، كذا فهمت الثناء الجميل عليه بما هو أهله، كذا فهمت حبه لأن أذكره في نفسي، ولأن أذكره في ملأ من أهل الأرض فيذكرني في ملأ خير منه في أهل السماء، هو الذي لا تحيط به الأسماء، ولا تبلغ أوصاف الكمال والجلال فيه على ألسنتنا قطرة ماء في بحار الأرض والسماء، سبحانه تبارك اسمه وتعالى جده ولا إله غيره .. هو هو كما

أثنى على نفسه، لا نحصي ثناء عليه.

وإذا مررت بالاستغفار والحمد والتسبيح والتكبير فإنك حتما تنتهي إلى التهليل، إلى المعنى الأكبر المراد تحققه من كل ذلك الحب، إلى الإفراد، ذلك الإفراد الذي تحس به يدب في نفسك دبيبًا خفيفًا من دون أن تدري، فتشعر أن النظر إلى غير المحبوب خيانة، وأن تمنى وصل غيره جريمة، لا يزيد إثمها في ضميرك مراقبته لك ومعرفته بها، ولا يقل حيكها في نفسك إخفاءها عنه ومداراتك لها، تشعر أن أحساس الوصال والحب تلك التي تفتقت على يديه – به وله – حرام عليك أن تذوق بعضها مع غيره، وحقيق بك أن توقفها عليه وقفا ما دام في صدرك نبضٌ.

وإذا كان هذا هو شعورك نحوه، فإنك ساعتها تقدر وتعرف ما أثر إشراكك لغيره في قلبك عليه، ما الذي تكسره في نفسه لو أقدمت على ذلك، وتقدّر وتعرف غيرته من كل خطوة قد تقربك من ذلك الحِمى، بنظرة عين، أو خطْرة فِكر، بشطر كلمة أو نصف خطوة، ولو لم يكن لك وامق لما أهمه أن تنظر هنا أو هناك، نعم .. لأغلق نفسه دونك واكتفى منك بما تجود!

وإن كان هذا في المحبة الأرضية الطبيعية، فإن المحبة الأولى الإلهية ينتفي معها الإشراك انتفاء لا مواربة به، ويخلص معها التفرد إخلاصًا لا شية فيه؛ وقد يغفر لك العظيم كل شيء إلا الإشراك، لأنه ينتفي مع أصل الحب الذي بنيت عليه أساس الصلة بينك وبينه، فمن أحب وعرف الحبيب حق المعرفة لم يشرك، لا ارتداعًا أو خوفًا من سخط أو عقوبة، وإنما عجزًا وجهلًا بكيفية أن يكون ذلك الإشراك في قلب أُشرب بحب الحبيب الأوحد المتفرد.

آه من ذاك الوصال .. إنه لوصال لم أخل وأنا أذوق أول كاساته أنني لهذه المعاني سوف يأخذني تيار ذلك النهار السابح، لكن وكيف لا وطرفا الاتصال في كل وصل هما قلبان لبشر، وقلبا كل طرف فيه هما بيد الواصل سبحانه، بين إصبعين من اصابعه، يقلبهما كيف يشاء، هنا ينجلي السبب ويبطل العجب، هنا يكون كل وصل لا يوصِل إليه لا يعول عليه.

هنا أعذر العاشقين الذين اختلط عليهم الأمر في الحب البشري والإلهي، هنا أقبل من المجنون أن يقول :

أراني إذا صليت يممت نحوها .. بوجهي وأن كان المصلي ورائيا

وما بي إشراك ولكن حبها .. وعظم الجوى أعيا الطبيب المداويا

هنا أفهم كيف كانت محنة العِبارة في التعبير عن ذلك الحب عند الحلاج وابن عربي وابن الفارض ومشاهير العاشقين، وإن الأمر لشاق عسير، وقد كنت أتحاشى النظر فيما يقولون حتى تلبسني من دون أن آتيه!

لكنني على كل حال، كنت أحس من قبل اللقاء أن ذلك مقذوف في قلبي لا ريب. كنت كمن لم يذق لسانه من قبل الحلو من الطعام، يشار إليَّ بقطعة من الحلوى ويقال لي في وصف طعمها الأعاجيب، وأنا لساني لم يذق طول عمره إلا الملح والخل، فلما أذاقني – ذلك الواصف لي –قطعة سكر واحدة عرفت معها كيف يمكن للحلوى أن تصنع بي، وتعلمت كيف أتصورها وكيف أشتهيها، وأحن إليها؛ وأن الواصل المنان يذيقنا بعضا من مُتع الوصل في الدنيا حتى نحن إلى وصاله والالتذاذ بمعرفته في الدنيا قبل الآخرة، في منحة منه إن شغلنا

بها عنه فإنها تنقلب لمحنة تورثنا حرمانا، وتبدل خصب قلوبنا البوار. وكما أن الحرمان بعد الوصال مفجع مهلك، فإن الحرمان قبل الوصال محرق ومشوق، وأجمل الوصال ما جاء بعد نأيٍ وهجران، وأعز الوصال ما قُطعت له القفار وعبرت له البجار، واجتيز له الحدود، وحطمت في سبيله السدود، فإنه يكون كالماء البارد على الظمأ الحارق أو كقول ابن حزم : ولقد جربت اللذات على تصرفاتها، وأدركت الحظوظ على اختلافها، فما للدنو من السلطان، ولا للوجود بعد العدم، ولا للأوبة بعد طول الغيبة، ولا للأمن من بعد الخوف، ولا التروح على المال، من الموقع للنفس ما للوصل؛ لا سيما بعد طول الامتناع، وحلول الهجر حتى يتأجج على الجوى، ويتوقد لهيب الشوق، وتنصرم نار الرجاء.

والوصال – حين يحصل – لا يبلغ أحد له ذروة ولا يصل فيه لغاية، إذ غايته الخلود في الأساس، والخلود غير مقدر لنا في هذه الدنيا غلا بمقدار فسحة كما يقول سيد قطب عنه: ”فإذا الكون والحياة جمال. وإذا العيش فسحة في الخلود“، وكنت أحسب أن ابن عربي يبالغ في ادعائه : كل شوق يسكن باللقاء لا يعول عليه، فإذا بي أراه حقيقة ماثلة أمامي في الوصال، فإن السكن الذي كنت أظن أنه هو الغاية والمنتهى أصبح أثرا جانبيا قصير العمر للوصال نفسه، وأصبح الوصال عملية خلق متكررة وولادة مستمرة لا تهدأ ولا تسكن مهما يَطُل اللقاء.

صحيح أن ”الحب أشهى مما يقوله العارف اللبيب“ ولكن ذلك الاشتهاء يكون معه الخوف من النقصان، والطمع إلى الإحسان بعد الإيمان، والرغبة في أن تطول كل شيء – حاشا المحبوب – نعمة

النسيان، وكل ذلك محال تحققه في هذه الدنيا، فيصبح الوصال دربًا من المكابدة المستمرة، ويصح الحب –كما يقول محمد درويش – حد التعب!

أسماء

أسماء، وكل اسم له نصيب ممن سمي به أو له، بعض روحه أو شطر تاريخه الممتد عبر مزيد من الأسماء والأسماء.

أسماء

منمنمة .. منمنمة نُقِش كل فسيسفائها بدقة ورقة بالغة، كانت الصفرة و الحمرة الداكنة تختلط في تلك الخيوط الرفيعة الحريرية برأسها المكور الصغير .. وبدقة أكثر لا تكاد تُرى ترسم خطين خفيفين أعلى عينيها ، وأهدابها التي تبدو اللمعة الذهبية فيها أوضح .. حتى إذا استقر ناظراك إلى عينيها وجدتهما كما تريد .. تسألك في صمت ما لون العيون المفضلة لديك كي أكونها .. فهي ما زالت تتقلب يومًا بعد يوم ولم تستقر على لون بعد .. ! لعلها حين نظرت خلتها زيتونتين أو ربما هذا ما تمنيت أن أراه فلبته لي!

دفع أبوها بها إليّ في حذر، بسطتُ كفي خلف رأسها وطبعت قبلتي الأولى .. مددت كفي أتلمسها فقبضت صويبعاتها على خنصري في حركة فجائية سرت بعدها رعشة في جسدي: – أسماء.. أهلا بك أيتها الأميرة. إن ركبك ينتظر على حافة الحياة ليكمل مسيرته عبر القرون!

...

نعم كان هذا أول لقاء بك، يا صغيرتي، التي ما عادت كذلك، فإنك اليوم عروس تلك الأرض..

تعلو الفتاة الناضجة حمرة الخجل .. وتسرح بعينيها في تلك القبة التي يتألق طلاؤها الذهبي في الأفق ساعة الغروب..

...

الشمس قد استطار شررها في الفضاء، و انتشر شعاعها في الطرقات

وتخلل من نوافذ تلك البيوت القابعة بين الجبال .. طرَقات عنيفة على باب البيت قطعت على الفتاة دندنة قصيدة من المطوّلات، قامت إلى الباب وقبل أن تصله إذا بالطارق قد اقتحمه: أين أبوك أيتها الفتاة! ثبّتت نظرها في تلك الجثة الهائلة وانطلق صوتها غير واهن ينبئ بضد ما تنطق به : لا أعرف!

لم يأتها الرد من حنجرة الرجل وإنما جاءها من كفه التي هوت ثقيلة على وجهها فارتد قرطها لأعلى وجسدها لأسفل.. غمغمت العُصبة التي كانت مع الرجل فشعر بشيء من الخجل .. قبض الهواء بيده وجز على أسنانه ثم ولى مدبرا.

سحبت نفسها إلى ركن في البيت ونظرت إلى السقف تدعو ألا يصلوا إلى أبيها وصاحبه ..وأن يسلم زوجها، لو كان في قربها في ذلك الموقف لربما أزهق نفسه — ولم تكن لترضى بهذا – فداء لذلك الكف .. أو ما كان أول فتى يسل سيفه ويخرج به على الناس في الطرقات لمجرد أنه سمع بأن النبي قُتل .. تحسست جنينها الذي في أول شهوره .. مسحت الدمعة التي اختلطت بدم ذاك الجرح في أذنها، أبدلتها بسمة غائمة إذ تذكر يوم أن خطبها ابن العوام .. ياه ذالك الفتى الذي دعا النبي له ولسيفه، نعم ليس له إلا فرسه وتلك الغرفة الصغيرة، ولكن أنّى لمثله أن يُرد، ردك الله يا زبير من تلك الشام سالما غانما .. ردك الله إلى تلك الأرض الطيبة التي إليها نهاجر فقد ضاقت بنا أرض الظالمين هذه..

كانت تخرج في الأيام التالية كلما مالت الشمس قليلًا عن كبد السماء تحمل سفرتها في شق نطاقها وتسير في الحر بين الوديان والوهاد ساعة حتى تصل إلى "ثور" ثم ترجع في ساعة أخرى .. ربما كان هذا هينا أمام رحلة العذاب الكبرى التي قطعتها أياما وليالي حتى تصل يثرب ..

لكم دعت الله ألا يأتيها المخاض في تلك الفلاة .. ألا تهلك بحِملها وضعفها في ذاك السفر الشاق قبل أن ترى الزبير وأباها .. والنبي ودعوته وقد أعزها الله في الأرض.

وفي اليوم الذي رأت فيه عُرُشَ يثرب اغرورقت عيناها بالدموع.. تلاحقت أنفاسها وزادت ضربات قلبها .. لكن الأمر تحول بعد قليل إلى آلام أسفل بطنها تمهد للجنين أن يحط من سفره ويحل بأرضه .. حكى لها أبوها بعد ذلك أن أهل المدينة كلهم فرحوا بعبد الله؛ وكان أول نصر لهم في معركة معنوية شنها عليهم اليهود بألا يولد للمسلمين ولد في هذه الأرض أبدًا، فاندحرت دعواهم بعبد الله .. حكى لها أيضا أن أول ريق دخل جوف الصبي كان ريق النبي الذي مضغ شق تمرة ومررها بشفاه ابن الزبير!

...

كان خرير ماء النهر الذي ينحدر من جبال حوران يتهادى في عتمة ذاك الليل الذي لا يشق ظلامه سوى تلك الشعل متراقصة اللهب في أنحاء متفرقة من المعسكر، كانت المرة الأولى التي تطأ فيها أرضًا خارج جزيرة العرب، كان الزبير يحكي لها عن الشام وأسواقها تُرى هل يصحبها غدا على فرسه في طرقاتها .. جلست إلى جواره يرقبان الصبح .. تذاكرا الأيام والغزوات، نصر بدر، وجراح أحد، ضيق الخندق، وفتح مكة، اختبار حنين .. حجة الوداع .. موت الحبيب صلوات الله عليه .. بيعة أبيها .. بعث أسامة .. وها هما اليوم يرابطان على مشارف أرض الروم تنتظرهما معركة كبرى في الغد .. ومعها الزبير وعبد الله الصغير أيضا .. إنها معركته الأولى!

بدت تباشير الفجر تهل على وادي اليرموك فقامت إلى خباء النساء قبل أن يقوم القوم إلى صلاتهم، لمحت من تخرج منه جهة النهر فنادت : أسماء .. يا بنت يزيد

– من .. بنت أبي بكر ! لمَ لمْ تنالي نصيبك من النوم!

– قلتُ أحرس القوم في الليل مع الزبير فقد نال منهم تعب السفر ..

– أما أنا فأرجو ألا يقف بنا الحال عند الرباط فقط .. بل أرجو أن أقتل اليوم من الروم عشرة رجال ! .. رفعت أصابعها العشرة وهي تقولها بحماس يملأ نفسها.

– تفعلينها يا أنصارية أو لست من قال الرجال بمجلس النبي فيك: ما ظننا أن امرأة تهتدي إلى مثل هذا يا رسول الله .. وقد كنت تشكين له ذهاب الرجال بأجر الجهاد دوننا .. وها هو الله يرزقنا معهم الجهاد وعلها تكون الشهادة أيضا!

– ذاك زمان مضى يا أسماء، صلى الله على محمد، والله لا نجزع بعده في مصيبة أبدا دون فقده !

...

أتذكر يا عبد الله عمتك أسماء بنت يزيد لقد قتلت يومها تسعة من الروم بعمود خيمتها، وكان أبوك يقاتل حتى كان يشد على جيش العدو وحده فيوقع مقتلة عظيمة فيهم .. وأنت كنت ما زلت في عامك الثالث عشر يا بني، قد قبضت على يدك يومها وبها السيف؛ فلا يسقطن منك اليوم يا عبد الله .. لا تسلم لهم ومت على ما مات عليه أخوك مصعب.

– لكن يا أماه إن القوم قد خذلوني وخرج جمع منهم إلى عدو الله هذا الحجاج.

–يا بني قد حاربنا قومنا من الكفار .. ثم حاربنا الكفار من غير قومنا .. ثم ها نحن نحارب البغاة من قومنا وقد قُتل أبوك على طائفة منهم.. فإن كنت تُقاتل من أجل الحق فقم له.

أصوات القذائف لم تهدأ، الحجارة والنار تسقط على كل حي وبيت في مكة حتى بيت الله الحرام، تشعر أن هذا آخر لقاء بابنها .. اقترب مني، يا عبد الله، اقترب حتى أشم ريحك ..مسحت بكم ثوبها المعصفر على رأسه ورمقته ببصر كليل شارف أن يذهب كله .. قبلت رأسه، وخرج إلى قاتله!

....

غفت الفتاة ذات العقد الأول من عمرها في حجر أمها قبل أن تنهي لها القصة وتحكي لها كيف وقفت سميّتها الأولى ذات المئة عام في وجه الحجاج بعد موت ابنها عبد الله، وهو الذي خضعت له الرجال ولم يخطر بباله يوما أن تهزمه امرأة عجوز بذاك الصمود .. أوصلت الفتاة لفراشها وسهدت تترقب خبرا عن زوجها الذي ينتظر نتيجة معركة مهمة يخوضها هو الآخر .. أخيرا دق الهاتف وأخبرها المتصل أن الدكتور فاز على غريمه من الجولة الأولى بفارق ١٥ ألف صوت وأصبح نائب الدائرة بمجلس الشعب!

...

ها هو الترقب مرة أخرى يخيم على ذلك البيت المتلاحقة عليه الأحداث، منذ أن فقدوا الاتصال بالأب فجر الجمعة وهم على هذه الحال ، تابعوا بقلوب فارغة الطائرات المحلقة والجنود المدججين بالسلاح الذين يهبطون من السماء في عرض البحر .. أعضاء حملة كسر الحصار أصبحوا بين شهيد وجريح ومعتقل موقوف .. كانت تلك الساعات

التي قضاها بطلهم في أسر الاحتلال الإسرائيلي فخرًا ما .. ومشاركة لآلاف الأسرى الذين يقضون عشرات السنين في نفس ذاك القيد الصهيوني ..يقطع الصمت المطبق طرقات الباب المنتظرة .. وتنفرج أسارير بطلهم من خلف الباب!

تهرول الفتاة ذات الخمسة عشر عامًا تتعلق برقبة أبيها وتدفن رأسها في صدره تبلله الدموع .. تأبى إلا أن تجلس على رجله وهو يحكي لهم عن مجزرة أسطول الحرية .. عن الشهداء التسعة أولئك .. تلمع عين الفتاة وتتمتم ليتني كنت هناك!

...

أجواء غرفتها الصغيرة – ذات الطلاء القرمزي الفاتح – شتوية باردة، تنظر ساهمة إلى كتاب الهندسة للصف الثالث الإعدادي الذي تفصل ساعات الليل بينها وبين الامتحان فيه غدا .. تهاتف عمار كل ساعة .. ها ما الأخبار أخي .. تسمع صوته بلهجة واثقة: يقولون أن الأمن سيهجم على الميدان في تمام الثانية عشرة .. يطير قلبها ساعة بعد ساعة ..هجموا بالفعل .. نحن الآن في مسيرات متفرقة حوله .. دخلنا للشوارع الجانبية .. وصلنا رمسيس .. تفرقنا مرة أخرى .. تجمعنا مرة أخرى .. كر وفر حتى الصباح!

استطاعت أن تنزل للميدان في الأيام التالية .. تجولت فيه كثيرا وتنسمت نسائم الثورة الأولى ..رفعت الأعلام .. وهتفت مع الهاتفين .. واختلست بعض الأوقات بوضع يدها في يد أبيها في جولاته المستمرة بالميدان .. غضبت مع الغاضبين وفرحت مع المنتصرين بأن الديكتاتور قد تنحى!

"سوف نبقى هنا .. كي يزول الألم .. سوف نحيا هنا .. سوف يحلو

النغم..“

كانت تلك الأنشودة الأثيرة تنطلق في نفس أسماء طيلة السنتين اللتين تلتا الأحداث الأولى للثورة. امتلأت أيامها بالكثير والكثير من الأعمال والأفكار .. يكتظ جدولها الأسبوعي بين يقظة فكر ومعرفة وشيخ العمود وآفاق .. يمتلئ جدولها القرائي بين سيد قطب ومالك بن نبي و فريد الأنصاري و المسيري وبيجوفتش و حتى أبو يعرب المرزوقي .. تتقاطع المشاهد الثورية مع كل ذلك .. تراقب رصاص ثوار ليبيا يخترق جدار الظلم .. تطير مع انتفاضة سوريا التي تطول و تمد نهر الثورة بشرايين الدماء تترى .. لا تغيب عن معارك محمد محمود ولا مجلس الوزراء .. ولا فعاليات ”عسكر كاذبون“ .. تصنع رابطة جديدة بين الثورة والشباب الإسلامي تردد وردها الجديد من التحرير ذات مساء“ **يا رب أنت تعلم أن هذه القلوب قد اجتمعت على ثورتك وتعاهدت على إقامة دولة العدل فوثق اللهم رابطتها واهدها سبلها**”.

كانت تقرأ الورد في مصحفها الأزرق الصغير أمام خيمتها، لمحته يدور حول الخيام ويلهو، لا تستطيع مقاومة التعرف على الأطفال، أخرجت من جيبها حلوى وقامت إليه، لم تستغرق المناورة وقتا طويلا .. اسمك إيه : يحي .. ولم يسعفها الوقت لسؤال آخر حتى كان صوت ينادي عليه من بعيد.

أقبلت تلك المرأة خمرية الوجه ذات الخمار السمني : ألم أقل لك لا تذهب بعيدا عني !

- أنا من أغريته بحلواي هذا ذنبه.

- لا عليك يا جميلة، ما اسمك.

- أنا أسماء.

- وأنا أسماء أيضا.

- حدقت في ملامحها قليلا: نعم أعرفك يا خالتو، حضرتك أسماء صقر، قرأت لك بعض المقالات والاستشارات في بعض المواقع على الإنترنت.

أعجبت الفتاة بعقل وقلب تلك المرأة الحكيمة، تصوغ من التجارب حياة متوازنة، تفطن لبواطن الأمور و تسبر أغوار النفوس .. وأعجبت المرأة بذكاء تلك الفتاة الفريدة، واسعة الاطلاع، عذبة الحديث، حلوة المعشر، لينة الكلام .. تواعدتا على اللقاء مرات أخرى، أمسكت الفتاة بيد الطفل : أما يحي فسيبقى معي قليلا اذهبي أنت لشأنك الآن وسأرده لك.

....

قطرات الماء الأخيرة من تلك الزجاجة البلاستيكية التي تصب بها أمها تبللها بأناملها أعلى خفيها .. نظرات أخيرة أيضا بينهما أرادت أن تقول شيئا وصمتت.. ترقب يومًا آخر لا تعلم بما تحمل له شمس اليوم من بشرى أو نذير .. تسترجع أجمل أيام العمر هنا في الخيام وعلى مداخل التأمين وتحت المنصة تنتظر أباها لإلقاء التحية .. أمام "كوك دور" تلقى صويحباتها أو عند "طيبة مول" تستمع لمحاضرة أو خاطرة لأحد الشباب المثقفين .. تستقبل بعض قطرات المياه على طرحتها تحت الشمس أو تعبث مع طفل تجده لاهيًا أمام خيمة ما .. تفكر كيف تهرب من دروس الثانوية العامة القادمة .. ومتى ترجع إلى دروس الخط العربي والكوروشيه .. تدعو الله في القيام أو تهلل في العيد ..

تضمد جراح مذبحة أو تبكي شهيدًا .. تسير في ركاب أناس هم فوق البشر" .. **يوزعون البسمات على الناس .. وينسجون خيوط الأمل ويربتون على أكتاف الضعفاء و يأخذون بأيديهم .. يهدون الحيارى بإذن الهادي .. يسرجون القناديل في الطرق الموحشة .. يتأملون النسق الكوني و يغرسون سنابل اليقين."**

....

الدماء تغطي أرض المكان .. رداء أزرق يغطي جسدها .. و أصحاب الأردية البيضاء يحومون أمام عينيها .. أحدهم يعلق ذلك السائل ويمد بأنبوب إلى عرق واهن في ساعدها .. والآخر يتفحص موضع الرصاصة النافذة .. قطرات الدم تشعر بها تغادر جسدها قطرة قطرة من تحت الرداء .. أسماء صقر دخلت منذ قليل من الباب تسند رجلا مصابا مؤكد بأنه زوجها، لم ترها .. اختفت وسط عشرات الداخلين والخارجين .. وسط عشرات الأنات والتأوهات التي تنافس في ضجيجها ضجيج الرصاص والنار وأصوات المكبرات الصارخة كقاض إيطالي يتلو على عمر المختار مسوغات الحكم عليه بالإعدام : عملية فض الاعتصام مراقبة ومصورة بشكل كامل .. عملية فض الاعتصام تتم بقرار من النيابة العامة وبحضور وسائل الإعلام والمنظمات الحقوقية والمجتمع المدني.

إنها نهاية الرحلة، جاءت قصيرة لم تطل .. العرق يبلل هامتها .. الأنفاس تتلاحق .. والآهات تنازعها .. الضجيج والأنين يغص المكان من حولها .. يشتعل الألم تارة فتنفلت منها آهُ تفلق الصخر .. و يضمر تارة فتنساب منها تنهيدة تذيب الحديد .. تقبض على يد أخيها أنس بآخر عزم في جسدها .. تهمس ولا تدري أسمعها أم لا : عهد على

الأيام ألا تهزموا .. فالنصر ينبت حيث يُهراق الدمُ!

....

كفى كفى يا أسماء .. كفى يا بنيتي تالله إني لأخالها تنظر لنا من فوق السماوات ونحن في يومنا هذا راضية عما أخلفه الله بدمائها تلك..

نعم يا عماه .. كنت أتمنى أن ترى تلك الأيام .. ذلك اليوم الذي أُعدم فيه السفاح في تلك الساحة الثورية التي أطلق عليها اسمها فيما بعد .. و ذلك اليوم الذي قتل فيه سفاح الشام .. والسنوات الطويلة التي استعر فيها القتل قبل أن تتوحد الشام .. والثورة الهائلة التي طال شررها بلاد الحجاز .. و ذلك الهجوم المباغت الذي بادرت به إسرائيل فعجل من موعدها الذي كان آتيًأ آتيًا ..قد شهدت منها أياما وغابت عني أخرى في صغري حكتها لي أمي..

يدق هاتفها فترد : أين أنت يا يحيى انتهت المعارك هنا منذ يومين ولم نرك بعد !

- ها أنا ذا أخيرًا في الحرم .. أنا أمام القبة حاليا.

- أنا رفعت يدي هل رأيتنا .. نحن هنا.

حضر يحيى الذي لم تجف جراحه من المعركة بعد، أخذت أسماء تحكي له ما كان بيننا من حديث، ابتسم الشاب وأنشأ يقول .. إن وعد أبي لأمي كان حقا ، وهو الذي قال فيها

أرنو بقلبي نحو عرشه خاشعًا .. مولاي أدركني يا رب أسماء

فيحل فرج أو تزول غمامتي .. ويلبي ربك فزعتي وندائي

فأقول رب العرش يرضي حبيبة .. زينة حواصل طيره الخضراء

أو تذكرين جلسنا نقرأ فجرها .. وعرفنا فيك شهادة الكبراء

ذكرت قلبك بالصغار وبيتنا .. نحتاج وصل فعالك البيضاء

هذه المعارك لن تزول بيومنا .. فابقى لوقعة مسجد الإسراء

كفكف الفتى ، نظرت إليهما وتمتمتُ : واها يا أولاد .. ها نحن الساعة عند عتبات المسجد الأقصى قد رفعت آلاف الرايات هنا بأسماء الشهداء الذين ساروا على هذا الدرب .. أسماء وأسماء وأسماء .. من مصر والشام والمغرب و الحجاز والأناضول وكل بقاع الأرض .. أسماءُ نذر أصحابها دماءهم في الدنيا زيوتا لقناديلنا المعلقة اليوم هذا المساء في طرقات البلدة العتيقة .. وفي الآخرة حملت أرواحها في حواصل الطير الخضر حول العرش ..

عن أجمل شيء
أنجزناه

عن كل إنجاز مر، أنجزته ثم نظرت إلى أولائك الذين ينتظرون أن يُسمح لهم بإنجاز أى شىء، فلا يُسمح،عن كل فرحة مغموسة في ألم أن فَرج هؤلاء ليس من إنجازاتنا بعد.

عن أجمل شيء أنجزناه

كنا نجلس في مكاننا المعهود، نفرك كفوفنا من برودة الجو وننظر بامتنان إلى الشاي الذي يصب لتوه في الأكواب استعدادا لدفء صغير، في العادة لا أحب أن أدير الحديث، أشارك فقط من حين لآخر وأستمتع بالنقاش الجاد أو المزاح المفرط على السواء، خطر ببالي أن الغد هو أول أيام العام الجديد، ارتسمت على شفتاي المزمومتان بسمة منفلتة، ثم غارت سريعا، التفت إلى عبد الله وقال : قُل.

- ماذا أقول؟
- علام التبسم؟
- لا شيء، كنت أفكر في طرح سؤال.
- هاته.
- لماذا لا يحكي كل واحد منا عن أجمل شيء أنجزه في ٢٠١٦؟

كان عبد الله شابا أسمر بلحية وشارب خفيفين، صاحب نبرة هادئة، ونظرة متفحصة تقرأ كل شيء، ربما لهذا اكتشف ابتسامتي المباغتة، وربما لهذا فهو صحفي اختار مهنته بعد أن أكمل سنوات دراسته الطبية، يقول أنه افاد من الطب في طريقة تفحصه ونظره للأمور، يقول أيضا أنه تعلم الصحافة من كلية الطب أكثر مما كان أي معهد للصحافة أن يعلمه إياها.

حكى لنا عن جولته الأخيرة في أوربا، التي اختتمها في إسطنبول، وعن المركز الثاني الذي حصل عليه في جائزة الشباب بالمركز الدولي

للصحفيين. لم يحك لنا أن الجائزة هي أفضل ما حصل عليه، ولكن الرحلة نفسها، أو ربما ذلك الصحفي الهولندي الذي قابله وهو يتسلم الجائزة.

عبد الله دائما يقول لي إن الصحافة هي معرفة الناس ثم الحديث معهم ثم الحديث عنهم، لذلك دائما ما يحاول التعرف على الجميع، وسؤالهم عن كل شيء، ثم يصيغ في النهاية قصته، أو عفوا قصصهم هم. وفي نهاية المطاف، يقرأ له هؤلاء الناس، لأنهم يقرأون أنفسهم، لذا ربما كان أجمل شيء أنجزه عبد الله كما ختم كلامه أنه كسر حاجز المليون قراءة لكافة مقالاته وقصصه الصحفية التي نشرها هذا العام.

كان طارق يجلس إلى يمين عبد الله وينصت باهتمام معهود، تنحنح بطرافة عندما وجد أعيننا تتجه نحوه بعد أن انتهى عبد الله، قال باقتضاب: مؤكد أن أجمل شيء أنجزته هو أنني تزوجت طبعا .. وانفجر الجميع من الضحك.

كان طارق رجل أعمال كبيرًا، هكذا كنا نراه على الأقل بالنسبة إلينا، فلا أحد منا يدير مؤسسة تجارية وهو في العشرينيات كما يفعل، بل ويحقق منها أرباحا في ظل أزمة اقتصادية طاحنة كالتي تعيشها البلاد اليوم. كنت شخصيا أنظر إليه بإعجاب بالغ ربما يستطيع المرء أن يحقق منا إنجازًا في الكتابة أو التصوير أو حتى الإدارة، إنما في تحقيق أرباح وإعلاء لأسهم شركة، لم أكن أعرف كيف يتم ذلك.

لكن طارق بالفعل كان جادا في مزاحه الأول، أجمل شيء أنجزه هو أن تزوج فتاته بعد قصته الطويلة، لم يمض على زواجهما سوى شهرين فقط، أتذكر جيدا كيف كنا يوم العرس معه. كانت المجموعة كاملة تقذف بجسده النحيل عاليا إلى الهواء، ربما ارتفع مترين أو ثلاثة، رقما

قياسيا من الطيران في تاريخ العِرْسان الذين عرفناهم، ربما الرقم القياسي الذي يكافؤه كان في الأعوام التي انتظرها حتى تكتمل قصته.

فرغت أكواب الشاي، والذي لم يفرغ كأسه في جوفه أصبح ما تبقى منه باردا لا يُشرب، اقترح جعفر أن يقوم ليحضر شيئا آخر نتسلى فيه، فهمنا المغزى وأقعدناه، لقد كان يهرب من دوره كعادته، تنحنح قليلًا ثم بدأ الكلام مضطرًّا.

أعرف أن ذلك "الذكر الأبيض الذي يقدس الحياة الزوجية" كما نحب أن نلقبه لديه الكثير من الأشياء التي أنجزها في عمله الذي يحبه ونشاطه الذي لا يتوقف، لكنني كما توقعت لم يتوقف كثيرا عند هذا، وحكى لنا عن فتاته التي يقع في غرامها منذ ثلاثة أعوام .. نعم منذ ثلاثة أعوام وحبه لهذه الفتاة يزداد يومًا بعد يوم، يحكي لنا عن عينها، عن غمغماتها، عن لعبها، عن أناملها الرقيقة حينما يمسك بكفها، يحكي لنا عن آمنة – ذات الثلاث سنوات – التي يحبها كثيرًا كما لو لم ينجب أبٌ في هذا العالم طفلةً غيره.

كنت دائما أبتسم عندما يحكي جعفر عن آمنة، وأعرف أن تلك العاطفة هي امتنان لها ولأمها، ولقائمة طويلة من المعاني التي يشعر بها معهما في بيته الجميل الذي دائما ما نزوره ونجلس فيه بالساعات في النقاشات الطويلة عن الأفكار والأنشطة والمشاريع التي لا يقطعها إلّا لعب آمنة وعيناها التي تشاغلان كل من يقع نظره عليها.

تكلمنا جميعا وانتظرنا أسامة لينهي الجلسة، أسامة شاب طويل، هذا أول تعريف له، فهو يفوقنا جميعا طولًا، وعقلًا أيضا ربما، عقل يستطيع أن يدير به مؤسسة كبرى تعطي عشرات الدورات بشكل غير ربحي، وتحقق طفرة في هذا المجال، تخرج في كل دفعة آلاف الشباب والفتيات.

كان أسامة أكثرنا تنظيما، لا عجب فهو الوحيد المهندس بيننا، كان يكرر علينا قول عبدالله بأن الهندسة أفادته في الإدارة أكثر مما كان معهدًا متخصصًا في الإدارة أن يفيده، نظم عقله وحركته كثيرًا، عرض أسامة علينا بشكل إحصائي وبياني ما أنجزه في هذا العام، كيف يحصلون على التمويل، كيف يسوقون للدورات ويجذبون الطلاب لمواضيع ثقافية وشرعية ربما لم يهتموا بأخذ دورات فيها من قبل، قائمة طويلة في الموضوعات التي تخلوا من دورات اللغات والكمبيوتر وكيف تحصل على وظيفة أو تجتاز مقابلة شخصية، ورغم ذلك فالأرقام مبهرة.

تنفسنا الصعداء بعد أن انتهى الفتى الأخير، انفرجت المجموعة بعدما كنا نجلس في نصف حلقة وأصبحنا جميعا في صف واحد ظهرنا للحائط المادي ننظر أمامنا، كل الإنجازات مكتوبة بالطبشور الأبيض على الحائط المقابل، ضحك طارق وقال: لنمسح الماضي ونكتب أحلام المستقبل على نفس الحائط، قمت أبحث عن شيء نمسح به، وجدت قطعة قماش قديمة في الزاوية، لففتها في قبضتي وأخذت أمسح كل الحكايات الجميلة.

قذفت بقطعة الطبشور إلى عبد الله ليكتب أولا، وأخذت القطعة تتنقل بيننا حتى انتيهنا، امتلأ الحائط عن آخره مرة أخرى إنجازات، سفر .. عمل .. جوائز .. أرقام جديدة .. مولود منتظر .. مزيد من الإيرادات .. موقع أعلى في العمل .. خِطبة مرتقبة .. و حتى العثور على فتاة أحلام.

نظرنا مرة أخرى إلى الحائط الممتلئ، تناهى لسمعنا أذان الفجر من النافذة الحديدية الضيقة، قام عبدالله وأذن للصلاة، توضأنا بالماء البارد واصطففنا، عند السجود كان الجميع يدعو، لا .. ليس بكل الأحلام

التي أمامنا على حائط الزنزانة؛ ولكن بأمنية وحلم واحد فقط، أن نخرج من هذا المكان، أن يموت السجان.

دعونا أن يكون كل ما حكيناه عن إنجازاتنا حقيقيا يوما ما، أن نرى النور مرة ثانية، أن نطلق الإعجابات على صورة عبد الله مع الجائزة على حسابه، أن نحضر زفاف طارق، أن يأخذ جعفر ابنته في حضنه، أن يفتتح أسامة فروعًا جديدة لمؤسسته، أن نجد ما نحكيه يومًا عن أجمل ما أنجزناه في العام.

أحلام الماضي

تبدو دوما كظل باهت لرجل قديم، رجل كنت عليه يوما والآن أنت جديد، تنتظر أن تكون قديما كحلم من أحلام الماضي.

أحلام الماضي

في أقصى الشمال، يجلسان والجبال من حولهما تكتسي بالبياض، طاعنان في السن، أمير ومولى، يتكلم الأمير:

– هل تصدق لم يبق في نفسي ضغينة على بني العباس، أعني لم أعد أنقم عليهم لأنهم طلبوا الملك، ولا لأنهم استعملوا من أجله كل تلك الوسائل، ولكن لأنهم غلبوا، وغُلبنا، طلبوا الملك كما طلبه آبائي، وغلبنا أول الأمر وكما غلبنا غُلبنا، فما الفرق؟

ختام عبقري من وليد سيف استنطق به عبد الرحمن بن معاوية في آخر مشهد له بمسلسله الماتع صقر قريش، بعد رحلة طويلة كان الكره لبني العباس هو وقوده كي ينشئ هذا الملك في الأندلس ويجدد دولة بني أمية في المغرب كما كانت في المشرق، يأتي ليخبرنا هذه الحقيقة بنهاية المطاف!

....

– أين تذهب أحلام الماضي؟ هكذا سألنا أنس، لم تكن هناك إجابة واضحة، صديقي يريد أن يقول من وراء حجاب بأننا كبرنا، وأن أحلامنا لم تكبر معنا، بل على الأحرى ضاعت منا، أحلامنا تلك التي شيدناها في عشرينيات عمرنا، عزم وفتوة وحركة وحماسة تبني صروحًا عريضة من المجد والسؤدد في قابل الأيام، أو ترسم أثرا عظيما بالغ الاتساع والازدياد، أو تبشر بقوة ضاربة تمكن للمشاريع والأفكار التي لا تسعها مفكراتنا الصغيرة.

ليس هذا فحسب، بل أيضا نظرة استخفاف بأي مصير غير هذا،

أيعقل أن أكون بعد عشر سنوات موظف في شركة أوقع انصرافًا في آخر ساعة بالعمل وأتأبط حبة بطيخ كبيرة وأنا عائد للبيت بعد نهار طويل، ألا يحسن كل هؤلاء العجزة سوى الفشل الذي يحاولون أن يورثونا إياه، مجبنة عند الإقدام تورث ضياع الفرص، واندفاع محمود نحو الخطر يوردنا المهالك، سنكون أكثر حكمة في ذلك اليوم البعيد.

أين ذهبت أحلام الماضي؟ ربما مر عقد من الزمان عليها الآن، لكن الكثير مما بنيناه أصبح للموج لعبة على مر الأيام فلا يُرى منه الآن إلا طلل على طلل، فهل فشلنا؟

الأفكار تتغير، هكذا قال لنا مصعب: هل شاهدتما فيلم "Long Walk to Freedom"، العمل مأخوذ من السيرة الذاتية التي كتبها نيلسون مانديلا عن نفسه، من الميلاد والنشأة مرورا بالتمرد والكفاح المسلح فالسجن المؤبد، إلى الزعامة ثم رئاسة جنوب إفريقيا.

كانت الشوارع غاضبة للغاية، قتل المئات من السود في حوادث عنف على يد قوات الشرطة، سيدة فقدت ابنها أعطت لمانديلا ورقة كتبت فيها "لا تتحدث عن السلام، أرجوك لا تتحدث عن السلام"، قرأ الرجل الذي جاوز السبعين رسالتها أمام التلفاز في الخطاب الذي ينتظره الجميع بعد هذه الحادثة ثم قال: سأتحدث عن السلام، أعرف أن هذا ما لا تريدون سماعه، لكن هذه الحرب لا يمكن أن نفوز فيها، لقد سجنت سبعة وعشرين عاما، والآن أنا أخبركم أنني قادر على مسامحة من سجنوني أنتم أيضا تستطيعون مسامحتهم، لا يمكننا الفوز في الحرب، لكن يمكننا الفوز في الانتخابات.

أين تذهب أفكار الماضي؟ تساءلت أنا أيضا، ربما هذا هو السؤال الأوقع، فأحلام الماضي بنيناها على عالم من الأفكار ظننا ساعتها أنه

مخلدٌ، لكن رويدًا رويدًا بدأت هذه الأفكار تتحلل خيوطها المنسوخة أمام أعيننا، سواء أكانت هذه الأفكار غايات وأهداف كبرى، أم مجرد وسائل وطرق صغيرة.

كبرنا وعاينا الكثير حولنا يغير الراية والطريق تماما، يخفض واحدة ويرفع أخرى ويمضي من طريق غير الذي اختطه قبل أعوام، أو حتى يخفض راية ولا يرفع أخرى ويظل عالقا حيران لا يهتدي سبيلا، في كل مرة تقع راية بجانبنا نتوقف أحيانا ونسأل، هل طريقنا مسدود فعلا، هل هؤلاء متساقطون هالكون أم نحن هائمون موهومون، وكلما بُدلت الرايات ابتدرنا أحيانا باللعن، وأحيانا بالاستهزاء، وأحيانا بالصمت خوفا أن نبدل نحن أيضا يومًا ما.

كبرنا وتعاقبنا على الكثير من الطرقات للغاية الواحدة، في كل مرة نقول هذا طريقنا هكذا أنفع، وعندما يأفل، نعود أدراجنا ونقول: لا نحب الآفلين، أو يهيم بعضنا الآخر في ذات الطريق يداوم الطرق ويمني نفسه بالظَّفر، فلا نعرف هل ختم على أبصارنا فلا نرى ما يرونه، أم أنجانا الله من سبيل موصود وفتح لنا بابا آخر نكمل به الرحلة.

أما أنا فتغيرت كثيرًا، هكذا قلت، لا أعرف أين ذهبت أحلام الماضي أو أفكاره، بنيت أحلاما أخرى بأفكار جديدة، ولا أعلم هل أستبدلها مرة أخرى أم لا، ربما ستستبدل أيضا يوما ما، لكني على كل حال لم أندم كثيرا على أحلام الماضي، ولو عدت لما بنيت أحلام الحاضر.

"الجنون في الشباب هو شرط الحكمة في الكبر" هكذا قال علي عزت بيجوفتش، شبيه مانديلا في ملامح القصة والتحولات التي جعلته في النهاية رجل يوقع مفاوضات على طاولة الأمم المتحدة، وهو الإسلامي والمفكر والثائر والسياسي البارز أيضا.

ربما هذا ما كنت عليه قبل عقد من الزمان، مس من الجنون يجعل الفتى يقيّم حركة التاريخ الإسلامي ويحاكم قادة الفكر والرأي والسياسة قبل أن يختبر شيئًا من هذا، يحلل سقوط المؤسسات والمشاريع بل ربما الدول، وهو يدير فريقا لا يتجاوز العشرين شخصا، يخوض في الحب والنكاح والعلاقات الاجتماعية وهو لم يصب بعد من ذلك وطرًا، يسب السلطة والمتسلطين وهو بعد لم يعرف ما يعالج من يسببهم شيئا.

توقف جل هذا، لم أندم على أنه كان معي يوما ما، ولا أحزن على أنه زال مني اليوم، تكشفت الأشياء كثيرا من حولنا، لم نجدها كما كانت من بعيد، ركضنا كثيرا وعندما وصلنا وجدنا السراب؛ لكن قوي عظمنا فأصبحنا قادرين على العدو أكثر إذا أبصرنا يوما الماء حقيقة.

عبد الرحمن الداخل الذي اكتشف أنه لم يعد ينقم على بني العباس قتلة أهله، أو نيلسون مانديلا الذي وصل بعد ٢٧ عامًا من السجن إلى أن السلام هو الحل، نقطتان في بحر عدد هائل من البشر تغيرت أفكارهم من النقيض إلى النقيض ولكن ربما لم تتغير غاياتهم كثيرا. ليس المهم هنا أن تتغير الأفكار، ولا أن تتغير الأحلام حتى، ما علينا أن نقلق من أجله هو سؤال وحيد إذا وجِد: أين يذهب سعي الماضي وأين تذهب هِممنا في تحقيق ما نريد؟

فكم من غاية كبرى طاردها صاحبها بالليل والنهار حتى إذا حازها وجد أنه خسر أمامها ما هو أعظم، وكم من غاية مُستصغرة تتكشف لصاحبها على حين غرة فتملأ عليه حياته ويقيم فيها راضيًا مرضيًّا، فلا بلغنا الله بما نقول فيه، أين ذهب سعينا بالأمس؟

فى الغياب والحضور

يدعي المحروم دائما أن غياب الحبيب وحضوره كلاهما حضور، أما الذي قد جاد الزمان عليه بالوصل ثم البعد فلربما تمنى ألم يكن ثمة حضور قط.

في الغياب والحضور

عندما سافرَتْ – لأول مرة بعد تلاقينا — خارج البلاد في زيارة قصيرة، أرسلتُ لها أقول: ليتني كنت موجودًا معكِ، ردت وقالت: ليس الوجود بالجسد فقط !

بعد شهور كانت لوحة جميلة بالخط العربي المغربي تتوسط بيتنا أعلى الأريكة البيضاء مكتوب عليها : ليس الوجود بالجسد فقط.

...

روح وجسد، أحدهما يحبسك والآخر يُطلقك، أولهما لا يعرف الحدود، وثانيهما لا يُعرّفُ إلا بالحدود من جميع جهاته، قد يجتمعان في مكان وزمان واحد فيكون الإنسان حاضرا وموجودًا بكليته، وقد يفرق المكان بينهما كما أشهدنا الداخل الذي وقف للنخلة يشكوها: إن جسمي كما علمت بأرض .. وفؤادي ومالكيه بأرض، أو يفرق بينهما الزمان كشاعرنا تميمٍ عندما يحن إلى من لم يلقهم أبدا، صلى الله على حبيب القلوب.

وليس على الدوام ملامُ أمر الزمان والمكان في التفريق بين الصنوان — الجسد والروح — فنعم، يكونان أحيانا أسوارًا تحيط بالجسد وتمنعه من أن يحلق بالروح حيث تهوى وتهيم، ولكن كما ذاك فإنهما يكونان جسورا تنسكب فيها الروح من إناء الجسد وتجري لا يصدنها شيء، فتكون تحديا لزمان يسلبك أو مكان يحبسك.

....

عندما وقفت لأودع افضل شباب قابلتهم في حياتي بعد أن قضيت معهم عشرين يوما ونيف متشاركين في كل شيء، عندما بدأوا يلملمون حقائبهم وصورهم المبعثرة في عقلي، في ذلك اليوم الذي وقفت فيه ألمح رحيل الشمس خارج الفندق الكبير وسط العاصمة، نويت ألا أستسلم للمكان الذي بدأ يشيد قلاعه، أو للزمان الذي سيطوي كل هؤلاء يوما ما.

بعد شهر واحد، أدركت أنني أضعف مما تصورت، هؤلاء الرجال الذين تمنيت أن أبقي عليهم وأنتصر بهم على صروف الدهر، وقعوا وقوعًا حرًّا في غياهب البعد، وإن كانوا حضورًا إلى اليوم في ركن سحيق من النفس، هنا، حيث تتحصن بعض الذكريات في نقطة لا يمسها سوء.

....

ما الأشد على الإنسان، أن يكون أحبابه حاضرين معهم بجثامينهم وأرواحهم شريدة بعيدة، أم يكونوا محلقين معهم بأفئدتهم وأجسادهم مقضي عليها بالنأي والتفرق، أيهما يُحتمل على أمل أن يعود الثاني، نكون بالجوار ونصبر على شرود الروح علها تفيء يوما، أم أن نكون في القلوب عل حوادث الدهر ترق لنا يوما فتسمح باللقيا.

لو قيل لأمٍّ إنه سيحال بينها وبين ولدها وسيظل قلبه حاضرا معها، ولو قيل لحبيبة إن قلب حبيبها سيتحول ويبقى بجسده جوارها، الحالان مكروهان، مع اختلاف المواقع، فالأم ستحب أن ترى ابنها كل يوم وإن لم يكن يراها بقلبه، والحبيبة ستحب أن يبقى قلب حبيبها مغلقا عليها وإن فتحت عينها ولم تره أمامها.

ولكن ماذا لو لم تكن هذه الخيارات اضطرارية حتى، هل يختار الناس حينا أن يغيبوا عن أعين أحبتهم، يتوارون من نظرة عتاب منهم، أو

يخافون من انكسارة عجز أمامهم، فيصبحون في عداد قول شاعرنا: وما كل نفس حين تلقى حبيبها تسر .. ولا كل الغياب يضيرها ؟

....

"ما الفرق بين الخيال والواقع، إذا كان كلاهما يستجيب له القلب والذهن، ويترك آثاره في النفس والحياة ؟ وما الفرق بين الحلم والحقيقة، وكلاهما طيف عابر، يلقي ظله على النفس ثم يختفي منه عالم الحس بعد لحظات .."

هكذا نطق ذلك العاشق بهذا الكلام الغريب، بعد أن لقي حبيبته تنزل من عربة الترام ومعها طفلها الذي سمته بنفس الاسم الذي اتفقا عليه قبل عامين، قبل أن ينفصلا، سلم عليها وحمل الطفل وقبله ثم ودعها وغابت بجسدها كما كانت طوال عامين، هكذا يضرب سيد قطب الغياب والحضور والحلم والحقيقة في مقتل.

....

لأن الحياة مقدر عليها غياب الجسوم، فكان حضور القلوب فسحة الخلود، الخلود الذي سيهزم الزمان والمكان يوما ما لتكون مع من أحببت قدر ما أحببت.

أما ونحن ما زلنا هنا، فإنني عندما أفكر في ابنتي التي لم تتم سوى عام أنها بعد عشرين سنة ربما ستفارقني، أرتهب، وعندما أفكر في صديقي الذي لازمته خمس سنوات في سنوات الصبي وربما مر على خمس سنوات لم أره أو أسمع صوته، عن أصدقائي الممنوعين من العبور إلى الوطن، أو الآخرين المغيبين في الأقبية وخلف الأسوار، عن كل إنسان لقيته ساعة وأحببت لو امتدت في تضاعيف الزمن، لا ليس امتدادًا أفقيا، ولكن امتدادا رأسيا متوازيا، لو يفعلها الزمن ويسمح لنا بمسارات متوازية حتى

نعب من الحضور لما طلبنا من الحياة فوق ذلك.

....

قالت لي، لا تغب ثانية، لم يمض إلا قليلا على فراق موقوت، لكنها قالت، أما أنا فكنت أكتم وأقول ليتها لا تقول.

كنت قبل لقائها عندما أسافر بجسدي أغلق على قلبي أقفاله، فلا يختبر شيئا من دروب الحياة قبل أن تشاركه هي تلك الدروب أولا، أما اليوم فإني لا أرى شيئا إلا بعينيها هي، ولا أسمع همسًا إلا بسمعها هي، ولا أشعر بديب حزن ولا فرح إلا كأنني هي، أو هي أنا.

رغم أن الوجود ليس بالجسد فقط، إلا أنني كإنسان ضعيف لم يعد يحتمل سوى اجتماع الحضورين، وغياب كل غياب لم يعد يجدي معه أي تعلل، ويكأنني أطلب خلودًا كالمتنبي وأريد من زمني ذا أن يبلغني، ما ليس يبلغه من نفسي الزمن!

إذا أردت أن ترى للتاريخ وجها فهو أشبه بوجه المدن القديمة، لا يخطؤه كل من مروا بها ساعة أو مكثوا فيها عِقدين.

وجه طنجة

السادة المتوجهون إلى المحمدية، عين السبع، الرباط أجدال، الرباط المدينة، سلا تبريكيت، القنيطرة، القصر الكبير، أصيلة، طنجة المدينة، اصعدوا القطار من فضلكم، الدرجة الأولى في مقدمة القطار، من فضلكم انتبهوا للسير ..

تدفق صوت مذياع المحطة الآلي يكرر على المسافرين بالعربية والفرنسية القطارات التي وصلت للتو، والرحلات التي ستنطلق، أفتح صدري لبعض الهواء البارد وأطابق رقم القطار مع التذكرة في يدي ثم أستسلم لتيار المسافرين الصاعد إلى القطار.

كل شيء منبسط أمام عينيك في الطريق إلى تلك المدينة الشمالية، السهول والوديان والمراعي، الأرض المحروثة المحملة بالبذور في طياتها تستعد لأمطار الشتاء، والأزهار المتناثرة التي تودع شمس الصيف، البيوت المتراصة على الحواف والشياه التي ترعى أمامها، الهضاب والجبال أحيانا ولون البحر الذي يلوح من بعيد كلما اقترب خط السكة أكثر إلى الشمال، الصور من خلف النافذة تتداخل مع الأصوات العربية المحرّفة بالدارجة المغربية أو اللغة الفرنسية، وأزياء النساء المحليات وصخب الأطفال في ممشى القطار الذي لم يتوقف إلا بذلك الصوت الآلي ينطق من جديد بعد ساعات طويلة: طنجة المدينة، نهاية السير.

كانت الشمس قد غربت، وإن كان الضوء الأخير منها ما زال في الأفق ترسله على استحياء من مرقدها خلف البحر فيختلط مع أضواء المدينة ومصابيحها التي صحت للتو. السيارة انطلقت من المحطة صاعدة

نحو الأفق، مُستقبلتي الطنجيّة المضيافة وصديقها يعرفانني على المدينة الوليدة في عيني، سلكنا شارع البوليفار الرئيسي كل مبانيه كاسمه فرنسية الطابع. تشعر كأنك في مدينة أوروبية بامتياز، لا يقطع بأوروبيتها إلا عباءات بعض الرجال والنساء ذات الطُرز المغربية المميزة.
شقة صغيرة في الدور الأرضي من بناية هادئة، باب المطبخ يطل على فناء صغير محفوف بشجر الورد والريحان، يتوسط الفناء طاولة ومقعدين، وجه حبيبتي الصباحي هنا يتناول معي الكيك والشاي، أستكمل قراءة الجريدة وهي تمسك بالبخاخ وتمطر الشجيرات بقطر الماء، لم أستطع أن أنظر إلى ذلك المكان بغير هذا المشهد الذي يدور في رأسي، أي صباح استقبلتني به هذه المدينة العجيبة.
كانت المدينة تتفتح أمامي صفحة صفحة، تتدفق إلى داخلي دفعة دفعة، كشراب جديد يذيقني منه رشفات بعد رشفات، وأنا لم أكن بالمتعجل، فهذه مدينة لا يصلح معها من صفات العجلة شيئا.
كنت أشعر بالبحر في كل مكان، لم أره بعد ولكن في كل شارع من شوارعها أشعر بأنني أسمع هديره من بعيد، كأنه يعزف سيمفونية هادئة تسير في أوصال وعروق المدينة. لاحقا اكتشفت أن كل شوارع المدينة تقريبا نهايتها البحر، من الشمال البحر الأبيض ومن الغرب المحيط الأطلسي.
عندما وقفت عند المحيط لأول مرة اختطفني الزمن في لمح البصر، أحسست بحوافر فرس عُقبة غارسة في الرمال، سمعت صهيله وكلمات فارسه الذي لا يريد أن يتوقف عن العدو والفتح، وعندما وقفت عند البحر لأول مرة. ونظرت صوب جبال إسبانيا المترائية من بعيد؛ انفلت كل شيء، كانت غارقة في الضباب كحلم غير واضح المعالم، حلم

لثمانية قرون كان ثم ذاب في الضباب كأن لم يكن.

من فوق الجبل المطل على المضيق تشعر أنك تطل من علٍ على عالم يبدو كزقاق صغير تحت شرفتك، تُرى هل رست سفينة نوح على هذا الجبل فعلًا وجاء الطائر صاحب الطين في منقاره فهتف نوح: "الطين جاء"، فوُلدت "طن جه"؟ كل من مروا على هذه المدينة لهم روايتهم الخاصة لاسمها، كلهم يدعي أنهم من سموها، قصص الفينيقيين وأساطير الإغريق وكتابات الرومان وكل القادمين من البحر، حكايات الأمازيغ وكتب العرب المدونة في الأسفار والرحلات وكل المنبعثين من الصحراء، كلهم يدعي وصلًا بطنجة، وطنجة لا تبالي، تبتلع كل شيء وتمزجه مرة أخرى بلون الصخر والرمل والبحر.

لافتة صغيرة في ساحة السوق تشير إلى طريق ملتوٍ ضيق لضريح ذلك الرحالة الفريد، محمد الطنجي، أو ابن بطوطة كما اشتُهر؛ ذلك الشاب ذو الاثنين وعشرين عاما، الذي نزل من شرفته الطنجية إلى العالم،ذلك المؤرخ الشاعر الفقيه القاضي الذي قرر قطع بلاد المغرب إلى مصر ثم السودان فبلاد الشام فالحجاز ومكة والحج، فالعراق وفارس وبلاد ما وراء النهر والهند والصين وبلاد التتار وأواسط إفريقيا، ثم بعد ما يقارب الثلاثين عاما يعود ليدفن هنا مرة أخرى، أو ربما ليس هنا، في مكان ما غير معلوم، في مكان ما يبتدئ من طنجة وينتهي إليها ويطيف بكل العالم.

ما إن تترك المدينة خلفك حتى يقابلك مرفأُها الكبير، المرفأ الذي انطلقت منه ذواتُ الألواح والدسر بخيول الفاتحين أصحاب طارق، ومن بعد قرون خيول المرابطين والموحدين في محاولة الإنقاذ الأخيرة لأندلس يوشك على الضياع، المرفأ الذي لم ينتظر كثيرا حتى استقبل آلاف الفارين بأشرعة منكسة من وطن محترق وغربة لن تنتهي، كأني أرى مدامع القوم وحسراتهم

عدد موج البحر المتكسر على شاطئ المدينة، والشاطئ متبلد مر عليه الآلاف من قبلهم، الإغريق والرومان والقوط، ومر عليه الآلاف من بعدهم البرتغاليين والإنجليز والإسبان والفرنسيين، رحلوا كما جاؤوا منه تارة أخرى، تاركين المدينة تلملم جراحها في كل مرة.

لم تغادر الأندلس من هنا قط، رغم أن البرتغال دمروا كل معالم المدينة وطردوا منها أهلها إلا أنني أشتم رائحة الأندلس في وجوه الرجال وحُجبُ النساء، عندما دخلت للحي القديم، عرفت ذلك، استسلمت تماما لمتاهة المكان والزمان. مُحال أن تتلمس طريقا مستقيما لأكثر من عشرة خطوات، أو زقاقًا يتسع لمرور أكثر من ثلاثة من المارة متجاورين، كل زقاق به عشرات التفريعات، البيوت المصبوغة بالأبيض والأبيض والأزرق تضفي على المتاهة سحرا خاصة، الزوايا والخانقات والأسبلة التي ما زالت صنابيرها النحاسية تعمل، الزخارف التي تبدأ ولا تنتهي، تمر عبر الجدران إلى الألبسة والحلي والمقاعد الصغيرة والجرار الفخارية المزروعة.

ليست الأندلس فقط التي لم تغادر، كلهم لم يغادروا، حتى هرقل ومغارته ما زالت شاخصة أمام البحر، عندما تترك المدينة القديمة خلفك تجد أن أوروبا كلها أمامك مرة أخرى؛ شارع بوليفار الذي استقبلني في البداية ممتد من أول المدينة لآخرها كأنما هو قادم من أول القرن التاسع عشر بكل مبانيه العالية ذات الطراز الباريسية، وأرصفته المرصعة بالأحجار الصغيرة المتراصة على جانبيه، المقاهي والمحلات نصف العربية نصف الفرنسية، المهرجانات السينمائية والحفلات الغنائية، البارات والحانات الليلة، القبعات الغربية وأزياء النساء المكشوفة، لوهلة تظن أنك في مدينة جديدة أخرى.

ذات فجر، صليت في جامع قريب، سمعت للمرة الأولى الرعد بورش عن نافع، بعد الصلاة جَلَسَتْ حلقة صغيرة تردد الذكر وتقرأ ربعًا من آل عمران

بصوت جماعي، ويكاد شاطئ المدينة ينسيني أن أحوازها أحواز رباط وجهاد وزوايا صوفية ملأت الجبال، وجاهدت السنين الطوال، كان الخط المغربي في المصحف الذي بين يدي يذيبني مع انحناءات أصواتهم وحروف لاماته ونوناته وياءاته بنهاية الكلمات، كيف استقى ذلك الخط العجيب من جفاء الخط الكوفي هذا اللين المتنوع، وكل تلك الأقواس الآسرة.

مرت ثلاثة أسابيع، لا أتذكر أنني خلال هذه الأيام القليلة ركبت أي مواصلة داخلية في المدينة، فقط حين جئتها من القطار وحين رحلت منها إلى القطار، أحب المدن الصغيرة، التي أترجل فيها إلى وجهة أنا قاصدها، كان البحر يدور معها ويدورها فإذا هي منبسطة أمامي على كف يدي أكوره فأسير إلى كل اتجاه مستمتعا بالشوارع والأزقة.

ما الذي ينقص مدينة كهذه، آه، بالطبع أعرف، ربما منذ اللحظة الأولى، وجه حبيبتي التي تناولت معي الكيك بالشاي في اليوم الأول لي هنا، ربما لو كانت معي لقطعنا جوازات السفر وقدمنا طلب اللجوء، أو اختفينا في أحد تلك الأزقة إلى الأبد، أو ركبنا البحر وهمنا في الصحراء كابن بطوطة من جديد، أفقت من أحلامي على وقع صوت الرسالة التي أتتني للتو من جهة عملي تذكرني بتقرير عن الرحلة. ضحكت، ذلك تقرير لن يرى فيه أحد وجه طنجة.

الفتاة التي قابلتها في العرس

في كل مرة أشعر أنني في منتصف القصة، أقلب غلاف الكتاب، وأمسح ذاكرتي، واقرأ من البداية، بهذه الطريقة فقط لا تنتهي قصتي السعيدة، ولا أمل من البدايات الجميلة أبدا.

الفتاة التي قابلتها في العُرس

كان الجو خريفيا، حديقة صغيرة تتوسط المكان، أضواء تعلو تارة فتكشف الضحكات على كل الوجوه، وتخفت تارة فتستر الهمسات والنظرات من كل العيون، تتلون وتتموج بكل ألوان الدنيا فتحدث ضجيجا لا يضاهيه سوى الضجيج الصاعد إلى السماء من السماعات العملاقة التي تصدح بأهازيج الأعراس.

بدلتي السوداء وقميصي الأبيض ويدي التي ما زالت في جيبي أقف على حافة العرس جامدا كعادتي في تلك المناسبات، لدقائق أنظر للحدث وكأنني أحلق فوقه لا أشارك فيه، الكؤوس الحمراء التي تدور بالشربات والأغاني الصادحة التي تُلعب واحدة بعد أخرى، فلاش الكاميرات الذي يومض كل دقيقة، والأطفال الذين يلهون بين أرجل الحضور، وأنا .. كعادتي أقف وحيدًا في تلك اللحظات.

أتخيل دائما كما في أحلامي فتاة أحلامي، تقف بين المدعوات، تقع عيناي عليها من النظرة الأولى أهمس في أذن أحد أصحاب العرس عله يعرفها، أحصل على أي وسيلة اتصال بأهلها. آه، قصة رتيبة، لعل هذا ما يخطر ببال الشباب والفتيات عندما يتزين لعرس أحدهم، ربما أود أنا ذلك أيضا، ولكن ليس بهذه الطريقة الأوتوماتيكية.

فكرت أن أنهي فقرة تأمل قاع أحزاني كما يسميها أصدقائي عندما يضبطونني متلبسا بهذه الحالة، أن أشارك ربما في رقصة مع العريس، أو أن أذهب حتى للسلام على أصحاب العرس كتسجيل حضور قبل الانصراف، لكنها لم تتركني أفعل أيًّا من هذا، ظهرت فعلا، كما لو أن ليلة ظلماء تحسب أنها

في آواخر الشهر العربي ثم فجأة يظهر القمر فتدرك أنك في ليلة بدر، لكن سحبا سوداء ثقيلة كانت تحجبه فلم تتبين إذا كان غائبا أم فقط غائمًا.
كانت أغنية "أنا عارف إني بحلم" بدأت عندما رأيتها تتزين بالأزرق المطعم بالأصفر الذهبي، توزع البسمات على كل الحضور يبدو أنها من أصحاب العرس، تدبدب برجليها وتفتح ذراعيها في حفاوة عجيبة لكل مقبلة عليها كأنما قابلت حبيبها تنتظره من سنين. وجهها ليس كما تعرف من وجوه النساء أو الناس، كأنما صيغ كاملا من جُمان، لا تعرف على وجه الدقة أي شيء يجذبك فيه، فقط كله جميل.
لا، لن أنساق للحديث عن عينيها، نعم لقد رأيتهما أول وهلة، قبل النصيف وقبل الثغر الباسم وكل تلك التفاصيل، لقد قرأت المتن أولا، فواريت نفسي عنه وذهبت أتلهى بالحواشي، ربما لو نظرت أكثر لاحترقت، لا يليق للشارب أن يفرغ الكأس في جوفه كالمغبون دفعة واحدة، إنما الكأس في الرشفات رشفة رشفة.. دفقة دفقة.. نظرة نظرة.
ماذا أفعل الآن؟ تذكرت القصة الرتيبة التي فكرت فيها أول الليلة، أن أذهب فأميل إلى أحدهم وأسأله عنها، ربما عن أستطيع الحصول على صفحتها في العالم الأزرق. هذا أفضل خيار، أكتب اسمها وأرى صورتها، أرى أول منشور بيت شعر أهواه، وأول صورة لمكان محبب إلى قلبي، أرسل لها برسالة أتحجج فيها بالسؤال عن أي شيء، فتفهم المغزى أو لا تفهم، فنبدأ في الحديث حتى أراها، ثم أخبرها.
ربما تكون قصة ذات نهاية مفتوحة، ربما أترك تلك الظرة تختمر في رأسي وأذهب لأراها مرة أخرى تسحب كتابًا من رف مقابل للرف الذي أسحب منه عند بائع كتب، أو تجلس في المقعد الذي يقع أمامي مع صاحبة لها في قاعة سينما، أو تخرج بباقة زهور من محل بائع الورد قبالة بيتي، أو تظهر

على المنصة فجأة في ندوة أحضرها.

تمنيت للحظات أن تكون فتاة أعرفها من قبل، بدت لي اليوم جميلة أكثر من أي وقت مضى، أكتب اسمها في قائمة هاتفي وأرسل لها رسالة قصيرة أعبر فيها عن إعجابي بها ورغبتي في التعرف، ترتيب آخر جميل لهذه القصة القصيرة، أو يمكن أن تكون قصة قصيرة حزينة. أترك تلك النظرة تختمر في نفسي، ثم لا أراها مرة أخرى مطلقًا، تسافر، تختفي، أو تنقطع القصة انقطاعا لا رجعة فيه، أن تكون متزوجة، ومعها طفل يعلب الآن مع هؤلاء الأطفال.

انفلتت مني ضحكة على الهاجس الأخير، لكن طيفه لم يلبث أن أخذ في التحقق، فتلك فتاة أخرى تحمل طفلة جميلة وتذهب بها إليها كما لو كانت أمها، الطفلة ما إن رأتها حتى تهللت ومدت ذراعيها الصغيرين لتتشبث بها، لم تكن تشبهها كثيرًا، لكن رابطا ما أشعر فيه أنها منها.

وردٌ على الطوق المزيَّن لرأس الطفلة أصبح يحجب شفتاها التي تقبلان رأسها وتلثمه باستمرار. لا أنجذب بشكل عام إلى الأطفال إلا بشكل عابر، لكن هذه الطفلة دونا عن جميعهم تلفتني، عينان ذواتا لون لم أره في ألوان العيون من قبل، بني مخلوط بخضرة داكنة كأنما سوداوان وما هما بالسوداوين، ربما هما زيتونيتان، وجه دائري صغير مغر بالتقبيل وثغر بشفتين ورديتين ما زال بلا أسنان كأنه يقطر شهدا، للحظة تمنيت أن تكون هذه ابنتي التي تحملها لا ابنتها.

الذي لم أتوقعه في أي قصة أنها بدأت تتحرك نحوي، لوهلة توهمت أنها تبتسم، تبتسم لي تحديدًا، عيناها تنظر إلى عينيَّ، خطوات تفصلها عني، ترى هل تعرفني، ربما تتابعني من بعيد، تقرأ ما أكتب، تعجب بما أصور، تسمع ما أدندن.. تلهث التخرصات سريعًا في عقلي. قلبي هو الآخر يزداد

النبض فيه أحاول أن أجمع بعض العبارات التي يمكن أن أرد بها على تحية صارت على بعد خطوتين مني والمخرج يريد من المشهد أن يكتمل بأغنية "تتجوزيني" التي بدأت للتو (فيه حاجات لما بتتقال بتغير كل حياتنا معاها) ، تقترب وتميل برأسها ناحية أذني حتى أستطيع سماعها وسط الضجيج، لا أسمع جيدًا فتكرر الكلمات بصوت أعلى : واقف سرحان كده ليه خد بنتك شوية.

أومأت رأسي متفهمًا وحملت الصغيرة، طبعت القبلات على خدها المورد الصغير ورحت أجاريها في مناغاتها المدغدغة.

....

أخيرا في السيارة إلى بيتنا، انطلقت تحكي باندفاع محبب إلى نفسي عن العرس وعمن قابلته، عن التفاصيل الصغيرة والأشياء الجميلة والأمنيات الدعوات والمباركات التي تناقلتها مع الأهل والأصحاب، توقفت برهة وسألت: كان شكلك عجيبا عندما أتيت لك بالبنت، كنت تقف كالغائب عن الوعي تحملق في، بماذا كنت تفكر ؟

- بأنني معجب بك وأريد أن أتعرف عليك

أطلقت ضحكة مرحة: كف عن المزاح قل لي الآن في أي واد كنت تهيم، وأطالت بتنهيدة الياء قبل الميم قبل أن تلتقط هاتفها لتراجع ما فاتها أثناء الحفل.

- في واديك.

رسالة في الهاتف مني، فتحتها متعجبة غير مبالية بجوابي الفاتر منذ قليل، جملة مقتضبة تتوسط الشاشة: أنا معجب بك، ممكن نتعرف؟

العجيب في صاحبتي أنها تساعدني بشكل جيد في قصص الخيال التي أعيشها، فقد تورد وجهها أول ما قرأت الرسالة كأنها جاءت من فتى رآها

في العرس فأرسل بها إليها، ربما هذا من أكثر ما يدهشني فيها، احتفاظها الدائم بكونها تلك الفتاة التي وقعت عليها عيناي للمرة الأول منذ سنوات.

المحتويات

الإهداء	4
بيان	5
عندي عشرون	15
حالة حب	25
غريم الشجن	35
للحب وجوه أخرى	45
منى	57
الصدمة	71
من بعيد	87
الألم	93
الإنسان والعلاقة	101
ألف ميم نون	111
قد كان في يناير	121

الدماء التي تنزف	193
الثائر الأزرق	201
فاطمة جاب الله	209
يومًا ما كنت إسلاميًا	227
المسرح	235
أيوب سلطان	251
كفر نبل	263
وصال	275
أسماء	291
عن أجمل شيء أنجزناه	307
أحلام الماضي	317
في الغياب والحضور	325
وجه طنجة	333
الفتاة التي قابلتها في العُرس	343